جمهورية مصر العربية

وزارة الاوقاف

المجلس الأعلى للشئون الاسلامية

لجنة التعريف بالإسلام

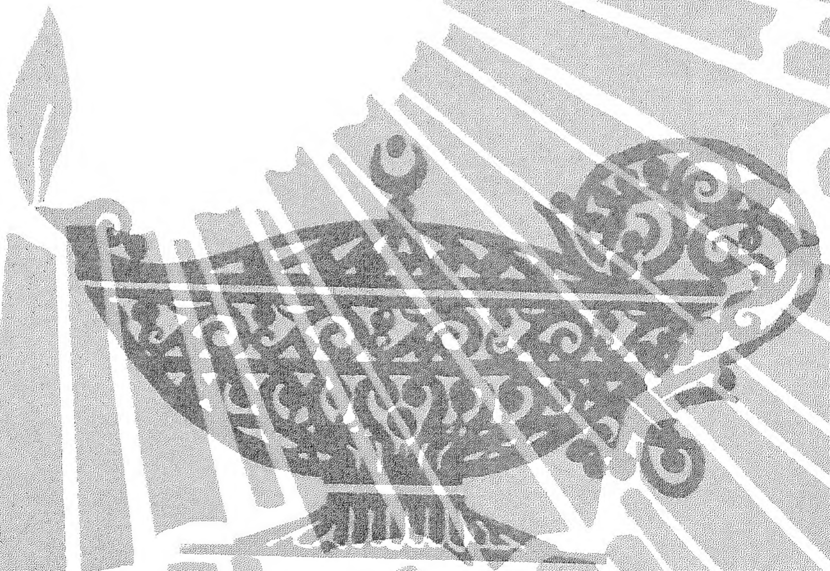
من أخلاق النبى

وإنك لعلى خلق عظيم

قرآن كريم

تأليف

الدكتور أحمد محمد الحوفى



القاهرة

١٩٩٤م - ١٤١٤ هـ

جمهورية مصر العربية
وزارة الاوقاف
المجلس الأعلى للشئون الاسلامية
لجنة التعريف بالإسلام

من اخلاق النبي

وإنك لعلى خلق عظيم
قرآن كريم

تأليف
الدكتور أحمد محمد الحوفي

القاهرة
١٩٩٤م - ١٤١٤هـ

تقديم اللجنـة

عرض على اللجنة العامة للتعريف بالاسلام تقرير اللجنة الفرعيـة على كتـاب الدكتور أحمـد الحوفى : « من أخـلاق النبى » صـلى الله عليه وسلم ، واستوعبت اللجنة ما ورد فى التقرير من وجوه الاستحسان للكتاب لما تضمنه من مميزات فى أسـلوبه ، وفى تنسـيق فصـوله ، واستيفائه لجوانب الحديث المنصف عن أخلاق الرسول محمـد صلى الله عليه وسلم ، ولما ختم به الكتاب من حسن الرجاء فى الله أن يهدى الجميع الى التمسـك بأهداب الاسلام والاقتداء برسول الاسلام ، فى أخلاقه وكمـاله حتى تكون أمة محمد على مايليق بخير أمة أخرجت للناس .

ويسر اللجنة أن تقدم هذا المؤلف فى مقدمة سلسلة كتب السـيرة النبوية والتى يتجه المجلس الأعلى للشئون الاسلامية الى اتمامها قريبا ان شاء الله .

رئيس اللجنة
عبد اللطيف السبكى

بسم الله الرحمن الرحيم

نجـــوى

سيدى يا رسول الله

ماذا يستطيع البيان – وهو كَلِيلٌ – أن يبلغ من تقريب عُلاك ؟

وماذا يخط القلم – وهو فَليل – فى تصوير سجاياك ؟

ومن أين للقطرة أن تصف البحر ؟

وأَنَّى لذَرَّة الرمل أن تصور الجبل ؟

ومن أين للهبَاءة أن ترسم الشمس ؟

إن قصارى ما يبلغه جهد القلم أن يشير فى هيبة إلى مقامك الأسمى ، ومكانك الأَسنى ، ومحلك الرفيع .

لقد جاءت بعثتك بشيرا بميلاد الحق الذى توارى مناره ، وباستهلال الخير الذى طال انتظاره ، وباسترداد القِيمِ العالية والمُثُل السامية مكانها بعد ذلة وهوان ، إذْ بعثك الله على فَتْرةٍ من الرسل ، ضلَّ فيها الناس رشادهم ، وجَحَدوا عقولهم وقلوبهم ، فصاروا أصناماً تعبد أصناماً ، وأحجارا تُقدِّس أحجارا ، وملأُوا الأَرض خرافات وأوهاماً ، وانتهز الأَقوياءُ فرصة الجهالة الجهْلاء ، فاستبدوا بالشعوب ، وسيطروا على العقول والقلوب ،

وسخروا لمنافعهم وشهواتهم خيرات الأرض وقُوَى البشر ، فإذا الأكثرونَ عبيد للقلَّة ، وإذا القلة طبقات يُسَخِّرُ بعضها بعضاً ، وهؤلاء وأُولئك غَرْقَى فى الضلالة ، أَسْرى للشهوات ، أعداء لكل فضيلة ، حتى ضجت الأرض مما تحمل من شرور وآثام .

لكن الله لطف بعباده ، فاصطفاك لتبلغهم ختام شرائعه ، وتهديهم بآخر كتب . فكنت الغيث تقاطر على نبات صَوَّحَ فردَّ إليه الحياة ، وكنت الضوء للغالين بَصَّرهم طريق النجاة ، فاسترد الخلق إنسانيتهم وكرامتهم ، إذ عبدوا الله الأحد بعد أن عبدوا الخشب والحجر ، فتطهرت مشاعرهم من أرجاسها ، وانطلقت عقولهم من أغلالها ، وتحرروا من إسار الرق ، وحطموا أغلال الاستعباد .

وإذا كانت الفلسفات والوثنيات قد استغلق الصواب عليها ، فأغرقت فى المادية أو الروحية ، فإن شريعتك وحدها هى التى لاءمت أحسن ملاءمة بين المادة والروح ، وبين الدنيا والآخرة ، فجعلت لكل منهما نصيباً من الوجدان والعقل والعمل لا يتجاوز نطاقه ولا يَطْغَى ، فلم يكن عجباً أن صار أتباعك الأولون سادة العالم ، وخير أُمة أُخرجت للناس .

حبيبي يا رسول الله

يا لها من حديقة فَيْحاء غَنَّاء ، كل ما فيها طَيِّبُ المظهر والمخبر ، عَبِقُ الشَّذَى ، حلو الجنَى ، شهيٌّ إلى كل نفس .

إنها أخلاقك الفُضْلى التى تتسامى عن الأنظار فلا يدرك أحد أيها أعلى مكاناً ، وتتسابق إلي القلوب فلا يعرف أحد أيها أسرع جرياناً ، ولا أيها أعظم فى النفوس آثارا وأرسخ بنياناً .

لقد قضيتُ أَسعد أَيام العمر سادناً فى هذه الحديقة ، وكلما أمضيت فى ظل فضيلة من فضائلك زمناً خيل إلىَّ أَنها أَبرز فضائلك ، فإذا ما أَويت إلى ظل أُخرى تراءت لى أَعظم شمائلك ، ثم أَتفيأُ ثالثة فتبدو كأَنها أَعظم خمائلك ، فلا سبيل إلى مفاضلة أَو موازنة أَو ترجيح .

مولاى يا رسول الله

معذرة عن قصور الرؤْية ، فإن العُشْبة النابتة فى أَصل الدوحة قد تَشْرَئِبُّ إلى معرفتها ، فيخيل إليها الوهمُ أَنها علمت حقيقتها ، على حين أَن نظرتها لم تتجاوز رؤْية الأَصل القريب من الثرى .

مغفرة عن عجز القلمَ ، فإن بيانك الرائع لو وكل إليه أَن يصور علاك لأَحجم واعتذر ، وما بيانى إلا غدير يجرى من نهرك ، أَو جدول يتجمع من قطرك .

عفواً عن التطاول إلى مقامك الأَعلى ، فما قصدت إلا أَن أُذَكِّرَ قومى بأَخلاقِك المُثْلى ، فهى ذخيرتهم من القوة ، ورصيدهم من العزة ، وسبيلهم إلى المجد ، وطريقهم إلى الأُلفة ، وغذاء لقلوبهم ، ونور لعقولهم ، وهى الملجأُ والملاذ ، إذا عزَّ ملجأٌ ونأَى ملاذ .

إمامى يا رسول الله

إن مئات الملايين من أَتباعك فى أَشد الحاجة إلى أَن يَتَملَّوا بالنظر إلى أَخلاقك العظيمة ، لعلهم يتأَسون بها فرادى وجماعات .

فأَنت مثلنا الأَعلى ، وأَنت رائدنا الأَسمى ، وأَنت الأُسوة والقدوة والإمام .

سيدى الحبيب

يا سعادتى إذ سعيت إلى مثواك الطهور ، فوقفت بين يديك فى شوق الملهوف ، وغبطة المجدود ، ملبياً للدعاء الكريم الذى هتف فى خاطرى أن أتجه إليك لأستأذنك فى نشر هذا الكتاب قبل طبعه .

لقد شعرت فى وقفتى أن نفحات من روحك العظيم تصعد بى إلى السماوات العُلا ، حتى لقد خيل إلىَّ بعد الإفاقة من الاستغراقة أننى عشت فترة روحاً بغير جسد ، روحاً يتخطى الأحقاب فى لمح البصر ، فيشهد سيرتك الغراء من المشرق إلى المغيب ، ويراك فى هذه المدينة المباركة تقيم دولة الإسلام على دعائم العقيدة والشريعة ، وترفع سمكها بالأخلاق العظيمة والمثل الرفيعة ، وتحصنها بالخير والحق والعدل والحرية والإخاء والمساواة .

مولاى خاتم الرسل وخير البشر .

إن الفرحة بالمثول لدى ثراك العبق أسمى من أن يصورها رائع من الشعر أو بارع من النثر ، فأرجوا أن تأذن لى فى وداع إلى لقاء يتكرر ما بقيت حياة ، والسلام عليك ورحمة الله .

احمد محمد الحوفى

تمهيد

المذاهب الأخلاقية

ما الأخلاق

هذه الأَخلاق التى تَحدَّثَ القدماءُ والمُحْدَثون بها ، والتى لا يَعْرى إنسان من لبوسها ، لأَن منها الطيب ومنها الخبيث ، كالصدق والكذب : والأَمانة والخيانة ، والعفة والفجور ، والشجاعة والجبن [1] . هل هىَ فى حاجة إلى تعريف ؟

نعم ، إنها معروفة لنا جميعا ، ولكنها تحتاج إلى تعريف يكشف عن أَصلها وعن ينبوعها .

ولعل أَسهل ما تُعرَّفُ به أَنها عادة مقصودة مُرَادة ، وإن شئت فقل إنها عزيمة مكررة معتادة ، توجه إلى الخير أَو إلى الشر .

وذلك لأَن العادة كثيرا ما تكون عَفْوِيَّةً غير مقصودة سواء أَكانت حسنة أَم قبيحة ، فلا تُسَمَّى خُلقا .

وكذلك العزيمة قد تدفع إلى العمل مرة أَو بضع مرات : فلا تدخل فى نطاق الأَخلاق ، كالذى يعلم أَن صديقه مريض فيعتزم على زيارته ،

---

(١) الخلق فى اللغة السجية والطبع سواء أكان حميدا أم غير حميد ، ولهذا يوصف الخلق الممدوح بأنه كريم أو عظيم أو حميد أو رفيع ويوصف الخلق المذموم بضد هذه الأوصاف .

ويسرع بتنفيذ عزيمته . والذى يرى شخصاً فى البحر مشرفاً على الغرق ، فيسارع إلى نجدته ، والذى يقضى بين خصمين بالعدل أو بالظلم مرة وحيدة فى حياته ، فإن عمل كل من هؤلاء لم يتكرر تكررا ينبئ عن عادة مقصودة أو عزيمة معتادة .

ولا بد من عنصر الاختيار والحرية ، لأن الذى يبذل ماله مضطرا مجبرا لا يُسَمَّى سَخيًّا .

لهذا نقول إن العزيمة إذا اعتادت عملا صار خُلُقاً ، فالذى تعود الصدق يسمى صادقاً ، فصار الصدق خلقاً من أخلاقه ، والذى تعود الأمانة يسمى أميناً ، والأمانة خلق من أخلاقه ، والعفيف هو الذى تسيطر عليه العفة فى جميع حالاته ، والفاجر هو الذى تستعبده شهوته فلا يستطيع أن يَرْدعَهَا

ومعنى هذا أن ميلا من الميول طبع الشخص بطابعه زمناً طويلا ، فصار خُلُقاً ثابتاً له .

فإذا كانت الميول الغلابة على شخص خَيِّرة كلها كانت أخلاقه فاضلة ، وإذا كانت الميول المسيطرة عليه شرا كلها كانت أخلاقه ذميمة فاسدة ، وبين هذا العُلُوّ وذاك السُّفْلِ درجات متفاوتات وطبقات متعددة .

ولعله قد تبين من هذا أن الأخلاق نفسية أو معنوية ، وأن مظهرها الخارجى هو ما نسميه المعاملة أو السُّلوك ، فالأخلاق مصدر ، والسلوك مظهر .

أما الغاية التى يتوخاها ذو الأخلاق الفاضلة فهى السعادة التى يشعر بها ويَنْعَمُ ، وهذا هو ما أراده الغزالى بقوله : «وغاية هذا الخلق أن يصير

الفعل الصادر منه لذيذا ، فالسخى يستلذ بذل المال الذى يبذله ، دون الذى يبذله عن كراهة ، والمتواضع يستلذ التواضع (١)

ولقد سبق الإمام الغزالى إلى تحديد الخُلُق بما يكاد يتفق وهذا التعريف ، فقال إنه هيئة فى النفس راسخة ، عنها تصدر الأَفعال بسهولة ويسر ، من غير حاجة إلى فكر ورويَّة

فإن كانت الهيئة بحيث تصدر عنها الأَفعال الجميلة المحمودة عقلا وشرعاً سميت تلك الهيئة خلقاً حسناً

وإن كان الصادر عنها الأَفعال القبيحة سميت تلك الهيئة خلقاً سيئاً .

وإنما قلنا إنها هيئة راسخة لتتحقق المداومة على الفعل ، لأَن من يصدر عنه بَذْلُ المال على الندور لحاجة عارضة لا يقال خلقه السخاءُ ، ما لم يثبت ذلك فى نفسه ثبوت رسوخ .

وإنما اشترطنا أن تصدر عنه الأَفعال بسهولة من غير رويَّة، لأَن من تكلف بذل المال أَو السكوت عند الغضب بجهد وروية لا يقال إن خلقه السخاءُ والحلم .

فهنا أَربعة أُمور : أَحدها فعل الجميل والقبيح ، والثانى القدرة عليهما ، والثالث المعرفة بهما ، والرابع هيئة للنفس بها تميل إلى أَحد الجانبين ، ويتيسر عليها أَحد الأَمرين ، إما الحسن وإما القبيح .

وليس الخلق هو الفعل ، فرب شخص خلقه السخاءُ ولا يبذل ، إما لفقد المال أَو المانع ، وربما يكون خلقه البخل ، وهو يبذل مضطرا أَو مُرائياً .

---

(١) احياء علوم الدين ٣/٥٠

وليس الخلق هو القوة . لأن نسبة القوة إلى الإمساك والإعطاء ، بل إلى الضدين واحدة . وكل إنسان خلق بالفطرة قادرا على الإعطاء والإمساك . وذلك لا يوجب خلق البخل ولا خلق السخاء . . .

وليس الخلق هو المعرفة . فإن المعرفة تتعلق بالجميل والقبيح جميعاً على وجه واحد .

بل الخلق هو الهيئة التى بها تستعد النفس لأن يصدر منها الإمساك أو البذل ، فهو صورة النفس الباطنة [1] .

ولكنا نلاحظ أن النفس ميدان فسيح يشمل كثيرا من القوى . وبعض هذه القوى لا صلة له بالأخلاق كالتخيل والتذكير والتفكير والذكاء والغباء ، لهذا لا بد من حصر الخلق فيما يتصل بالعزيمة . وفيما تبعث عليه من خير أو شر .

لمحة الى المذاهب الأخلاقية

اختلف الباحثون منذ القدم إلى اليوم فى الأساس الذى يقوم عليه صرح الأخلاق . فتعددت آراؤهم ، ولم تَسْلَمْ من النقد .

وأريد قبل أن أعرض للأساس الإسلامى للأخلاق أن ألم بهذه المذاهب فى إيجاز يغنى عن التفصيل .

(١) العرف

لكل أمة عُرْفُها ونظمها وعاداتها التى تتوسم الخير فى اتباعها ، وتُربِّى أطفالها على الخضوع لها ، وتؤنبهم أو تعاقبهم على مخالفتها .

(١) الاحياء ٣/٤٦

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن هذا العرف هو المقياس الأخلاقى ، فما وافق العرف كان خيرا ، وما خالفه كان شرا ، وما سكت العرف عنه كان الناس فيه مخيرين بين أن يفعلوه أو يتركوه .

لكن هذا المقياس مضطرب مختلٌّ ، لأن العرف لاثبات له ، فهو يتغير باختلاف البيئة والعصر ، ولأن بعض ما يبيحه العرف لا يقره العقل ولا يرتضيه الخير ، فقد كان شرب الخمر عرفاً عند العرب فى الجاهلية ، فحرمها الإسلام ، وكانت الغارات عرفاً عندهم ، فحظرها الإسلام ، وكان الاسترقاق عرفاً عند الأمم القديمة ، فلما جاء الاسلام ضيق روافد الرق ، وفسح الطرق لتحريرهم .

وكانت السرقة مباحة فى إسبرطة لتدريب الشباب على الحيلة والخداع فى الحرب ، على شريطة ألا يراهم أحد أو يعلم بأمرهم ، فكانوا يدخلون الحدائق على حين غفلة من أهلها ، ويَدْلِفُون إلى الموائد العامة فى غَيْبَة حُرَّاسها ، فإن غفلت عنهم العيون ونجوا من بَغَتات الرقباء أكلوا وشربوا ، وكانت عاقبة أمرهم خيرا ، وإن تنبه للسارق أحد وقبضت عليه الأيدى ، فيا للفضيحة والعار ، ويااللسبة الباقية والعقوبة المنتظرة ، فإنه يُشهَّرُ أمره ، ويسلم إلى مروض الأطفال فيضربه بالسوط ، ويحرمه الطعام ، لا لأنه سرق ، بل لأنه لم يأخذ حِذْرَه .

لذلك كان الغلمان إذا أقدموا على سرقة بالغوا فى التحرز والاحتيال ، حتى لقد وصل الأمر بأحدهم أن سرق ثعلباً صغيرا ، فحمله ومضى به ؛ ولما رأى الناس على مقربة منه وضعه تحت ثوبه ليخفيه على عيونهم ،

فأعمل الثعلب أنيابه ومخالبه فى بطنه . فمزق أحشاءه . والمسكين يمضى فى طريقه صابرا يفضل الموت على الفضيلة والعار [1] .

ثم إن الاستمساك بالعرف جمود وتحجر ، وتعويق عن التقدم والتطور وتقبل الآراء الجديدة . وهو إلى هذا كله معاداة للإصلاح والمصلحين .

(٢) المنفعة المادية

ذهب جماعة إلى أن المنفعة المادية أساس الأخلاق . وأجهدوا أنفسهم فى التفكير والتدليل والتعليل ، فالأعمال التى تحقق للجماعات مآرب مادية أو منافع عاجلة أو آجلة ، يصفونها بأنها من الأخلاق الفاضلة ، وكل خلق فاضل لابد أن يدور حول هذا المحور .

وإنهم بهذا ليتنكرون للأساس الروحى ؛ ويعدونه نزعات فردية ، لا تصلح أن تكون أساساً عاماً للناس كافة .

وهنا يكمن الخطر والضرر والتعادى والتدابر ، فإن صلة الفرد بالفرد ، وصلة الفرد بالجماعة ، وصلة الجماعة بالجماعة ، إذا ما قامت على أساس النفع المادى فقد قامت على الأنانية ، والأثرة ، والشره ، والغش ، وانتهاز الفرص ، وتجاهل الخير الذى يناله الآخرون ، فيحيا كل منهم لنفسه وحدها ، ويرى الآخرين خصوماً له ، فلا تعاطف ، ولا تآلف ، ولا محبة ، ولا إيثار ، ولا إخاء ، ولا ثقة ولا سلام .

وكيف يتحقق شيء من هذه الفضائل فى عالم هبط إلى درك الحيوانية ، وفقد معانى الإنسانية ، ومُثُلها الكريمة ، ودعائمها الخلقية السامية ؟

---

(١) تاريخ التربية ٣٧

على أنه مما لا شك فيه أن الأسباب الاقتصادية التى يدور حولها النفع المادى كثيرا ما تتأثر بأسباب غير اقتصادية ، فإن التعليم أو الأمية ، وكثرة السكان أو قلتهم ، والحرب أو السلام ، أسباب غير اقتصادية ، ولكنها ذوات آثار فى الاقتصاد بعيدة المدى ، فهل يرجع الأساس الأخلاق إلى الأحوال الاقتصادية وحدها أو إلى هذه الأسباب وحدها ، أو إليهما معاً ؟

(٣) السعادة الشخصية

يرى أصحاب هذا المذهب أن السعادة هى اللذة والخُلُوُّ من الأَلم ، فاللذة هى أساس الأخلاق ، وهى محور الأعمال ، والعمل يكون خيرا بقدر ما يحقق من لذة ، ويكون شرا بقدر ما يسبب من ألم .

ويزيدون على هذا أنهم لا يتطلبون اللذة فحسب ، بل يتطلبون أكبر لذة ، فإذا كانت أمام الشخص عدة أعمال تنتج لذة وجب عليه أن يختار أعظمها لذة .

وفى رأيهم أن الألم لذة سالبة ، فيجب على الإنسان أن يبتعد عما يسبب الألم .

وقد كان من أكبر الدعاة إلى السعادة الشخصية أبيقور (٣٤١ — ٢٧٠ ق . م) إذ رأى أن السعادة أو اللذة الشخصية هى غاية الإنسان ، وليس فى الحياة خير سواها ، وليس بها شر إلا الألم ، ونفى أن تكون للفضيلة قيمة ذاتية ، لأن قيمتها فى السعادة التى تصحبها .

ولم يكن أبيقور يعنى اللذة الحاضرة ، بل أراد أن نلقى نظرة على الحياة كلها ، ونتطلب لذة الحياة ، ودعا الناس إلى أن يسيطروا على شهواتهم ،

فيرفضوا اللذة التي تستتبع ألماً أكبر منها ، ويحتملوا الألم الذي ينشئ لذة أكبر منه .

وفى رأيه أن اللذات العقلية والروحية أقيم من اللذات البدنية ، ولهذا دعا إلى المعيشة السهلة اليسيرة المعتدلة العفيفة ، لأنها خير وسيلة إلى السعادة أو اللذة .

ومعنى هذا أن الفضائل فضائل لأنها تسبب للمتصف بها لذة ، فالعفة فضيلة ، والدعارة رذيلة ، لأن السعادة التى ينالها العفيف فى رضاه عن نفسه وفى بعده عن الألم الذى تسببه الدعارة ، يَرْجَحُ ما يجده الداعر من لذة وقتية يتبعها ألم النفس ، وفقدان الثقة ، وتعريض المال والصحة والشرف للضياع[1] .

والحق أن فى هذا المذهب مجافاة للصواب فى كثير من الأعمال والأحوال ، فإن الأخيار يحتملون ألواناً من العذاب والألم ليحققوا الخير لغيرهم . والآباء والأمهات كثيرا ما يشقون ، وكثيرا ما يطرحون لذاتهم ليسعدوا أبناءهم .

وإن المجاهدين ليفتدون أديانهم ، والشجعان ليشترون حرية أوطانهم بدمائهم وأرواحهم ، وهم لا يتوقون إلى شى غير إعلاء كلمة الله ، وحماية الأوطان ، بل إنهم ليتقدمون على هول المعارك ، معتزمين على الاستشهاد فى سبيل الله وفى سبيل الوطن ، فأين هى السعادة الشخصية أو اللذة التى قام عليها هذا المذهب ؟

(١) كتاب الأخلاق ١٠٦ احمد امين

نعم إن فى الاستشهاد فى سبيل الله والوطن سعادة ، ولكنها ليست السعادة التى ينادى بها أنصار مذهب اللذة أو السعادة الشخصية .

على أننا طالما رأينا ذوى النجدة يهْرَعُونَ إلى إطفاء حريق ، أو إلى إنقاذ غريق ، أو إلى تخليص أُناس من ضيق ، وهم لا يقصدون لذة ، ولا يتوقعون ثناءً أو جزاءً من أحد .

ثم إن هذا المذهب قائم على الأَثرة ، وإنها لشرٌّ يأْباه الخلق الكريم ، لأَن الذى يفعل الخير لغيره مجلبة للذة أَثِرٌ يفعل خيرا لنفسه لا للناس ، فهو يجود أو يَشْجُعُ أَو يَعفُّ ليكسب ثناءً ، أَو ليشعر بالقدرة والتعالى والتفوق ، وليس هذا من الخلق الفاضل الكريم ، ولأَن الفاضل فى رأْى أَبيقور لا يعنيه شيءٌ من الخير الذى يصيبه الناس ، أَو من الشر الذى يحيق بهم إلا بالقدر الذى يمس سعادته أَو شقاءه .

(٤) السعادة العامة

إذا كان أَبيقور قد أَسس مذهبه الأَخلاقى على السعادة الفردية ، فإن آخرين قد أَسسوا مذهبهم على السعادة العامة ، فذهبوا إلى أَن الواجب على الإنسان تحقيق أَعظم قسط من السعادة للناس ، فليست السعادة أَو اللذة مقصورة على العامل وحده كما دعا أَبيقور ، بل إنها تشمل كل من يتصلون بالعمل أَو يتصل بهم العمل .

وهم يرون أَن الفضائل تُعَدُّ فضائل لأَنها تثمر لذات أَكثر مما تثمر من آلام ، فهى فضائل وإن آلمت بعض الناس ، وهى فضائل وإن آذت الفاعل نفسه ، ويرون أَن الرذائل رذائل لأَن آلامها تَفُوقُ لذاتها .

فالصدق فضيلة لأنه يزيد سعادة المجتمع ، وبه يَرْقى المجتمع ويبقى ، فالطبيب بصدقه يرشدنا إلى ما ينفع صحتنا ، والمعلم بصدقه يربى أبناءنا ويعلمهم ، والعالم بصدقه يُنَمِّى معارفنا وتجاربنا ، ولولا صدق هؤلاء وأمثالهم ما وثقنا بخبر من أخبارهم ، ولا بنصح من نصائحهم ، ولكننا وثقنا بهم ، وتبيَّنا أن صدقهم نافع لنا ، فحكمنا بأن الصدق فضيلة ، وأوجبنا على الناس أن يَصْدُقوا فيما يقولون .

كذلك تبين لنا فى كل فضيلة أنها نافعة للمجتمع ، وتبين لنا من كل رذيلة أنها ضارة بالمجتمع .

والسعادة التى يعنيها هؤلاء تشمل السعادة الحسية والمعنوية ، واللذة التى يقصدونها تجمع اللذة الجسمية والعقلية ، وإن كان بعضهم يرى أن اللذة النفسية أشرف من الجسدية .

وهذا المذهب قديم ، فقد ذكر أرسطو أن أويدوكس كان يرتئى أن اللذة هى الخير الأعلى ، لأن جميع الكائنات تطلبها وترغب فيها ، سواء أكانت عاقلة أم غير عاقلة ، وكان يقول إن ما هو خير للجميع ، وما يرغب فيه الجميع ، هو الخير الأعلى .

ومن أكبر الدعاة إلى هذا المذهب بنتام (١٧٤٨ – ١٨٣٢ م) وجون ستيوارت ميل (١٨٠٦ – ١٨٧٣ م) .

يقول بنتام : وضعت الفطرة الإنسان تحت حكم اللذة والألم ، فنحن مدينون لهما بكل أفكارنا ، وإليهما ترجع جميع أحكامنا وجميع مقاصدنا فى الحياة .

ومن يَدَّعى أنه أخرج نفسه من حكمهما لا يدرى ما يقول ، فإن

غرضه الوحيد – حتى فى اللحظة التى يرفض فيها أعظم اللذات ، ويقبل أشد الآلام – إنما هو طلب اللذة ، والهروب من الألم[1] .

لكن هذا المذهب مع تساميه على سابقه ومع قربه إلى المثل الأعلى يكلف فاعل الخير أو الشر أن يحسب كل ما ينشأ عن فعله من لذة أو ألم لكل كائن يتلذذ أو يتألم من هذا الفعل ، سواء أكان من الناس أم من الحيوان ، وليس هذا بمستطاع .

ثم إن السعادة العامة ليست مقياساً مُحَدَّدًا ثابتاً ، لأن المحور هو اللذة والألم ، وهما يختلفان باختلاف الأشخاص ، وباختلاف الملابسات ، فقد يرى شخص فى عمل لذة ، على حين أن آخر يرى فيه ألماً ، وقد يرى شخص فى عمل لذة كبيرة بينما يرى آخر فيه لذة صغيرة ، وقد يرى الشخص الواحد فى عمل لذة فى وقت معين ، ثم يرى فيه ألماً فى وقت آخر .

وهو إلى هذا يربط عيون الناس إلى نتائج أعمالهم ، وما تكفله من لذة أو ألم ، غير متطلعة إلى سمو الأخلاق وإلى المُثُل العليا .

على أن السعادة العامة مقياس مؤقت لاثبات له ولا أمان فيه ، لأن الناس ينظرون إلى مصلحة المجتمع نظرات متباينة ، وهذه النظرات المتباينة تختلف من عصر إلى عصر ، بل تختلف فى العصر الواحد من بيئة إلى بيئة .

وكثيرا ما يتسلط الأقوياء ، فينصبون للمجتمع قِيَمًا فيها نفعهم وحدهم ، وفيها ضرر الضعفاء وحدهم .

ولقد يصاب المجتمع كله بالْخَور فى فترة من حياته ، فيركن إلى

---

(١) كتاب الاخلاق ٦٥ أحمد أمين

الرذائل أكثر مما يجنح إلى الفضائل ، وتروجُ فيه الأهواء ، أو تَسُودُ آراءُ الأدعياء ، ويفتقد المجتمع مثله العالية التى تكفل له الرقى والعلاء .

على أن أرسطو قد ناقش مذهب اللذة العامة فأيد بعضه ، وفنّدَ بعضه ، وجاء فى تفنيده أنه إذا كانت الكائنات العاقلة وغير العاقلة ترغب فى اللذة فماذا تكون قيمة هذا الرأى ؟

وقال إن الخير شىء نهائى ومحدود ، على حين أن اللذة غير محدودة ، لأنها قابلة للأقل والأكثر ، وإن بعض اللذات غير حميد ، فلا يصح أن تكون اللذة العامة أو السعادة العامة مقياس الفضيلة ، بل يجب أن تكون الفضيلة هى مقياس اللذات العامة (١) .

(٥) الضمير

أقام زينون الفيلسوف اليونانى (٣٤٢–٢٧٠ ق م) مذهبه الأخلاق على الضمير ، ثم عزز هذا المذهب الفيلسوف الألمانى كانت (١٧٢٤ – ١٨٠٤ م) .

وأساس هذا المذهب أن فى كل إنسان قوة فطرية يميز بها الخير من الشر ، كأنها إلهام ، ولهذا يتفق الناس على أن الصدق والشجاعة والعفة والأمانة فضائل ، ويجمعون على أن الكذب والجبن والفجور والخيانة رذائل .

فنحن حينما نصف عملا بأنه خيرٌ أو شر لا ننظر إلى لذة ولا إلى ألم كما يذهب دعاة مذهب السعادة ، بل نحكم بفطرتنا غير ناظرين إلى نتائج العمل .

---

(١) علم الأخلاق ٢/٣٢٨ لأرسطو .

ومن مزايا هذا المذهب أنه يعد الفضائل فضائل فى كل بيئة وفى كل زمان وفى كل حالة ، بغير ما تَطَلُّعٍ إلى ما ينشأُ عنها من لذة أو ألم ومن نفع للشخص أو ضرر .

كما أن من مزاياه أنه يعد الفضائل بديهيات ليست محتاجة إلى تدليل على ما فيها من خير ، فمحال أن تنقلب الفضائل رذائل ، أو أن تصير الرذائل فضائل .

وسواء أكان الضمير قوة من قوى الشعور أو قدرة من قدر العقل فإنه يتطلب من الإنسان أن يصغى إلى صوت ضميره ، وأن يطيع أمره ونهيه .

ولكن هذا المذهب لا يسْلَمُ من عيب ، لأن الناس يختلفون فى حكمهم على الأعمال اختلافاً كبيرا ، وكثيرا ما تتباين أحكامهم حتى على البدهيات ، فالسرقة الخفية كانت فى إسبرطة عملا ممدوحاً يُمَرَّنُ عليه الشباب لتدريبهم على الحيلة فى الحرب ، والاسترقاق كان فى العالم القديم مباحاً ، وشرب الخمر ولعب الميسر وغارة بعض القبائل على بعض كانت من مظاهر السيادة عند العرب فى الجاهلية .

وشتان ما بين أحكام الضمير المتقلبة والأحكام التى ترجع إلى الإدراك كالحكم على الفحم بأنه أسود ، وكوصف القطن بأنه أبيض ، وكحسبان العشرة بأنها ضعف الخمسة .

ومن عيوب هذا المذهب أن الضمير فى حاجة إلى تربية وتكوين ، لأنه كثيرا ما يُغَشِّيه الهوى ، وتسيره المنفعة الخاصة ، وكثيرا ما تسيطر عليه أحكام البيئة والعصر والأحداث ، فإذا ربى تربية دينية كان رقيباً على النفس ، وإن لم يرب هذه التربية كان خافت الصوت ضعيف السلطان .

على أن الضمير مهما يكن صوته قوياً دائم الهتاف بالإنسان أن يصغى إليه ليطيعه فيعمل الخير ، وليتجنب الشر ؛ فإن فى الإنسان قوة أخرى تستطيع أن تقاوم هذا الصوت وتعصيه ، هى العزيمة التى كثيرا ما ترفض نصائح الضمير ، وتَطْغَى على العقل .

فلابد من سلطان أقوى من الضمير ، يخضع له الضمير والعقل والعزيمة جميعاً .

(٦) الوسطية

كان مذهب الوسطية أكثر المذاهب شيوعاً ، وأعظمها تأثيرا على الدارسين والباحثين ؛ منذ وضع أرسطو (٣٨٤ ـ ٣٢٢ ق.م) مقياساً للأخلاق وأساساً للفضائل أنها وسط بين طَرَفَيْنِ ، واعتدال بين رذيلتين .

قال أرسطو : «إن الوسط بالنسبة لشىء ما هو النقطة التى على بعد سواء من كلا الطرفين ؛ والتى هى واحدة بعينها فى كل الأحوال . أما بالإضافة إلى الإنسان فالوسط هو هذا الذى لا يعاب لا بالإفراط ولا بالتفريط .

كل إنسان عالم وعاقل يُجْهِدُ نفسه فى اجتناب الإفراط من كل نوع ؛ سواء أكان بالأكثر أم بالأقل ، ولا يطلب إلا الوسط القيِّم ، ويفضله على الطرفين ، ولكن هذا الوسط ليس وسط الشىء عينه ، بل الوسط بالنسبة إلينا . وإنى أعنى بالكلام هنا الفضيلة الأخلاقية ، لأنها هى التى تختص بانفعالات الانسان وأفعاله ، فالفضيلة هى نوع وسط ما دام الوسط هو الغرض الذى تطلبه بلا انقطاع[١] » .

(١) علم الأخلاق ١/٢٤٥

ومثل أرسطو للحد الوسط بأن الاعتدال أو العفة وسط بين الفجور والخمود ، والسخاء وسط بين الإسراف والبخل ، وكِبَر النفس وسط بين الوقاحة والضعة ، والحلم وسط بين الشَّراسة والفتور ، والصدق وسط بين التَّفْج والتَّعْمية ، والبشاشة وسط بين السخرية والفظاظة ، والصداقة وسط بين الملق والشراسة(1) .

ولقد أُعجب بهذا المذهب كثير من العلماء ، وجاراه كثير من فلاسفة المسلمين ، ولعل مرد هذا إلى أنه يدعو إلى الاعتدال ، والاعتدال خلة يرضاها الإسلام ، ويحمدها الناس ، لأَنه يدل على الاتزان وعلى سلامة التقدير وصواب التدبير والبعد عن الشطط.

وحسبنا أن نذكر أن الغزالي (٤٥٠ـ٥٠٥ هـ) ذهب إلى أن أُمهات الأَخلاق وأُصولها أَربعة : الحكمة والشجاعة والعفة والعدل .

والمراد بالحكمة حالة للنفس بها تدرك الصواب من الخطأ فى جميع الأَفعال الاختيارية .

والعدل حالة للنفس وقوة بها تَسُوسُ الغضب والشهوة وتحملهما على مقتضى الحكمة.

والشجاعة كَوْنُ قوة الغضب منقادةً للعقل فى إقدامها وإحجامها .

والعفة تَأَدُّب قوة الشهوة بتأْديب العقل والشرع.

فمن اعتدال هذه الأُصول الأَربعة تصدر الأَخلاق الجميلة كلها ، إذ من اعتدال قوة العقل يحصل حسن التدبير ، وجودة الذهن ، وثقابة الرأْى ، وإصابة الظن ، والتفطن لدقائق الأَعمال وخفايا آفات النفوس ،

---

(1) علم الأخلاق ١/٢٥٠-٢٥٧ .

ومن إفراطها تصدر الجَرْبزة[1] والمكر والخداع والدهاء ، ومن تفريطها يصدر البَلَه والغَمارة والحمق والجنون .

وأما الشجاعة فيصدر منها الكرم والنجدة والشهامة وكسر النفس والاحتمال والحلم والثبات وكظم الغيظ والوقار والتودد وأمثالها .

وإفراطها وهو التهور يصدر منه الصَّلَف والبَذَخ والتكبر والعُجْب ، وتفريطها تصدر منه المهانة والذلة والجزع والخساسة وصغر النفس والانقباض عن تناول الحق الواجب .

وأما العفة فيصدر منها السخاءُ والحياءُ والصبر والمسامحة والقناعة والورع واللطافة والظرف وقلة الطمع .

وميلها إلى الإفراط أو التفريط يحصل منه الحرص والشره والوقاحة والخبث والتبذير والتقصير والرياءُ والهُتْكة والمجانة والعبث والملق والحسد والشماتة والتذلل للأغنياء واستحقار الفقراء وغيرها .

فأُمهات محاسن الأَخلاق هذه الفضائل الأَربع وهى الحكمة والشجاعة والعفة والعدل ، والباقى فروعها .

ولم يبلغ كمال الاعتدال فيها إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم[2] .

وقال إن الإمساك حيث يجب البذل بخل ، وإن البذل حيث يجب الإمساك تبذير ، وبينهما وسط هو المحمود ، وهو الجود أَو السخاءُ أَو الكرم ، إذ لم يؤمر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا به ، وقد قال الله تعالى : «ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إلىٰ عُنُقِكَ ، ولا تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ[3] »

---

(١) الجزبزة : الخبث والخداع
(٢) الاحياء ٣/٤٦
(٣) سورة الاسراء ٢٩

وقال تعالى : «والذين إذا أَنْفَقُوا لم يُسْرِفُوا ولم يَقْتُرُوا ، وكان بَيْنَ ذلِكَ قَوَامًا [1]»

فالجود وسط بين الإسراف والاقتار ، وبين البسط والقبض .

وقال فى موضع آخر إن الحكمة فضيلة القوة العقلية ، والشجاعة فضيلة القوة الغضبية ، والعفة فضيلة القوة الشهوانية ، والعدالة وقوع هذه القوى على الترتيب الواجب .

وذكر أن الحكمة وسط بين رذيلتين هما الخِبُّ والبَلَه ، وهما طرفا إفراطها وتفريطها .

أما الشجاعة فهى وسط بين التهور والجبن ، والعفة وسط بين الشَّرَه - إفراط الشهوة - والخمود .

ثم قال إن العدل لا تكتنفه رذيلتان ، بل رذيلة الجور هى المقابلة له [3] .

وفى رأيه أن الشجاعة تشمل الكرم والنجدة وكِبَر النفس والاحتمال والحلم والثبات والنبل والشهامة والوقار .

وطبق مذهب الوسطية فقال إن الكرم وسط بين البَذَخ والبذَالة ، والنجدة وسط بين الجسارة والانخذال ، وكبر النفس وسط بين التكبر وصغر النفس ، والاحتمال وسط بين الجَسارة والهَلَع ، والحلم وسط بين الإسْتشاطةِ والانْفِراكِ ، والوقار وسط بين الكبر والتواضع [4] .

---

(١) سورة الفرقان ٦٧ - القوام : العدل ومايعاش به

(٢) الاحياء ٣/٢٢٥

(٣) ميزان العمل ٦٧-٧٤

(٤) المرجع السابق ٧٥

وذهب إلى أن العفة تشمل الحياء والخجل والمسامحة والصبر والسخاء وحسن التقدير والانبساط والدماثة والانتظام وحسن الهيئة والقناعة والورع والطلاقة والمساعدة والظَّرْف.

وكذلك طبق مقياس الوسطية : فقال إن الحياء وسط بين الوقاحة والخنوثة . والمسامحة وسط بين المناقشة والإهمال ، والسخاء وسط بين التبذير والتقتير . والورع وسط بين الرياء والهُتْكة[1] الخ .

كذلك ذكر ابن مسكويه (٤٢١ هـ) أن الفضائل أوساط بين أطراف وتلك الأطراف هي الرذائل ، ثم قال إنه من الصعب وجود الوسط ، والتمسك به بعد وجوده أصعب : ولذلك قالت الحكماء : إصابة نقطة الهدف أعسر من العدول عنها ، ولزوم الصواب بعد ذلك حتى لا يخطئها أعسر وأصعب[2] .

غير أنه مع هذا جعل يطبق نظرية الوسط كما طبقها غيره.

لكن هذه النظرية ليست سليمة من القصور والعيوب .

١ — ولقد يتضح قصورها إذا ما طبقناها على كل فضيلة من الفضائل ، فالشجاعة مثلا ليست وسطاً بين التهور والجبن ، وإن كان التهور رذيلة والجبن رذيلة . بل الشجاعة فضيلة حيثما كانت وكيفما كانت ، ما دامت سنداً للحق ، ودفاعاً عن العرض والمال والحياة . وحماية للضعفاء من جبروت الطغاة وعدوان الأقوياء .

ولن تكون الشجاعة فى حال من أحوالها هذه مذمومة ، ولن تكون

---

(١) ميزان العمل ٧٧ — ٨١

(٢) تهذيب الأخلاق ٢٠

فى مجاوزتها الحد المألوف رذيلة توصف بالتهور ، لأن التهور ليس شجاعة انحرفت عن الوسطية إلى طرف التهور كما يقول مذهب الوسطية ، إنما التهور رذيلة ، لأنه حمق وخرق وخَطَلٌ فى التدبير وعجز عن ضبط النفس ، وغفلة عن الحزم وعن تدبر العواقب .

فليست الشجاعة دائماً ألا يخاف المُقْدِم ، فإنها كما تكون فى الإقدام ، تكون فى الإحجام ، وكما تكون فى الاستهانة بالمخاوف ، تكون فى تَوَقٍّ بعض المخاوف وفى تدبيرها للتغلب عليها لا للاستكانة لها .

وهذه الشجاعة درجات ، أولاها فضيلة ، وعلياها فضيلة بل أفضل الفضيلة ، وهى الفداءُ والبطولة والاستشهاد .

وكذلك الكرم تتفاوت درجاته من جود بالقليل إلى جود بالكثير إلى جود بالأكثر إلى جود بالمال كله ، ولكل حالة من هذه الحالات بواعثها وأهدافها ، فقد يجود الشخص فى سبيل من سبل الخير بالعشرة أو المائة ويسمى كريماً ، لأن طاقته لا تحتمل أكثر من هذا ، أو لأن الصالح العام لا يوجب عليه فوق هذا ، وقد يجود الشخص بالآلاف أو بمئات الآلاف ولا يُسمّى مُسْرِفاً ، لأن ثراءه يتسع لهذا السخاء ، أو لأن مصلحة الأمة توجب هذا السخاء وتقتضيه .

على أن هذا الشخص أو ذاك يوصف بالإسراف إذا ما بذل المال القليل فى هوى من أهواءِ نفسه لا يمت إلى الخير بسبب من الأسباب ، أو أنفق الكثير وقد كان فى القليل كل الغناء ، ولهذا قال تعالى : «وآتِ ذا القُرْبى حَقَّهُ والمِسْكِينَ وابْنَ السَّبيلِ ولا تبَذِّرْ تَبْذيرا . إنَّ المُبَذِّرِينَ كانوا إخْوانَ الشَّياطين وكان الشَّيطانُ لربِّه كَفُورا . وإمّا تُعْرِضَنَّ عنهم

ابْتغاءَ رحمةٍ من ربك تَرْجُوها فقلْ لهم قولا مَيْسُورا . ولا تَجْعَلْ يَدَكَ مغْلولةً إلى عُنُقِكَ ولا تَبْسُطْها كلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ ملُومًا مَحْسُورا[1] » .

وقال تعالى : « كُلُوا من ثَمَره إذا أثْمرَ ، وآتُوا حَقَّهُ يَوْمَ حَصَادِهِ ، ولا تُسْرِفُوا إنه لا يُحبُّ المُسْرِفين[2] » .

وهل يستطيع الناس أن يصفوا بالإسراف غنياً لا وارث له يخرج عن ماله كله للفقراء ، أو يشيد به مدرسة أو مسجدا أو مصنعاً ، أو يشترى به سلاحاً للدفاع عن الوطن ؟

إن هذا الغنى يوصف بأنه بلغ القمة فى الأريحية والسخاء .

وهذا الذى نقوله فى نقد الوسطية فى الفضائل كلها نقول مثله فى نقد الوسطية فى الرذائل كلها ، كالجبن والبخل والفجور وغيرها .

٢ ـ على أن نقطة الوسط بين الرذيلتين لا يمكن تحديدها ؛ فكيف تعرف ؟ ومن الذى يحكم بأن هذه النقطة هى الاعتدال دون غيرها ؟ وهل الوسط بين الرذيلتين محدود أو ممكن التحديد مثل منتصف طريق معروف الطول ؟ وأين ذلك المقياس الذى يعين المنتصف الذى عناه أرسطو وسواه؟

وقدذكر أرسطو نفسه أن إدراك الوسط فى كل شئ أمر صعب جدا ، كما أن استكشاف مركز دائرة لا يتيسر لجميع الناس ؛ ولهذا كان على من يريد إصابة ذلك الوسط القيم أن يبتعد عن الرذيلة التى هى أشد ما

(١) سورة الاسراء ٢٦ ـ ٢٩

(٢) سورة الأنعام ١٤١

تكون تَضَادا مع هذا الوسط ، لأن هذين الطرفين أحدهما أكبر إثماً والآخر أقل[1] .

٣ - فإذا ما راعينا أن الفضيلة ليست دائماً متساوية البعد عن الطرفين تبين لنا أن الوسط بين رذيلتين ليس هو الفضيلة . فالشجاعة أبعد عن الجبن من بعدها عن التهور ، والكرم أقرب إلى جانب الإسراف منه إلى جانب البخل ، والعفة أدنى إلى الخمود منها إلى الفجور . وهكذا .

٤ - ثم إن بعض الفضائل لا يتحقق فيها أنها أوساط بين رذائل ، فالصدق ليس وسطاً بين الكذب وشيء آخر ، إنما الصدق صدق فحسب ، والكذب كذب فحسب ، والعدل ليس وسطاً بين الجور وشيء آخر ، بل العدل عدل خالص والجور جور خالص ، والعفة ليست وسطاً بين الفجور والخمود ، بل العفة هي العفة .

وقد ذكر أرسطو نفسه أن الوسط القويم بين طمع غال في المجد ، وقعود تام عن المجد ليس له اسم خاص[2] ، وذكر أن الصدق ليس وسطاً بين رذيلتين [3] ، وحار في التواضع فلم يعده فضيلة [4] .

٥ - ونستطيع أن نفهم من كلام أرسطو نفسه أن الوسط متنقل غير محدود ، فهو تارة يقول إن المراد الوسط بالنسبة إلينا[5] ، وتارة يقول إن بعض الأطراف تشبه الوسط ، فالتهور به شَبَهٌ بالشجاعة ، والسَّرَفُ به شبه بالسخاء ، ولكن المفارقة الكبرى تتبين بين بعض الأطراف وبعض.[6]

---

(١) علم الأخلاق ٢٦٢/١
(٢) علم الأخلاق ٣٢/٢
(٣) علم الأخلاق ٤٢/٢
(٤) علم الأخلاق ٢٥٠/١
(٥) علم الأخلاق ٢٤٥/١
(٦) علم الأخلاق ٢٥٩/١

٦ ـ أما الاستدلال على أن الكرم وسط بين البخل والإسراف بقوله تعالى : «ولَا تَجْعَلْ يَدكَ مغْلُولَةً إلى عُنُقك ، ولا تَبْسطْهَا كلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا محْسُورًا » فإنه موضع نظر .

وذلك أن الآية الكريمة مسبوقة بقوله تعالى : «وآتِ ذا القُرْبى حَقَّهُ والمسكينَ وابنَ السبيلِ ولا تبذِّر تبذيرا . إن المُبَذِّرين كانوا إخوانَ الشياطين ، وكان الشيطانُ لربِّهِ كَفورا . وإما تُعْرِضَنَّ عنهم ابتغاءَ رحمة من ربك تَرْجُوهَا فقلْ لهم قولًا مَيْسُورا[1] » .

وبهذا أمر الله عباده بصلة أقاربهم وبصلة المساكين وأبناء السبيل بعد أن أمرهم في آية سابقة ببر آبائهم وأمهاتهم ، ونهاهم عن التبذير ، وهو البعثرة فى السرف والإنفاق فى المعاصى وفى غير الحق ، كما روى عن عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وعن مجاهد وقتادة وابن زيد .

أما الإنفاق فى الحقِّ فقد قال فيه مجاهد : لو أنفق إنسان ما له كله فى الحق ما كان تبذيرا ، ولو أنفق مُدًّا فى باطل كان تبذيرا[2] .

ثم نهى الله عن البخل بالمال فى الحقوق التى أوجبها فى أموال الأغنياء ونهى عن العطاء الذى لا يُبقى عند صاحبه شيئاً ، فلا يجد ما يعطيه إذا سئل ، فيلومه سائلوه ويلوم نفسه .

وقد فسر بعضهم البسط بأنه إنفاق فى سخط الله وفى معاصيه وفى ما لا ينبغى أن ينفق المال فيه[3] .

والذى يصح استنباطه من هذا أن القرآن الكريم أمر بفضيلة هى

---

(١) سورة الاسراء ٢٦ـ٢٩
(٢) تفسير الطبرى ١٥/٥٣
(٣) تفسير الطبرى ١٥/٥٦

الجود بالمال على المحتاجين من الأقرباء والمساكين وأبناء السبيل ، ونهى عن رذيلة هى البخل ، وعن رذيلة أخرى هى التبذير أو الإسراف، والمراد بالإسراف ابتذال المال فيما لا يصح أن يبتذل فيه ، من معصية وترف وأبهة ورشوة وما يماثلها .

وليس فى الآيات ما يفهم منه أن الكرم وسط بين رذيلتين ، بل الذى يفهم أن القرآن ينهى عن رذيلتين هما الشح والإسراف ، وبين هاتين الرذيلتين درجات من الكرم تختلف باختلاف مقدرة المنفقين، فقد يكون إنفاق شخص معتدلا وهو أقرب إلى البذل الكثير، وقد يكون إنفاق شخص آخر معتدلا وهو أقرب إلى الحرص والتقتير ، وقد ينفق الشخص ماله كله فى الحق وهو براء من التبذير .

كذلك الآية الكريمة : «والذين إذا أنفقوا لم يُسْرِفُوا ولم يَقْتُرُوا ، وكان بَيْنَ ذلك قواما »[1] لا تعنى الوسطية بين الجود والشح أو بين السخاء والتقتير ، بل تذم الإسراف ، وتذم الشح، وتدعو إلى العدل . وليس الاعتدال حدا وسطاً بين الإسراف والبخل ، بل هو شىء آخر لا صلة له ببخل أو إسراف .

على أن الإسراف المقصود ليس هو السخاء الكثير ، فقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يسخو كثيرا فى سبيل الله ، وكان أبو بكر وعثمان وغيرهما من أثرياء المسلمين قد سخوا بأكثر أموالهم فى سبيل الله ، وكان ذلك محمودا منهم ، وقد أشاد النبى بفعالهم ، بل الإسراف هو الإنفاق فى المعاصى قل أو كثر ، لأن الطاعات لا إسراف فيها ، فقد

---

(١) سورة الفرقان ٦٧ القوام : العدل وما يعاش به

سمع رجل رجلا يقول : لا خير فى الإسراف، فقال له : لا إسراف فى الخير[1]
ومن الإسراف الإنفاق فى اللذات والشهوات ووسائل الترف التى تضعف العزائم ، وتفسد الأخلاق ، ولهذا قال عمر بن الخطاب : كفى سَرَفًا ألا يشتهى الرجل شيئاً إلا اشتراه فأكله .

وإلى هذا ذهب كثير من أهل التأويل ، فقالوا إن الإسراف هو الإنفاق فى المعصية ، والتقتير هو المنع من حق الله ، والقوام هو الاعتدال الذى لا يتجاوز حدود الله ، ولا يقصر عما فرضه ، وهو الإنفاق بالعدل والمعروف ، ولهذا قال مجاهد : لو أنفقت مثل أبى قُبَيْس ذهباً فى طاعة الله ما كان سَرَفاً ، ولو أنفقت صاعاً فى معصية الله كان سرفاً[2] .

(٧) القوة

بنى بعض فلاسفة الغرب المحدثين كيان الأخلاق على دعائم القوة ، مثل هوبز ونيتشه ، ورأوا أن للأقوياء الأعلياء أخلاقاً لا يليق لها العبيد ، وأن للضعفاء المسترقين أخلاقاً لا تليق بالأقوياء ، وهم بهذا التقسيم ردوا الفضائل كلها إلى القوة ، فالشجاعة والبطولة والعظمة والتفوق وأشباهها مظاهر للقوة ، والأخلاق التى لا تبدو فى مظاهر القوة راجعة إليها ، فالصبر محمود ، لأن القوىّ هو الذى يحتمل الشدة ، ويطيق المكروه ، ويثبت أمام البلاء ، ولا يتخاذل ولا يجزع ، لأن الجزع والتخاذل من أخلاق الضعفاء .

والرحمة حميدة ، لأنها مظهر من مظاهر قوة الشخص الذى يرحم .

---

(١) الكشاف ٢/١١٥
(٢) تفسير الطبرى ١٩/٢٣

من هو أضعف منه ، وبينةٌ على استعلائه على أن يلقى الضعيف بما يلاقى به الأنداد من الأقوياء .

والكرم ممدوح ، لأنه يمثل المقدرة على مقاومة البخل ، وهو فى الوقت نفسه تفضل على المحتاج الذى لم تبلغ به قوته درجة الكريم المانح .

وإن هذا المذهب لمعيب ، لأنه يقسم البشر طبقتين ، ويفصل بينهما فصلا لا تقره الإنسانية ، ويقيم بين الأقوياء والضعفاء سورا لا ينفذ منه تراحم ولا تواد ولا تعاطف ، ويجعل الناس بعضهم أعداء لبعض ، يبطش قويهم بضعيفهم ، ويخنع ضعيفهم لقويهم . وإن أدى البطش والخنوع إلى هلاك الضعفاء وانقراضهم .

وليس من شك فى أن بلايا استعمار الأقوياء للضعفاء ، واستئثارهم بخيرات بلادهم ، واستهانتهم بحياة الملايين منهم ، راجعة إلى هذا المذهب البغيض .

الفصل الأول

الأخلاق الإسلامية

ينبوعها

أما وقد تبين أن تلك المنابع لم تَخْلُ من ضيق وكُدْرة وانقطاع فى الطريق وغَيْض ، فإن علينا أن نمد النظر إلى ينبوع آخر ، ينبوع ثَرّ لا يَنْضَب ، متدفق لا يَغِيض ، نقى لا يَترنق ، مسترسل لا يتوقف ، مبرأ من العيوب والنقائص على تعاقب الأزمان والأجيال ،

فما هذا الينبوع ؟

إنه الإسلام الذى لا يهدى إلى الأخلاق الفضلى والمثل العليا سواه .

محورها

ما الفضيلة العظمى التى تدور الفضائل كلها فى فلكها الرحيب ؟

ما المحور المركوز الثابت الذى تستدير الفضائل حوله منجذبة إليه ، كما تدور الأرض حول أمها الشمس ؟

إنه التقوى .

فماذا تعنى التقوى ؟

١ – للتقوى دلالة دينية تشمل طاعة الله تعالى والرغبة فى ثوابه ، وتشمل خشيته سبحانه والخوف من عقابه ، وهى بهذه الدلالة الشاملة المحور الذى تدور حوله الأخلاق الإسلامية .

هى الأساس الوطيد الذى لا يتبدل ولا يَمِيدُ ولا يخضع للأهواء والمقاييس الفردية أو المقاييس العامة التى تتحول وتتغير .

هى المركز الذى تلتف الفضائل من حوله ، ويرنو إليه كل فرد برغبة وبرهبة ، ويدور فى محيطه سواء أحقق له نفعاً عاجلا أم لم يحقق ، بل إنه يدور من حوله منجذباً إليه وإن كان فى دورانه ضرر محقق يمسه فى نفسه أو فى ماله أو فى رغبة من رغباته .

وما من شك فى أن الذى يتقّ ربه يحبه ، ويطيعه ، ويعمل ما يستحق عليه ثوابه ، ويكف عما ينزل به عقابه ، فيحيا فى طهارة نفس ، وصلاح عمل ، وبراءة تدبير ، وثراء من الخير والحق ، وينفر من كل شر ، ويتحامى كل رذيلة ونقيصة .

ولن يكون التقى – وهو يعلم أن الإسلام ينبوع الأخلاق وأن التقوى محورها – إلا كريماً شجاعاً عادلا أميناً عفيفاً صادقاً وفيًّا رحيما غيورا متحلياً بكل فضيلة ، مبرأ من الجبن والبخل والفجور والغدر والكذب ومن كل رذيلة .

٢ – وقد ترددت مادة التقوى فى القرآن الكريم بهذا المعنى تسعاً وثلاثين ومائتى مرة ، منها أمر صريح بالتقوى ثلاثاً وثمانين ، ومنها كلمة تقوى تسع عشرة ، وكلمة تقى ثلاث مرات ، وكلمة الأتقى مرتين .

قال تعالى : «فَلا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ ، هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقى[1]» .

والمعنى لا تنسبوها إلى طهارة العمل ، وزيادة الخير ، وكثرة الطاعات ، والبعد عن المعاصى ، فإن الله يعلم الزكيَّ منكم والتقى .

وقال سبحانه : «وَلَيْسَ البِرُّ بِأَن تَأْتُوا البُيُوتَ من ظُهورِها ولكنَّ البرَّ مَن اتَّقى[2]» .

فقد كان ناس من الأنصار إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم حائطاً ولا دارًا ولا فُسْطاطاً من باب ، فإذا كان من أهل المدر نقب نقباً فى ظهر بيته ، منه يدخل ويخرج ، أو اتخذ سلماً يصعد فيه ، وإن كان من أهل الوبر خرج من خلف الخِباء ، فبيَّنَ لهم سبحانه أن البر ليس بتحرجهم من دخول الباب ، ولكن البر هو اتقاؤُهم ما حَرَّمَ الله[3] ، واجتنابهم ما نهى عنه .

وقال تعالى : «يأَيها الذين آمَنوا كُونوا قَوَّامِينَ للهِ شُهَدَاءَ بالقِسْطِ ، ولا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنآنُ قومٍ على أَلا تَعْدِلوا ، اعْدِلُوا هو أَقْرَبُ للتَّقْوَى[4]» أى لا يحملنكم بغضكم للمشركين على أن تتركوا العدل ، فتعتدوا عليهم بأن تنتصروا منهم ، وتتشفوا بما فى قلوبكم من الضغائن بارتكاب ما لا يحل لكم من مُثْلة أو قذف أو قتل أولاد أو نساءٍ أو نقض عهد ، وأمرهم سبحانه بالعدل لأنه أقرب إلى التقوى .

والآياتُ فى هذا المعنى كثيرة ، منها قوله تعالى :

---

(١) سورة النجم ٣٢
(٢) سورة البقرة ١٨٩
(٣) الكشاف ٩١/١
(٤) سورة المائدة ٨

«لِلذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار[1]» .

وقوله تعالى :

«ولو أنّ أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض[2]» .

وقوله سبحانه :

«وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا[3]» .

وقوله سبحانه :

«أوعجبتم أن جاءكم ذكر من ربكم على رجل منكم لينذركم ولتتقوا[4]»

وقوله سبحانه :

«ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب[5]» .

وقوله سبحانه :

«واتقوا الله واعلموا أن الله مع المتقين[6]» .

وقوله سبحانه :

«يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا[7]» .

وقوله سبحانه :

«إن أكرمكم عند الله أتقاكم[8]» .

---

(١) سورة آل عمران ١٥
(٢) سورة الأعراف ٩٦
(٣) سورة الزمر ٧٢ ـ زمرا : جماعات
(٤) سورة الأعراف ٦٣
(٥) سورة الطلاق ٢ ـ لايحتسب : لايظن ولا يخطر بباله
(٦) سورة البقرة ١٩٤
(٧) سورة البقرة ٢٧٨ ـ ذروا : اتركوا
(٨) سورة الحجرات ١٣

وقوله سبحانه :

«تِلْكَ الجَنَّةُ التى نُورِثُ مِنْ عِبادنا مَنْ كانَ تَقيًّا[1]» .

وقوله سبحانه :

«وَتَعَاوَنُوا على البِرِّ والتَّقْوَى ولَا تَعاوَنُوا على الإِثْمِ والعُدْوَانِ[2]» .

٣ – ونستطيع أن نستنبط للتقوى – مع هذه الدلالة العامة التى تجمع كل فضيلة ، وتنفى كل رذيلة – معانى جزئية تتصل بها فضائل معينة .

(ا) فالكرم متصل بها فى قوله تعالى : «فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى واتَّقَى وصَدَّقَ بالحُسْنَى فَسَنُيَسِّرُهُ لليُسْرَى[3]» .

وفى قوله تعالى : «وَسَيُجَنَّبُها الأَتْقَى الذى يُؤْتِى مَالَهُ يَتَزَكَّى ، وما لأَحدٍ عِنْدَهُ مِنْ نِعْمَةٍ تُجْزَى إلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى[4]»

(ب) والشجاعة متصلة بها فى قوله تعالى : «يأَيها الذينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الذينَ يلُونَكُمْ مِنَ الكُفَّارِ ، ولْيَجدُوا فيكُمْ غِلْظَةً ، واعْلَمُوا أَنَّ اللهَ مَعَ المتَّقِينَ[5]» .

وفى قوله تعالى : «فَلْيُقَاتِلْ فى سبِيلِ اللهِ الذينَ يَشْرُونَ الحَيَاةَ الدنْيَا بالآخِرَةِ ، وَمَنْ يُقَاتِلْ فى سبيلِ اللهِ فيُقْتَلْ أَو يَغْلِبْ فَسَوفَ نُؤْتِيهِ أَجرًا عظيماً » إلى قوله تعالى : «أَلَم تَرَ إلى الذِينَ قِيلَ لهم كُفُّوا أَيدِيَكُمْ ، وأَقِيمُوا الصلاة ، وءاتُوا الزكاةَ ، فلمّا

(١) سورة مريم ٦٣

(٢) سورة المائدة ٢

(٣) سورة الليل ٥–٧

(٤) سورة الليل ١٧–٢٠ – يتزكى : يتطهر باخراج ماله خالصا لوجه الله

(٥) سورة التوبة ١٢٣

كُتِبَ عليهم القِتالُ إذا فريقٌ منهم يَخْشَوْنَ الناسَ كخشيةِ اللهِ أو أشَدَّ خَشْيةً . وقالوا ربَّنَا لِمَ كَتَبْتَ علينا القِتَالَ : لولا أخَّرْتَنَا إلى أجلٍ قريبٍ . قلْ متاعُ الدنيا قليلٌ ، والآخرةُ خيرٌ لمن اتَّقى ، ولا تُظلَمُونَ فَتِيلا ، أينما تكونوا يُدْرِككمُ الموتُ ولو كنتم فى بُروجٍ مُشَيَّدةٍ[1] »

فقد كان المسلمون وهم فى مكة منهيين عن مقاتلة الكفار ، وكانوا يتمنون أن يأذن الله لهم فيه . فلما فرض عليهم القتال بالمدينة تردد فريقٌ منهم ، لا عن شك فى الدين ولكن عن خوف من الحرب والموت ، وودوا أن يمهلهم الله إلى وقت قريب ، فردَّ عليهم سبحانه بأن متاع الدنيا قليل ، وبأن الآخرة خير للأتقياء الشجعان ، وبأن الموت لابد أن يدرك كل حَيٍّ وإن تحصن فى بروج متينة عالية .

وقوله سبحانه :

«ياأيها الذينَ آمَنُوا اصبِرُوا وصَابرُوا ورابِطُوا واتَّقُوا اللهَ لعلكم تُفْلِحُونَ[2] » .

فقد أمرهم الله بالصبر على الدين وتكاليفه أو بالصبر على الشدائد ، وبمغالبة أعداء الله فى الصبر على أهوال الحرب ، وبالإقامة فى الثغور مرابطين فيها بخيلهم ، مترصدين للغزو .

(حـ) والعدل مرتبط بها فى قوله تعالى : «فَمَنْ اعْتَدَى عليكم

(١) سورة النساء ٧٤-٧٨ .   الفتيل : قشرة النواة

(٢) آل عمران ٢٠٠ - اصبروا : اصبروا على الطاعات والمصائب وعن المعاصى . صابروا : غالبوا الكفار فى الصبر فلا يكونوا أشد منكم صبرا . رابطوا : اقيموا على الجهاد

فاعْتَدُوا عليه بِمِثْلِ ما اعْتَدَى عليكم ، واتَّقُوا اللهَ ، واعلموا أَنَّ اللهَ مَعَ المتقِين[1] » .

وفى قوله سبحانه : «يأَيها الذين آمنوا كُونوا قَوَّامِينَ للهِ شهَداءَ بالقِسْطِ ولا يَجرِمنَّكُم شَنَآنُ قومٍ على أَلا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ للتَّقْوَى، واتَّقُوا الله إن الله خبيرٌ بما تعملون[2] .

(د) والعفة ذات علاقة بها فى قوله تعالى : «يا نِساءَ النَّبِيِّ لَستُنَّ كَأَحَدٍ من النساءِ ، إن اتَّقيتُنَّ فلا تَخْضَعْنَ بالْقَوْلِ ، فَيَطمَعَ الذى فى قلبِه مَرَضٌ ، وقُلْنَ قولًا معروفاً[3] » .

فقد نهى الله نساءَ النبيّ إذا ما أَردن التقوى عن الإِجابة بكلام لَيِّنٍ مُريب حتى لا يطمع فيهن صاحبُ الفجور ، وأَمرهن أَن يقلن قولا حسناً فيه الجِدُّ والخشونة وقطع الطمع فيهن .

(هـ) وللصدق صلة بها فى قوله تعالى : « يأَيُّها الذين آمنُوا اتَّقُوا اللهَ ، وكونوا مع الصادِقين[4] ».

(و) والوفاءُ بالعهد شُعبةٌ منها فى قوله تعالى : «فأَنْزَلَ اللهُ سكينَتَهُ على رسولِهِ وعلى المؤْمنين ، وأَلْزَمَهُم كَلِمَةَ التَّقْوى ، وكانوا أَحَقَّ بها وأَهْلَها ، وكان اللهُ بكل شيءٍ عليما[5] » .

عن الحسن أَن كلمة التقوى هى الوفاءُ بالعهد ، وقد أُضيفت الكلمة إلى التقوى لأَنها سبب التقوى وأَساسها[6] .

(١) سورة البقرة ١٩٤
(٢) سورة المائدة ٨ ، لا يجرمنكم شنآن قوم : لا يحملنكم بغضا لهم
(٣) سورة الأحزاب ٣٢ —
(٤) سورة التوبة ١١٩
(٥) سورة الفتح ٢٦
(٦) الكشاف ٢/٣٨٧

وفى قوله سبحانه : «الذين عاهَدْتَ منهم ، ثم يَنْقُضُونَ عَهْدَهُمْ فى كلِّ مرَّةٍ ، وهم لَا يتَّقُونَ[1] » .

(ز) والرحمة غصن من دوحتها ، فى قوله تعالى : «وليَخْشَ الذين لو تركوا من خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً خافوا عليهم ، فلْيَتَّقُوا الله ، وليقولوا قولا سَديدا[2] » .

فقد أمر الله الأَوصياء بأَن يخشوا الله فيخافوا على من فى حجورهم من اليتامى ، ويشفقوا عليهم ، كما يخافون على أبنائهم ويشفقون عليهم لو أنهم تركوهم ضعافاً .

(ح) والعفو جزءٌ منها فى قوله تعالى : «وجزاءُ سيئةٍ سيئةٌ مِثْلُهَا فمَنْ عفا وأَصْلَحَ فأَجْرُهُ على اللهِ[3] » .

(ط) والصبر جانب، من جوانبها فى قوله تعالى : «وإِنْ عاقبْتُمْ فعاقبوا بمِثْلِ ما عُوقبتم به ، ولئِنْ صَبَرْتُمْ لَهُوَ خيرٌ للصابِرينَ . واصْبِرْ وما صَبْرُكَ إلا بالله ، ولا تَحْزَنْ عليهم ، ولا تَكُ فى ضَيْقٍ مما يَمْكُرونَ . إنَّ اللهَ مع الَّذِينَ اتَّقَوْا والذين هُم محسنون[4] » .

روى أن المشركين مَثَّلوا بالمسلمين يوم أُحد ، فوقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على عمه حمزة وقد بَقَرُوا بطنه ، ومثلوا به ، فقال : أما والذى أُحلف به لئن أظفرنى الله بهم لأُمثلنَّ بسبعين مكانك ، فنزلت الآيات ، فكفر عن يمينه ، وكفَّ عما أراده .

---

(1) سورة الانفال ٥٦
(2) سورة النساء ٩
(3) سورة الشورى ٤٠
(4) سورة النحل ١٢٥–١٢٨

وقد أمر الله نبيه بالصبر ، وأكد أنه سبحانه ولىٌّ المتقين الذين يحسنون ما يعملون .

والمتقون هنا همَ الذين يخشون ربهم ، وهم الذين يصبرون .

وفى قوله تعالى : «بَلَى إنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا ويأْتوكم من فَوْرِهِمْ هذا يُمدِدْكُمْ ربكم بخمسة ءالٰف من المَلائكةِ مُسَوِّمين[1]» .

وفى قوله تعالى : «لَتُبْلَوُنَّ فى أموالكم وأنفسِكم ، ولتَسْمَعُنَّ من الذين أُوتُوا الكتابَ من قبلِكم ومن الذينَ أشْرَكُوا أذًى كثيرا وإن تَصْبِرُوا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأُمور[2]» .

(ى) والأَمانة فرع من التقوى فى قوله تعالى : «فليُؤَدِّ الذى اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ ، ولْيَتَّقِ اللهَ رَبَّه[3]» .

وفى قوله سبحانه : «يأَيُّها الذينَ ءامنوا إذا تَدَايَنْتُمْ بدَيْنٍ إلى أجَلٍ مُسَمًّى فاكْتُبُوه ، ولْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كاتبٌ بِالْعَدْلِ ، ولا يَأْبَ كاتِبٌ أنْ يكْتُبَ كما عَلَّمَهُ اللهُ ، فلْيَكْتُبْ ، ولْيُمْلِلِ الذِى عليه الحقُّ ، ولْيَتَّقِ اللهَ رَبَّهُ ، ولا يَبْخَسْ منه شيئاً[4]» .

وفى قوله تعالى : «ومِنْ أهلِ الكتابِ مَنْ إنْ تأْمَنْهُ بقنطارٍ يُؤَدِّهِ إليك ، ومنهم مَنْ إن تأْمَنْهُ بدينارٍ لا يُؤَدِّهِ إليك إلا ما دُمْتَ عليه قائماً ، ذلك بأنهم قالوا ليس علينا فى الأُمِّيِّينَ سبيلٌ

---

(١) سورة آل عمران ١٢٥ ــ فورهم : وقتهم . مسومين : معلمين

(٢) سورة آل عمران ١٨٦ ــ عزم الامور الأمور القائمة على عزيمة قوية

(٣) سورة البقرة ٢٨٣

(٤) سورة البقرة ٢٨٢ ــ ليملل : ليمل

ويقولونَ على اللهِ الكذِبَ وهم يَعْلَمُونَ . بَلى مَنْ أَوْفَى بعَهْدِهِ واتَّقى فإن اللهَ يُحِبُّ المتقينَ[1] » .

وسبب نزول الآية أن رجلا من قريش استودع عبد الله بن سلام ألفاً ومائتى أوقية من الذهب؛ فأداها إليه ، واستودع قرشى آخر فِنْحَاص بن عازوراء دينارا فجحده وخانه . ومثل هذا اليهودى لا يرد الأمانة إلى صاحبها إلا بالمطالبة والتعنيف أو بالقضاء والبينة ، لأنهم يزعمون أن أكل أموال غير اليهود مباح لا عتاب فيه ولا ذم .

وقد نفى الله سبحانه وتعالى دعواهم . ووصفهم بالافتراء على الشريعة التى جاء بها موسى ، وزاد الفرية شناعة بأنهم يعلمون أنهم كاذبون .

ثم بَيَّنَ سبحانه أن الأمانة والوفاء بالعهد من التقوى ، وأن الله يحب المتقين .

(ك) وقوة العزيمة ومضاء الإرادة ، مظهر من مظاهر التقوى فى قوله تعالى : « خُذِ العَفْوَ ، وأْمُرْ بالعُرْفِ ، وأَعْرِضْ عن الجاهِلينَ . وإمَّا يَنْزَغَنَّكَ من الشيطانِ نَزْغٌ فاستعِذْ بالله ، إنهُ سميعٌ عليم إن الذينَ اتَّقَوْا إذَا مَسَّهُمْ طائفٌ من الشيطانِ تَذَكَّرُوا فإذا هم مُبْصِرُونَ[2] » .

---

(١) سورة آل عمران ٧٥-٧٦ الاميين : غير اليهود

(٢) سورة الاعراف ١٩٦-٢٠١

أى خذ ما عفا لك من أخلاق الناس وأفعالهم ، وما أتى منهم ، وتسهل من غير كلفة ، ولا تطلب منهم الجهد وما يشق عليهم .

وأمر بالمعروف والجميل من الأفعال ، ولا تكافىء السفهاء بمثل سفههم ، ولا تمارهم ، بل احلم عليهم ، وأعرض عنهم .

وعن جعفر الصادق : أمر الله نبيه عليه الصلاة والسلام بمكارم الأخلاق ، وليس فى القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية .

فإن حملك الشيطان بوسوسته على خلاف هذا فلا تطعه ، واستعذ بالله من وسواسه .

إن المتقين إذا أصابهم أدنى نزغ من الشيطان تذكروا ما أمر الله به ونهى عنه فأبصروا السداد وتغلبوا على الوسواس .

خصائصها

تتميز الأخلاق الإسلامية على الأخلاق الوضعية بعدة خصائص :

١ - الخيرية المطلقة .

لم يستطع مذهب من المذاهب الأخلاقية أن يكفل الخير الكامل الشامل المبرأ من الأثرة ، أو من إيثار فريق من الناس على فريق ، أو من الاستجابة لنوازع الأهواء ومقتضيات البيئة والملابسات .

لكن الإسلام هو الذى كفل هذا الخير ، لأنه استن الأخلاق المثلى التى تحقق الخير المحض للفرد وللناس جميعاً فى كل البيئات وفى جميع الحالات وفى كل الأوقات ، فأمر بالفضيلة ورغب فيها لأنها خير يجب

أن يفعل . ونهى عن الرذيلة . وبغضها إلى الناس . لأنها شر يجب أن يُتْرَكَ ، وتسامى الإسلام بفاعلى الخير وتاركى الشر عن أن يتوقعوا جزاءً من الناس ، لأن الجزاء الأوفى من الله وحده ، وسما بهم عن اتخاذ الخير سلماً إلى شهرة أو مجد أو مباهاة أو تسلط أو شعور باللذة والاستمتاع ، أو اجتلاب منفعة مادية عاجلة أو بعيدة المنال . لأن الخير يجب أن يراد به وجه الله.

فقد كان الكرم مثلا خلقاً فاضلا فى الحياة الجاهلية ، طالما باهى به المفتخرون ، وأشاد به المادحون ، وكان البخل رذيلة ، طالما هجا بها الشعراءُ وبرىء منها الأسخياءُ ، ولكن كرم العرب فى الجاهلية كان من إملاء البيئة ، وكان وسيلة من وسائل الفخار والكلف بحسن الأحدوثة .

ذلك بأن العرب كانوا يحيون فى بادية شحيحة بالزاد ، وحياتهم ترحال وتجوال ، فكل واحد منهم معرض لأن ينفد زاده ، فهو يَقْرِى ضيفه اليوم ، لأنه قد يضطر إلى أن يضاف فى يوم .

ثم إنهم يكرمون لولعهم بحسن السمعة وطيب الثناء ، ولأنهم ذوو أريحية وحساسية ، تسعد نفوسهم بمساعدة المحتاج وإطعام الجائع وإغاثة الملهوف .

وكان المال فى نظر الكرماء وسيلة إلى الحياة الشريفة وكسب المحامد ونيل السيادة (١) .

أما الكرم فى الإسلام فإنه مظهر لسخاء النفس ، وكرم اليد ، ورحمة القلب ، وابتغاء ثواب الله ، ومبعثه أن المال مال الله ، وأن صاحب المال خليفة عليه موقوت ، لا بد أن يتركه لسواه ، وأن هذا المال ليس حقاً لمالكه

---

(١) الحياة العربية من الشعر الجاهلى ٣٠٨-٣٢٨ أحمد الحوفى .

وحده ، بل له شركاءُ فيه من الفقراء والمساكين والمحاويج ؛ ومن مرافق الدولة وصالحها العام ، وغاية هذا الكرم ليست أُبهة أو مباهاة أو سيادة أو عظمة مشوباً برياء ، بل القُرْبى إلى الله ؛ والشوق إلى ثواب الله ؛ ولهذا حض الإسلام على البذل ، وآثر أن يكون بعض البذل فى خفاء.

وكانت الشجاعة فى الجاهلية وسيلة لعدوان الأقوياء على الضعفاء ؛ وطالما تخايل العرب بقوتهم وبغلبتهم على غيرهم . وبعدوان القادرين على من هم أقل منهم مقدرة ، فلما جاء الإسلام وجه الشجاعة إلى نصرة الحق ، وحماية الدين ، ونجدة المظلومين المضطهدين ، فارتفع بدلالتها عن العدوان إلى الجهاد .

٢ ــ الصلاحية العامة :

تمتاز الأخلاق الإسلامية بأنها تكفل الخير لجميع الناس فى كل زمان ومكان ، وبأنها سمحة سهلة ميسورة ، ليس فيها إرهاق ولا إعنات ولا تكليف بما لا يطاق ، بل إن الإسلام سَنَّ أخلاقاً فاضلة تستريح إليها النفوس النقيه وتهش لها الضمائر الحية ، وتؤيدها العقول السليمة ؛ وقد صدق المولى سبحانه فى قوله : «يُريدُ اللهُ بكم اليُسْرَ ، ولا يُريدُ بكم العُسْر[1]» وفى قوله : «لا يُكلِّفُ اللهُ نفسًا إلَّا وُسْعَهَا[2]» وفى قوله : « وأَوْفُوا الكَيْلَ والميزانَ بالقِسْطِ لا نُكَلِّفُ نفساً إلا وُسْعَهَا[3] » ، وفى قوله «إنَّ اللهَ بالناسِ لرءُوفٌ رحيم[4]» .

---

(١) سورة البقرة ١٨٥
(٢) سورة البقرة ٢٨٦
(٣) سورة الانعام ١٥٢
(٤) سورة الحج ٦٥

هذه السهولة وهذه الصلاحية محققتان فى الأخلاق الإسلامية : على حين أن مذهب العرف ضيق المجال متغير الأحكام فى البيئات والأعصار . وكثيرا ما يجانب العرف الحق والخير والسداد ؛ وعلى حين أن مذهب السعادة الشخصية أنانية بغيضة . وقاصر عن الاتساع لكثير من الأعمال الخَيِّرةِ والبطولة والفِداء .

ثم إن مذهب السعادة العامة عسير التحقيق . ومقياسه مضطرب لا حدود له ولا استقرار .

أما المذهب الذى يختص بأخلاق القوة طائفة من الناس هم السادة الأقوياء ، ويستبقى أخلاق اللين لطائفة أُخرى هم العبيد والأرقاء والضعفاء ، فإن الإسلام ينكره أشد الإنكار ؛ لأن الإسلام دين المساواة بين الناس فى الحقوق والواجبات ، وفى الثواب والعقاب . وفى الحسنات والسيئات ، فهو لا يقر التفرقة ولا يرتضيها .

ثم إن الإسلام يحض على الأخلاق التى تمثل القوة كالشجاعة والكرم والعفو والحلم ويحض على الأخلاق التى تمثل الدعة والسماحة واللين كالرحمة والصبر والإيثار وطيب العشرة .

والإسلام إذْ يحض على أخلاق القوة يبتغى أن تكون حِمىً للعقيدة ، وحصنا للحق ، وظهيرا للخير ، ووسيلة إلى نصرة المظلوم ، ونجدة المهضوم وإنصاف الضعفاء ، ونفع الناس ، ولا يرتضى أن تُتَّخَذَ وسائل للعدوان ؛ أو مظاهر للاستعلاء ؛ أو دعائم للإفساد فى الأرض وإذلال الضعفاء .

قال تعالى : «إن اللهَ لا يُحِبُّ كُلَّ مُختالٍ فَخُور [1]»

---

(١) سورة لقمان ١٨

وقال سبحانه : «أليس فى جَهَنَّمَ مَثْوًى للمتكبرين[1]» .

وقال تعالى : «وما لكم لا تُقاتِلُونَ فى سبِيلِ اللهِ والمُسْتَضْعَفِينَ من الرجال والنساءِ والوِلْدان[2]» .

وقد اتضح من دراسة المذاهب الخلقية أن الخير الذى تقصده أو الفضيلة التى تدعو إليها إما شخصية فردية ، وهذه أثرة يرفضها الإسلام ، وإما عامة ولكنها قاصرة عن الصلاحية الشاملة أو الدائمة ، وكثيرا ما تحيد عن الصلاح بتضليل من الأقوياء المنتهزين ، أو بتأثير من الإنحراف العام .

أما الفضائل الإسلامية فإنها الصالحة للأفراد والجماعات فى اليسر والعسر ، وفى الشدة والرخاء ، وليس فيها تفريق بين زمان وزمان ، ولا بين فريق وفريق ، ولا بين حال وحال .

٣ ـ الثبات :

الأخلاق الإسلامية نابعة من الدين ، وكفيلة بالخير المطلق ، وصالحة للناس جميعاً ، فهى إذًا تتَّسِمُ بالثبات والدوام والاستقرار ، لأن المشرعَ الحكيم راعى فيها كفالة الخير الدائم العام .

وإن النظرة إلى المذاهب الوضعية لتكشف عن تقلبها واضطرابها وقصور صلاحيتها ، ولهذا تعددت فى العصر الواحد وفى مختلف الأعصار .

فالمنفعة المادية مثلا مذهب لا ثبات له ، لأنه يتنكر البواعث

---

(١) سورة الزمر ٦٠.
(٢) سورة النساء ٧٥

الروحية وللمثل السامية ، ويطبع الناس بطابع الأَثرة ويلزمهم بشريعة الغاب .

والضمير الذى احتكمَ إليه بعض الفلاسفة متقلب ، فكثيرا ما تُغَشِّيه الأَهواءُ ، وتنحرف به النزعات ، وتقهره العزيمة .

والوسطية لا حدود لها يهتدى إليها الناس ليعرفوا أَين تنتهى الرذيلة وأَين تبدأُ الفضيلة .

والسعادة الشخصية تترجح بها الأَهواءُ ، والسعادة العامة تتلاعب بها الآراءُ .

وليس غريباً أَن تتصف الأَخلاق الوضعية بالتغير والاضطراب ، لأَنها تمثل نفسية واضعها ، وهو إنسان لا يستطيع مهما يبلغ من الذكاء وبعد النظر وعمق الفكر وحب الخير أَن يضع للبشر دستورا أَخلاقياً ثابتاً لا تبدله الأَحوال .

ومن الخطل أَن يجترىء الناس على صنع أَخلاق لهم كما يصنعون الطعام واللباس والمتاع ، أَو كما يبتكرون نظريات فى علوم الرياضة والفلك والاجتماع .

وإذا كان العلماءُ قد تباينت آراؤُهم وما تزالُ تتضارب فى أَنواع الدراسات فَأَنَّى لهم أَن يبتدعوا ينابيع للأَخلاق الفاضلة وهى موصولة بالنفوس أَوثق اتصال ، وهذه النفوس بَحْرٌ ما يزال الدارسون علىٰ حافته بعيدين عن الأَثباج ، ولقد يظن بعضهم أَنهم اجتازوا الساحل إلى اللجة ولكنهم لا يلبثون أَن يكذبوا هذا الظن ، لأَنهم ما زالوا على الشاطىءِ فوق الحصى والرمال .

٤ ـ الالزام المستجاب :

ما الذى يبتغيه واضع القانون حينما يضعه للناس؟

وما الذى يريده العالم حين يضع مذهباً فى الأخلاق ؟

إنهما يريدان من الناس أن يخضعوا لما وضع لهم فى السر والعلن ، وفى الوحدة والاجتماع ، وفى النعماء والبأساء .

ولكن ما الذى يحدث فى كثير من الأحيان؟

ألا يتحايل الناس على القانون ، ويتسللون من قيوده إذا ما واتتهم فرصة للتحايل والفرار ؟

ألا يعصون نداء المذهب الأخلاقى إذا ما أمنوا ألا يعابوا بهذا العصيان ؟

ألا تعرض لبعض الناس ألوان من الإغراء تتوارى أمامها رهبة القانون ، وتضعف مُثُلُ الفلاسفة ؟

ذلك بأن الوازع هنا خارجى لا سلطان له على دخائل النفوس وأعماق الوجدان ، فإذا ما غفلت عينه عن الرقابة تمردت الأهواءُ والنزعات .

أما الأخلاق الدينية فإنها تستمد من ينبوعها قوة نافذة تلزم بها فى العلن والخفاء ، وفى السراء وفى الضراء ، لأن الرقيب عليها هو الله الذى لا تأخذه سِنَةٌ ولا نوم ، ولا يعْزُبُ عنه مثقال ذَرَّةٍ فى الأرضِ ولا فى السماء .

وإن هذا الإلزام لمحبوب مطاع ، لأنه أمر أو نهى من الله ، قد ربى المجتمع عليه ، وأخذ نفسه به ، وخضع له ، وأيقن أن خضوعه يحقق الخير للأفراد أو الجماعات ، ويقرب من ثواب الله .

ومعنى هذا أن الأخلاق الدينية تستند إلى سلطان روحى يمدها بأعظم

الدوافع على الاستمساك بها والاعتصام ، ويحفز الناس إلى عمل الخير حفزا منوطاً بالثواب ، ويردعهم عن فعل الشر ردعاً مرهوب العقاب .

ولقد ذكر أرسطو أنه من الضرورى لتكوين الرجل الفاضل أن يكون قد أحسنت تربيته فى البداية . وأن يكون قد اعتاد عادات حساناً ، ولا يمكن أن يتحقق هذا إلا إذا أكره الناس على الفضائل إما بإرشاد العقل ، وإما بأمر منظم ذى قوة كفيلة بأن تطاع [1] .

وإذا كان أرسطو قد حصر هذه القوة فى القانون ، فإننا نحصرها فى الدين . لأنه أعظم من القانون سلطاناً . وأشد منه رقابة . والناس له أكثر استجابة .

٥ ـ الرقابة المحيطة :

على أن الأخلاق الدينية أمنع حصانة من الأخلاق الوضعية ، لأن الهيمنة عليها أشد وأقوى ، فلا يجترىء إنسان على مخالفتها إلا بعد تردد وإحجام ، ثم يندم على ما اجترح ويأسى ، وقد يجره الندم إلى توبة نَصُوحٍ لا رجعة بعدها إلى الآثام .

وذلك أن عليها رقيباً عتيدا من الدين نفسه ، ورقيباً من الضمير الحى الذى أيقظه الدين ورباه ، ورقيباً من العقل السليم الذى صقله الدين وهداه .

وقد يسأل سائل : هل أقر الإسلام الضمير ، وعده رقيباً ؟

والجواب على هذا أن الإسلام قدر الضمير ، واعتمد عليه فى أنواع من الحكم والاختيار .

(١) علم الأخلاق ٢/٣٧٠

وحسب الضمير شرفاً أن يكون المقصود فى قوله تعالى : «لا أُقْسِمُ بيوم ِ القِيامةِ ، ولا أُقسم بالنفس اللَّوَّامة [1]» .

وفى قول رسول الله : إن فى الجسد مُضْغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ، ألا وهى القلب .

وقد تعرض أُمور ليس للشرع فيها نص ، فيحار الناس أَخير هى أَم شر ؟ أَحلال أَم حرام ؟ وهنا يهتف الضمير الحى بما يطمئن النفوس ، ويهديها إلى الخير والحق والحلال . وهذا هو المقصود من قوله صلى الله عليه وسلم : اسْتَفْتِ قلبك ، استفت نفسك . البر ما اطمأَن إليه القلب . واطمأَنت إليه النفس ، والإثم ما حاك فى النفس ، وتردد فى الصدر [2] .

وقوله : الحلال بَيِّنٌ والحرامُ بَيِّنٌ ، وبينهما أُمور مشتبهات لا يعلمها كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأَ لعرضه ودينه ، ومن وقع فى الشبهات وقع فى الحرام ، أَلا وإن فى الجسد مُضْغة إذا صلحت صلح الجسد كله ، وإذا فسدت فسد الجسد كله ؛ أَلا وهى القلب [3] .

وقوله : لا يبلغ العبد أَن يكون من المتقين حتى يدع ما لا بأْس به حَذَرا لما به البأْس [4] .

أَما العقل فإن القرآن قد رفعه مكاناً علياً فى كثير من آياته ، وإن الفضائل التى دعا إليها الإسلام لتوافق العقل السليم ، ولهذا جعله الإسلام من الرقباء عليها وعلى الناس .

---

(1) سورة القيامة 1 ـ النفس اللوامة : التى تلوم صاحبها كثيرا

(2) كنز العمال ٨٨/٢

(3) الاحياء ٥٠/٣ وتيسير الوصول ٢٢٩/٣

(4) كنز العمال ٢١/٢

ولعل الإمام الغزالى كان يقصد إلى بعض هذا حينما ذكر أن الاعتدال فى قوة العقل وكمال الحكمة . وفى قوة الغضب والشهوة ، وفى خضوعها للعقل والشرع يحصل من طريقين .

أحدهما بجود إلهى وكمال فطرى . فيخلق الإنسان ويولد كامل العقل . حسن الخلق . قد تحرر من سلطان الشهوة والغضب ، لأن القوتين خلقتا فيه منقادتين للعقل وللشرع : فيصير عالماً بغير تعليم ، ومؤدباً بغير تأديب . كالأنبياء عليهم الصلاة والسلام . والآخر اكتساب هذه الأخلاق بالمجاهدة والرياضة وحمل النفس على الأعمال التى يقتضيها الخلق المطلوب ، وجميع الأخلاق المحمودة شرعاً تحصل بهذا الطريق[1] .

على أننا لا نعرف فضيلة إلا وقد أمر الدين بها ، وارتضاها العقل السليم وأيدها . وهش لها الضمير الحى وسددها .

وليس هناك رذيلة إلا وقد نهى الدين عنها وبَغَّضها ، ونفر منها الضمير الحى وأنكرها . ورفضها العقل السليم وقبحها .

وإنه لجدير بإمعان النظر أن القرآن الكريم إذ يأمر بفضيلة أو ينهى عن رذيلة يسلك مسالك . منها :

١ – أنه يعقب على الأمر أو النهى بتعليل موجز يكشف عما فى العمل بالفضيلة من خير . وما فى اقتراف الرذيلة من شر ، وفى هذا تنبيه للضمير وللعقل .

من هذا قوله تعالى : «ولا تَسْتَوِى الحَسَنَةُ ولا السَّيئةُ ، ادْفَعْ بالتى هى أَحْسَنُ . فإذا الذى بيْنَك وبيْنَهُ عداوةٌ كأَنَّهُ ولىٌّ حَمِيم[2]» .

(١) الاحياء ٣/٥٠
(٢) سورة فصلت ٣٤

فها هنا تعليل لمقابلة السيئة بالحسنة يبين أن هذه المقابلة تطفئ الغضب ، وتعيد المودة ، وتكفل السلام .

وقوله تعالى : «يأيها الذين آمَنُوا لا يَسْخَرْ قومٌ من قومٍ عَسَى أن يكونوا خَيْرًا منهم ، ولا نِساءٌ من نِساءٍ عسى أَنْ يَكُنَّ خيرًا منهنَّ ، ولا تَلْمِزُوا أَنفسَكم ولا تَنَابَزُوا بالأَلْقابِ ، بئسَ الاسمُ الفُسوقُ بعد الإيمان ، ومَنْ لم يَتُبْ فأُولئك هم الظَّالِمُونَ . يأَيها الذين آمنوا اجتَنِبُوا كثيرا من الظَّنِّ ، إنَ بعْضَ الظنِّ إِثْمٌ ، ولا تَجَسَّسُوا ، ولا يَغْتَبْ بعضكم بعضاً ، أَيُحِبُّ أَحَدُكم أن يأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتاً فكَرِهتُمُوهُ ، واتقوا اللهَ إنَّ اللهَ تَوَّابٌ رحِيم[1] » .

فها هنا نهى عن عدة رذائل ، وتعليل لهذا النهى .

(ا) نهى عن سخرية بعض المسلمين ببعض سواء أكانوا من الرجال أم النساء ، لأن الذين يسخرون منه قد يكون أكرم منهم أخلاقاً ، وأعظم تقوى ، وأعلى مكانة عند الله .

(ب) ونهى عن تبادل الشتائم ومعايب الألقاب ، لأن هذا مروق من آداب الدين ، ومعصية لله ، وظلم للنفس وللناس .

(حـ) وأمر باجتناب كثير من الظن ، لأن بعضه باطل ، وقد يجر إلى اعتداء وذنب .

(د) ونهى عن التجسس ، وعن الغيبة ، لأن من يغتاب أخاه يرتكب عملا شنيعا بشعاً تعافه كل نفس ، فهو مثل من يأكل لحم

---

(١) سورة الحجرات ١١ ــ ١٢ ــ لا تلمزوا : لا تعيبوا : لا تنابزوا بالألقاب : لا يدع بعضكم بعضا بلقب يكرهه . الاسم : المذكور من السخرية واللمز والتنابز .

إنسان ، وهذه بشاعة ، ثم إن هذا الإنسان أخوه ، وهذه بشاعة ثانية ، ثم إن هذا الإنسان الأخ ميت ، وهذه بشاعة ثالثة .

(هـ) وقوله تعالى : «يـأيها الذينَ آمَنُوا إنْ جَاءَكُمْ فاسِقٌ بنبأ فَتَبَيَّنُوا أَنْ تُصيبوا قوماً بجَهَالةٍ ، فتُصْبِحُوا على ما فعلتم نادمين [1] » .

فالتثبيت لتحرى الأنباء التى ينقلها الكاذبون ضرورى ؛ لأن تصديق أنبائهم قد يثير النفوس ، فيدفعها إلى حرب أو قطيعة أو سوء مجازاة . ثم تتكشف الحقيقة فيكون الندم والأسف .

(و) وقوله تعالى : «ولَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتَذْهَبَ رِيحُكم [2] » فإن التنازع والتخاصم والتفرق يصيب بالخيبة وضعف القوة ، ويطمع الأعداء فى المسلمين .

٢ ــ وقد يراوح القرآن الكريم ، فيأمر بالفضيلة فى موضع أو ينهى عن الرذيلة فى موضع ، بغير أن يلحق بالأمر أو النهى تعليلا ، ولكنه فى موضع آخر يعقب بالتعليل .

من هذا قوله تعالى : «إنَّ اللهَ يـأْمُرُ بالْعَدْلِ والإحْسانِ وإيتاء ذى القُرْبى ، ويَنْهَى عن الفَحْشَاء والْمُنْكَرِ والبَغْيِ ، يَعِظُكم لعلكم تَذَكَّرون » [3] .

فهذا أمر بالعدل مجرد من التعليل ؛ ولكن الأمر بالعدل اقترن فى موضع آخر بأنه مظهر من مظاهر التقوى والخلق الكريم ، فى قوله تعالى :

---

(١) سورة الحجرات ٦

(٢) سورة الانفال ٤٦ ــ ريحكم : قوتكم

(٣) سورة النحل ٩٠

«اعْدِلُوا هو أَقربُ للتقوى[1]». واقترن فى موضع آخر بأنه عمل ممدوح محبوب، فى قوله تعالى: «إِنَّ اللهَ يأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الأَمانَاتِ إلى أَهلِهَا. وإذا حكمتم بَيْنَ الناسِ أن تَحْكُمُوا بالعَدْلِ. إن اللهَ نِعمًا يعِظُكم بِهِ[2]».

٣ ــ وقد يعقب القرآن الكريم على الأمر أو النهى بالترغيب فى ثواب الله والترهيب من عقابه، كقوله تعالى: «ويْلٌ للمطفِّفِينَ الذين إذا اكْتَالُوا على الناس يسْتَوْفُونَ، وإذا كَالُوهُمْ أو وَزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ. ألا يَظُنُّ أُولئك أَنَّهُمْ مَبْعُوثُونَ ليوم عظيم، يوْمَ يقومُ النَّاسُ لِرَبِّ العَالَمينَ[3]».

وقوله تعالى: «وأَوْفُوا بعهد الله إذا عاهدتم. ولا تَنْقُضوا الأَيمانَ بعد توكيدها، وقَدْ جعَلْتُمُ اللهَ عَلَيْكُمْ كَفِيلاً، إنَّ اللهَ يَعْلَمُ ما تَفْعَلُونَ[4]».

وليس معنى هذا أن الفضائل أو الرذائل التى لم يلحق بها القرآن الكريم تعليلا أقل شأناً من التى ألحق بها بعض التعليل، أو أنها محتاجة إلى تعليل يؤيدها، بل معناه أنها من البديهيات التى لا يختلف الناس فيها. فتطفيف الكيل والميزان جريمة فى تقدير كل إنسان متدين حى الضمير سليم العقل كريم الخلق، وإذا أفلت مرتكبها من العقاب فى الدنيا فلن يفلت من عقاب الآخرة.

والوفاء بالعهد خُلَّة محمودة يحرص عليها العقلاء الفضلاء، ونكثُ العهد رذيلة يأنفون منها، لأنها منقصة، وإن خفيت على الناس فلن تخفى على علام الغيوب.

---

(١) سورة المائدة ٨

(٢) سورة النساء ٥٨

(٣) سورة المطففين ١ ــ ٦ ويل: هلاك وعذاب. اكتالوا على الناس: اشتروا منهم؛ كالوهم: باعوا لهم

(٤) سورة النحل ٩١

غايتها

تبين أن الأخلاق الإسلامية متفردة بأن الدين منبعها ، وبأن التقوى محورها ، وممتازة على المذاهب الأخلاقية بخصائصها ، وإنها لمتميزة أيضاً بغايتها .

وماذا عسى أن تكون الغاية من المثل الأعلى الذى تشرئب إليه الإنسانية فى جميع عصورها ، لأنه يحقق لها الحق والخير والعدل ، وما يكفله الحق والخير والعدل من محبة وسلام وإيثار وتعاطف ورخاء وتقدم وتعاون على البر والتقوى ؟

ماذا عسى أن يفعله الروح الطاهر الذى يسرى فى كل نفس وفى كل جمع قوة دافعة إلى الكمال ، مانعة من العيب والنقص ؟

ما الذى يبتغيه الأتقياء الفضلاء من مرضاة الله عنهم فى الدنيا وفى الآخرة؟

إنها السعادة .

السعادة التى تظلل الفرد ، وتظلل الأمة .

السعادة المحققة لا الأوهام الملفقة .

السعادة الماثلة لا الأطياف الزائلة .

السعادة التى تجعل الحياة الدنيا جنة صغيرة يجتازها الناس إلى الحياة الآخرة ، وهى الجنة الكبيرة التى ينعمون فيها بما لم تره عين ، ولم تسمع به أذن ، ولم يخطر على قلب بشر .

شغف النبي بمكارم الأخلاق

اصطفاه الله من أكرم دوحة ، وتعهده فى طفولته وشبابه إلى أن اختار ليكون مبشرا ونذيرا ، فرباه أشرف تربيب ، وأدبه أحسن تأديب .

أدبه بمثل قوله تعالى : «خُذِ العَفْوَ ، وأْمُرْ بالعُرُفِ ، وأَعْرِضْ عن الجاهلين[1]» و «إن اللهَ يأْمُرُ بالعَدْلِ والإِحْسَانِ وإيتاءِ ذى القُرْبى ، ويَنْهَى عنِ الفَحْشَاءِ والمُنْكرِ والبَغْيِ[2]» و «واصبِرْ عَلى مَا أَصابَكَ ، إنَّ ذَلِكَ مِنْ عَزْمِ الأُمُورِ[3]» و «ادْعُ إلى سبِيلِ ربِّكَ بالحِكْمَةِ والموعظةِ الحسنة وجَادِلْهُمْ بالتى هى أحْسَنُ[4]» .

وكان القرآن الكريم منهل أخلاقه ، قال سعد بن هشام : دخلت على عائشة فسألتها عن أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ، قالت : كان خُلُقه القرآن[5] .

فكيف لا يكون فى القمة من حلو الشمائل وحميد السجايا ؟

لقد كان فى هذه القمة ، ولكنه مشغوف بالاستزادة ، حتى إنه كان

---

(١) سورة الأعراف ١٩٩
(٢) سورة النحل ٩٠
(٣) سورة لقمان ١٧
(٤) سورة النحل ١٢٥
(٥) الاحياء ٣١٣/٢

يقول فى دعائه اللهم كما حسَّنْتَ خَلْقِى فحَسِّنْ خُلُقِى ، اللَّهم جنبنى منكرات الأَخلاق ، اللهم اهدنى لأَحسن الأَخلاقِ لا يهدى لأَحسنها إلا أنت[1] .

وقد ناط مكارم الأَخلاق برسالته ، فقال : إنما بعثت لأُتمم مكارم الأَخلاق ، وكان لا ينفتأُ يحض المسلمين على التحلى بالفضائل ، وينفرهم من الرذائل .

وله فى هذا أحاديث كثيرة ، منها قوله :

إن أَحبَّكمْ إلىَّ وأَقربَكُمْ منىِّ مجالسَ يوم القِيامَةِ أَحاسنكم أَخلاقاً ، المُوَطَّأُونَ أَكْنافاً ، الذين يأْلفُونَ ويُؤْلَفُونَ .

وقوله : «إن الرجل ليدرك بحسن خلقه درجة الصائم بالليل الظامى بالهواجر . وقوله : مِنْ سَعادةِ المرءِ حسنُ الخُلق .

وقوله : أَكثرُ ما يدخل الناس الجنة تقوى الله وحسن الخلق .

وقوله : إنَّكم لن تسَعُوا النَّاسَ بأَموالكم ، فسعوهم ببسط الوجه وحسن الخلق[2] .

وسئل : أى الأَعمال أفضل ؟ قال : خلق حسن .

وقيل له : أَى المؤْمنين أَفضل إيماناً ؟ قال : أَحسنهم خلقاً .

والذى يفهم من هذه الأَحاديث ومن غيرها أَن النبى عليه الصلاة والسلام ربط الأَخلاق الفاضلة بالتدين وبالتقوى أَوثق ربط ، ولهذا

---

(١) شرح الزرقانى على المواهب اللدنية ٤/٢٤٤ والاحياء ٢/٣١٣ وكنز العمال ٢/٣

(٢) كنز العمال ٢/٣ والاحياء ٢/١٢٩

اخترت من كتاب احياء علوم الدين للغزالى الاحاديث التى خرجها ولم يضعفها زين الدين العراقى فى كتابه (المغنى) المطبوع على هامش الاحياء

جاءه رجل فوقف بين يديه وقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال : حسن الخلق ، فأتاه من قِبَلِ يمينه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ قال : حسن الخلق ، ثم أتاه من قبل شماله فقال : يا رسول الله ما الدين قال : حسن الخلق ، ثم أتاه من ورائه فقال : يا رسول الله ما الدين ؟ فالتفت إليه وقال : أما تفقه ؟ هو ألا تغضب .

ويفهم من بعض أحاديثه أن سوء الخلق يمحق الحسنات ، ويبطل الطاعات فقد قيل له : أن فلانة تصوم النهار ، وتقوم الليل ، وهى سيئة الخلق ، تؤذى جيرانها بلسانها . فقال : لا خير فيها ، هى من أهل النار .

وقال : سوءُ الخلق يفسد العمل كما يفسد الخل العسل .

وقال : إن العبد ليبلغ من سوءِ خلقه أسفل درك جهنم .

وقال : الشؤمُ سوءُ الخلق[1] .

وبلغ من كلفه بمكارم الأخلاق أنه أطلق من السبى بنت حاتم الطائى مكافأة لكرم أخلاق أبيها ، فإنها جاءت إلى النبى فى سبايا طىء فقالت : يا محمد إن رأيت أن تخلى عنى ، ولا تشمت بى أحياء العرب ، فإنى بنت سيد قومى ، وإن أبى كان يحمى الذِّمار ، ويفك العانى ، ويشبع الجائع ، ويطعم الطعام ، ولم يرد طالب حاجة قط ، أنا ابنة حاتم الطائى .

فقال صلى الله عليه وسلم : يا جارية هذه صفة المؤمنين حقاً ، لو كان أبوك مسلماً لترحمنا عليه ، خلوا عنها ، فإن أباها كان يحب مكارم الأخلاق ، وإن الله يحب مكارم الأخلاق.

---

(١) الاحياء ٣/٤٣

فقام أبو بُرْدَة بن نَيَّار فقال : يا رسول الله ، الله يحب مكارم الأَخلاق ؟ فقال الرسول : والذى نفسى بيده لا يدخل الجنة إلا حسن الأَخلاق[1] .

كان صلى الله عليه وسلم مشغوفاً بمكارم الأَخلاق شغفه بتبليغ الرسالة وبطاعة الله وتقواه ، فكان المثل الأَعلى فى كل فضيلة ، وكان خليقاً بثناء الله سبحانه وتعالى عليه فى كتابه الكريم ، كقوله : «وإنَّكَ لَعلى خُلُقٍ عظيم[2] » وقوله : «فبِما رحمةٍ منَ اللهِ لِنْتَ لهم ، ولوْ كُنْتَ فَظًّا غليظَ القلب لانفَضُّوا من حَوْلِكَ[3] » وقوله : «فَلا أُقسمُ بما تبصرونَ وما لا تبصرونَ إنَّهُ لقولُ رسولٍ كريم[4] » وقوله : «لَقَدْ كانَ لَكُمْ فى رسُولِ اللهِ أُسْوةٌ حسنةٌ لمن كان يرْجُو الله واليومَ الآخِر ، وذَكَرَ اللهَ كثِيراً[5] » .

وحسبه من التشريف الإلهى أن الله تعالى أقسم بحياته فى قوله : «لعمرك إنهم لفى سكرتهم يَعْمَهُونَ[6] » ولم يقسم الله بحياةِ أحد غير محمد عليه الصلاة والسلام .

وحسبنا من وصف أصحابه له قول على بن أبى طالب : إنه كان أجود الناس كفاً ، وأجرأ الناس قلباً ، وأصدق الناس لهجة ، وأوفى الناس ذمة ، وألينهم عريكة ، وأكرمهم عشرة ، من رآه بديهة هابه ، ومن خالطه أحبه[7] .

فلنشرع فى السُّقيا من جداول نهره الزاخر بمكارم الأَخلاق .

---

(١) الاحياء ٣١٤/٢
(٢) سورة القلم ٤
(٣) سورة آل عمران ١٥٩
(٤) سورة الحاقة ٣٨–٤٠
(٥) سورة الأحزاب ٢١
(٦) سورة الحجر ٧٢ — يعمهون : يترددون ضالين لا يهتدون
(٧) سيرة ابن هشام ٤٢/٢

الفصل الثالث

الشجاعة

حقيقتها

عرض أرسطو لتعريفها فقال : إننا نخاف الأشياء التى من شأنها أن تخاف ، وهذه الأشياء هى الشرور ، فالخوف إذاً هو تصور الشر . سواء أكان عارا أم فقرا أم مرضاً أم موتاً . غير أن الرجل الشجاع لا تظهر عليه الشجاعة ضد جميع الشرور بلا استثناء ، بل من الشرف أن يخاف بعض الشرور ، ومن المخجل ألا يخاف مطلقاً ، مثال ذلك العار ، فالرجل الذى يخاف العار رجل حقيق بالاحترام ، وذو شعور بالشرف . أما الذى لا يخافه فهو على الضد وقح شقى ، وإن سُمِّى شجاعاً أحياناً فهذا مجاز ، لأن فيه نوعاً من الشبه بالرجل الشجاع .

فما الشرور المخوفة التى تنطبق عليها الشجاعة فى الحقيقة ؟

إنها الشرور العظمى ، لأنه لا يطيقها إلا الشجاع ، والموت أشدها إخافة .

ولكن الشجاعة لا تنحصر فى مكافحة الموت فى جميع الأحوال بلا تمييز ، بل تنحصر فى مكافحة الموت فى الحرب ، حيث يدافع المرءُ عن نفسه بشهامة ، وحيث يكون الموت شرفاً ومجدا[1] .

---

(١) علم الأخلاق ٢٩٧/١

وسيتبين من شجاعة رسول الله أنها كانت أسمى من رهبة الموت فى الدفاع عن النفس ، لأنها كانت فى الدفاع عن النفس ، وعن الدين ، وعن الحق ، وعن الصحب ، وعن المثل العليا التى يدعو إليها .

فلم يكن شجاعاً فحسب ، بل كان المثل الأعلى فى الشجاعة ، إذ كان شجاعاً فى السلم ، وشجاعاً فى الحرب ، وكان شجاعاً فى وحدته ، وفى قلة من أنصاره ، وشجاعاً فى جماعته ، وفى كثرة من أعوانه ، وكان شجاعاً فى جهره بالحق ، وفى دفاعه عن العقيدة مهما تكن عاقبة الشجاعة .

وإذا كان التاريخ القديم والحديث قد سجل فى صفحاته أسماء كثير من الشجعان الذين تضرب بشجاعتهم الأمثال ، فإنه لم يستطع أن يسجل لواحد منهم ما سجله لرسول الله من ضروب الشجاعة المثلى فى مصادرها وفى مظاهرها وفى غاياتها .

مصادرها

أما مصادر شجاعته فهى وراثته وفطرته وتربية الله له ، وحسبنا أن نذكر قوله تعالى « انْفِرُوا خِفَافًا وثِقَالًا وجاهدُوا بِأَموالكم وأَنفُسِكُمْ فى سبِيلِ الله ، ذلِكمْ خيرٌ لكمْ إنْ كُنتم تعلمُونَ[1] »

وقوله تعالى : (إنَّ اللهَ اشْتَرَى من المؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوالَهُمْ بِأَنَّ لهم الجَنَّةَ ، يُقَاتِلُونَ فى سبِيلِ الله فَيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ ،وَعْدًا عليه حقًّا فى التَّوْراةِ

---

(١) سورة التوبة ٤١

والإنجيلِ والقرآن، ومنْ أوْفى بعَهْدِه من اللهِ؟ فاستَبْشِرُوا ببيْعِكُم الذى بايعتم به ، وذلكَ هو الفوزُ العظيم[1] » .

وقوله تعالى : «ولَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فى سَبِيلِ الله أمواتًا ، بل أحياء عِنْدَ ربِّهِمْ يُرْزَقُونَ ، فَرِحِينَ بِما ءاتَهُمُ اللهُ من فَضْلِهِ ، ويستَبْشِرُونَ بالَّذِينَ لم يلْحقُوا بهم مِنْ خَلْفِهِم ألا خوفٌ عليهم ولا هُمْ يَحْزَنونَ ، يستبشِرُونَ بنعمةٍ منَ اللهِ وفَضْلٍ وأنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أجْر المؤْمِنين[2] » .

وقوله تعالى : «يـأيها الَّذِينَ آمَنُوا إذَا لقِيتُم الذينَ كفروا زَحْفًا فلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ . وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يومئِذٍ دُبُرَهُ إلا مُتَحرِّفاً لقتال أو مُتَحيِّزًا إلى فِئة فقدْ باءَ بغضب منَ الله ، وَمأْواهُ جهنَّمُ وبِئْس المَصِير[3] » .

مظاهرها

أما مظاهر شجاعة الرسول فإنها متعددة الألوان متنوعة الضروب ، تجمعها شجاعة الرأى وشجاعة الحرب .

(١) شجاعة الرأى

لقد قضى حياته قبل البعثة ساخطاً على ما يرى من فساد العقيدة ، وضلال العقول ، وعمى القلوب ، وانحلال الأخلاق ، وكان قد شاركه فى بعض هذا السخط معاصرون له هم الحُنفَاءُ ، لكن سخطهم لم يكن مثل سخطه ، وغيرتهم على كرامة الإنسان لم تكن مثل غيرته ، وتَشَوُّفُهُمْ إلى العقيدة الصحيحة لم يكن كتشوفه .

---

(١) سورة التوبة ١١١

(٢) سورة آل عمران ١٦٩–١٧١

(٣) سورة الانفال ١٥–١٦ لاتولوهم الادبار : لاتفروا منهزمين ، لان المهزوم يولى وظهره الى عدوه . متحرفا : منعطفا . متحيزا : منضما . باء : رجع

ثم اجتباه اللهُ لرسالته ، فثبت على الدعوة إليها ثباتاً لا يتخلخل ، وغار على دينه غيرة لا تتحول ولا تتبدل .

١ – فقد ضاقت قريش بدعوته إلى الإسلام ، وبتسفيه أحلامها ، وعيب آلهتها ، فمشوا إلى عمه أبى طالب ، وقالوا له : إن لك سناً وشرفاً ومنزلة فينا ، وإنا قد استنهيناك من ابن أخيك ، فلم تنهه عنا ، وإنا والله لا نصبرُ على هذا من شتم آبائِنا وتسفِيهِ أحلامنا وعيْب آلهتنا ، حتى تكفه عنا ، أو ننازلهُ وإياك حتى يهلك أحدِ الفريقين .

فعظم على أبى طالب فراق قومه وعداوتهم ، ولم يطب نفساً بخذلان ابن أخيه ، فقال لمحمد : يا بن أخى إنَّ قومك قد جاءُونى ، فقالوا لى كذا وكذا . فأبْقِ علىَّ وعلى نفسك ، ولا تحملنى من الأَمر ما لا أطيق .

فظن رسول الله أن عمه تخلى عنه ، وأنه خاذله ، وأنه قد ضعف عن نصرته . فقال : يا عم ، والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأَمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته .

ثم استعبر رسول الله فبكى ثم قام ، فلما ولى ناداه أبو طالب ، فقال : أقبل يا بن أخى فأقبل عليه ، فقال : اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت ، فو الله لا أُسلمك لشىءٍ أبدًا (١) .

٢ – وعرض عُتْبةُ بن ربيعة على قريش – بعد أن أسلم حمزة بن عبد المطلب – أن يعرض على الرسول أُمورا لعله يقبل بعضها فيكف عن دعوته ، فوافقته قريش ، فقام إليه عتبة فقال : يا بن أخى ، إنك منا حيث قد علمت من الشرف فى العشيرة والعلاء فى النسب ، وإنك قد أتيت

(١) سيرة ابن هشام ٢٨٤/١ وتاريخ الطبرى ٢٢٠/٢

قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ودينهم ، وكفرت به من مضى من آبائهم ، فاسمع منى أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل بعضها .

فقال له رسول الله : قل يا أبا الوليد أسمع .

قال : يا بن أخى ، إن كنت إنما تريد بما جئت به من هذا الأمر ما لا جمعنا لك من أموالنا ، حتى تكون أكثرنا مالا .

وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك .

وإن كنت تريد به ملكاً ملكناك علينا .

وإن كان هذا الذى يأتيك رَئِيًّا[1] تراه ولا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابعُ على الرجل حتى يداوى منه .

فلما فرغ عتبة قال له رسول الله : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟

قال : نعم .

قال الرسول : فاسمع منى .

قال : أفعل .

فقال الرسول : بسم الله الرحمن الرحيم. «حم. تنزيلٌ مِنَ الرحمٰنِ الرحيم. كِتابٌ فُصِّلَتْ آياتُهُ قرآنًا عربيًّا لقومٍ يَعْلَمُونَ. بشيرا ونذيرا فأَعْرَضَ أكثرُهُمْ فهم لا يَسْمَعونَ. وقالوا قلوبُنا فى أَكِنَّةٍ مما تدعونا إليه[2]» ومضى رسول الله يقرؤها عليه ، وعتبة منصت وقد ألقى يديه خلف ظهره

---

(١) الرئى : مايتراءى للانسان من الجن
(٢) سورة فصلت ١-٥ - اكنة : أغطية

معتمدا عليهما يسمع منه ، ثم انتهى رسول الله إلى آية السجدة من السورة ، فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، وأنت وذاك .

فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به .

فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟

قال : سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ولا بالسحر ولا بالكهانة . يا معشر قريش ، أطيعونى واجعلوها بى ، وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه ، فاعتزلوه ، فوالله ليكونَنَّ لقوله الذى سمعت منه نبأٌ عظيم ، فإن تصبه العرب فقد كفيتموه بغيركم ، وإن يظهر على العرب فملكه ملككم ، وعزه عزكم ، وكنتم أسعد الناس به .

قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه .

قال : هذا رأيى فيه ، فاصنعوا ما بدا لكم (١) .

٣ ـ ذكر عبد الله بن عمرو بن العاص أن أشراف قريش اجتمعوا يوماً فى الحِجْر ، فذكروا رسول الله وقالوا : لقد سفه أحلامنا ، وشتم آباءنا ، وعاب ديننا ، وفرق جماعتنا ، وسب آلهتنا ، ولقد صبرنا منه على أمر عظيم . وبيناهم كذلك إذ طلع عليهم رسول الله ، فأقبل يمشى حتى استلم الركن ، ثم مر بهم طائفاً بالبيت .

فلما مر بهم غمزوه ببعض القول ـ قال عبد الله بن عمرو : فعرفت ذلك فى وجه رسول الله ـ ثم مضى ، فلما مر بهم الثانية غمزوه بمثلها ـ قال عبد الله بن عمرو : فعرفت ذلك فى وجهه ـ ثم مضى ، فمر بهم الثالثة ،

---

(١) سيرة ابن هشام ٣١٣/١

فغمزوه بمثلها حتى وقف ، ثم قال : أتسمعون يا معشر قريش ، أما والذى نفس محمد بيده ، لقد جئتكم بالذبح . فأطرق القوم ، كأنما على رأس كل منهم طائر واقع ، حتى إن أشدهم على الرسول وطأة قبل ذلك ليَرْفَؤُهُ [(١)] بأحسن ما يجد من القول ، ويقول : انصرف يا أبا القاسم راشدا ، فو الله ما كنت جهولا .

فانصرف رسول الله ، حتى إذا كان من الغد اجتمعوا فى الحِجْر وأنا معهم ، فقال بعضهم لبعض : ذكرتم ما بلغ منكم ، وما بلغكم عنه ، حتى إذا بادأكم بما تكرهون تركتموه ، فبينما هم فى ذلك طلع عليهم الرسول ، فوثبوا إليه وثبة رجل واحد ، فأحاطوا به يقولون : أنت الذى تقول كذا وكذا ، لِمَا كان قد بلغهم من عيب آلهتهم ودينهم ، فقال رسول الله : نعم ، أنا الذى أقول ذلك .

فرأيت رجلا منهم أخذ بمجامع ردائه ، وقام أبو بكر الصديق دونه يقول وهو يبكى : أتقتلون رجلا أن يقول ربى الله ؟ ثم انصرفوا عنه ، ورجع أبو بكر وقد صدعوا فوق رأسه من كثرة ما جذبوه بلحيته[(٢)] .

(٢) الشجاعة فى الحرب :

وقد تجلت شجاعته الحربية منذ مطلع شبابه ، فإنه لما كان فى الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة هاجت حرب الفجار[(٣)] بين قريش ومعها

---

(١) يرفؤه : يسكنه ويهدئه

(٢) سيرة ابن هشام ٣١٠/١ وتاريخ الطبرى ٢٢٣/٢ والاحياء ٣٠١/٢ .

(٣) سميت فجارا لأنها كانت فى الشهر الحرام ففجروا فيها جميعا

كِنانة وبين قَيْس عيْلان ، وشهد رسول الله بعض وقائعها ، إذ أخرجه أعمامه معهم .

وحدث رسول الله بقوله : كنت أُنْبِلُ(١) على أعمامى(٢) .

ثم بعد النبوة كان يشارك فى المواقع ، ويُقْدِمُ إقدام البطل ، ويمارس ما يمارسه القائد الشجاع ، ويتعرض لما يتعرض له أتباعه وجنوده ، على حين أنه كان يستطيع أن يعفى نفسه من هذه المشاركة العملية اعتمادا على أنه النبى ، فيتوارى أو يتحصن أو يتخذ مكانه فى مؤخرة الجيش ، ولو أنه فعل ذلك لكان له مندوحة لا يرقى إليها تثريب أو ملام ، ولو أنه آثر هذا المسلك لرضى المسلمون به مرضاة خالصة ، فقد كانوا يؤثرون رسول الله على أنفسهم ، ويشترون سلامته بأرواحهم .

١ ـ فى غزوة بدر تزاحف المسلمون والمشركون ، ودنا بعضهم من بعض ، وقد أمر رسول الله أصحابه ألا يحملوا حتى يأمرهم ، وقال : إن اكتنفكم القوم فانْضَحُوهم عنكم بالنَّبل . .

وجعل يُعَدِّلُ الصفوف ، ثم دخل العريش وناشد ربه ما وعده من النصر ، وقال : اللَّهُمَّ إن تَهْلِكْ هذِه العصابةُ اليومَ لا تُعْبَد . وأبو بكر يقول : يا نبى الله ، بعضَ مناشدتك ربك ، فإن الله مُنْجِزٌ لك ما وعدك .

ثم خرج إلى الناس فحرضهم ، وقال : والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله اللهُ الجنَّة(٣) .

---

(١) انبل عليهم : ارد عليهم نبل عدوهم اذا رموهم بها

(٢) سيرة ابن هشام ١٩٨/١

(٣) سيرة ابن هشام ٢٧٩/٢

٢ ــ وفى غزوة أُحد تجلت ألوان من شجاعته :

ا ــ حينما علم بمقدم قريش لحربه فى موقعة أُحد ، قال لأصحابه : إن رأيتم أن تقيموا بالمدينة ، وتدعوهم حيث نزلوا ، فإن أقاموا أقاموا بشر مقام ، وإن هم دخلوا علينا قاتلناهم فيها .

وكان عبد الله بن أُبيٍّ بن سَلُول يرى هذا الرأى ، وكان رسول الله يكره الخروج ، ولكن جماعة من الصحابة آثروا الخروج . ولم يزالوا برسول الله حتى دخل بيته ، فلبس لأْمَتَهُ وتقلّد سيفه ، ثم خرج إليهم ، فندموا وقالوا : استكْرَهْنَا رسول الله ، ولم يكن لنا ذلك . فلما خرج عليهم قالوا : يا رسول الله ، استكرهناك ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد . فقال : ما ينبغى لنبى إذا لبس لأْمَتَهُ أن يضعها حتى يقاتل ، ويحكم الله بينه وبين عدوه . وخرج فى ألف من أصحابه [١] .

تتجلى هنا ضروب من الشجاعة : أولها فى تدبير الخطة والموازنة بين قوة المسلمين وقوة قريش ، وإيثار أن يبقى المسلمون فى مدينتهم ، ليدفعوا العدو المهاجم وهم أوفر منه قوة ، وأعز حصانة ، وأقدر على ملاقاته وإن كانوا أقل منه عددا وعدة ، ولا تثريب على قائد فى أن يقف مثل هذا الموقف ، لأن الشجاعة تقتضى الهجوم تارة وتقتضى الارتداد تارة ، وتكون فى المبادرة حيناً ، وتكون فى التريث حيناً آخر .

وثانيها فى الاستجابة لحماسة الكثرة التى آثرت الخروج من المدينة للقاء قريش ، فإنه لم يكن بد من هذه الاستجابة والجذوة متقدة ، والعزيمة

---

(١) سيرة ابن هشام ٦٧/٣ وتاريخ الطبرى ١١/٣ وشرح الزرقانى على المواهب اللدنية ٢٤/٢

ملتهبة ، والنفوس متلهفة إلى الاستشهاد فى الدفاع عن العقيدة وعن الوطن ، وإلا كانت هذه الحماسة عرضة لأن يخمدها البقاءُ واختلاف الآراء .

وثالثها مضاءُ النبي فى عزيمته ، ورفضه أن يستجيب لدعوة البقاء بعد أن أعد عدته ، ولبس لأمته ، وإصراره على ألا يضعها حتى يقاتل أعداء الله ، فإنه بهذا الإصرار أذكى شجاعة الصحابة جميعاً ، من كانوا يؤثرون الخروج ، ومن كانوا يؤثرون البقاء ، وخرج بهم يقودهم إلى لقاء الأعداء .

ب ـ جعل على الرَّجَّالة فى يوم أُحد ـ وكانوا خمسين رجلا ـ عبد الله ابن جُبَيْر وأقامهم فى موضع ، وقال : إن رأيتمونا تَخْطِفنا الطير فلا تبرحوا مكانكم هذا حتى أرسل إليكم ، وإن رأيتمونا هزمنا القوم فلا تبرحوا حتى أرسل إليكم .

وكان الموضع الذى أنزلهم به حماية لظهور المسلمين ، فعليهم أن يلزموه ، حتى إن رأوا المسلمين يقتلون فليس لهم أن يتحركوا لنجدتهم ، وإن رأوهم ينتصرون ويغنمون فليس لهم أن يتركوا مواقعهم .

وقد انتصر المسلمون فى أول المعركة ، حتى أسرعت نساءُ المشركين بالهرب .

حينئذ قال أصحاب عبد الله بن جُبَيْر : الغنيمةَ الغنيمةَ ، لقد انتصر أصحابكم ، فماذا تنتظرون ؟

فقال عبد الله : أنسيتم ما قال لكم رسول الله ؟

قالوا : لا ، والله لنأتيَنَّ الناس فلنصيبنَّ من الغنيمة ، فلما سارعوا

إلى الغنائم ، وتحولوا عن مواضعهم جعل رسول الله يدعوهم : يا عباد الله من كَرَّ فله الجنة .

ولكن نظامهم كان قد اضطرب ، وشاع فيهم أن النبي قد قتل ، وفر منهم من فر ، ولم يبق غير اثنى عشر رجلا من المسلمين .

فى هذا المأزق بقى النبي ثابتاً يجالد ، ويرمى عن قوسه حتى صارت شظايا ـ روي البيهقى عن المقداد قوله : فو الذى بعثه بالحق ما زلّت قدمه شبرا واحدا ، وإنه لفى وجه العدو ، تفىء إليه طائفة من أصحابه مرة ، وتفترق عنه مرة ، وهو قائم يرمي عن قوسه ، ويرمي بالحجَر[1] ، حتى انحازوا عنه .

وفى هذه الموقعة كُسرت رباعِيتُه[2] ، وشُجَّ فى وجهه ، وجرحت شفته ، وسال دمه على وجهه ، فكان يمسح الدم وهو يقول : كيف يفلح قوم خَضَبُوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم[3] ؟ .

ثم صلى الظهر قاعدا من الجراح التى أصابته ، وصلى المسلمون خلفه قعودا[4] .

جـ ـ لما لم يظفر المسلمون فى تلك الغزوة ، نهضوا نحو الشِّعْب ، ونهض معهم رسول الله وأبو بكر وعمر وعلىّ وطلحة والزبير ، فمشى إليهم أُبىُّ بن خَلَف وهو يقول : أى محمد ، لا نَجَوْتُ إن نَجَوْتَ .

---

(١) كان العرب يتقاتلون أحيانا برمى الاحجار . الحياة العربية من الشعر الجاهلى : ٢٤٣-٢٦٤ احمد الحوفى .

(٢) الرباعية التى بين الناب والثنية

(٣) سيرة ابن هشام ٨٤/٣ وشرح الزرقانى على المواهب اللدنية ٣٥/٢ وفتح المبدى ٢٣٧/٢

(٤) سيرة ابن هشام ٩٢/٣

فقال الصحابة : يا رسول الله ، أيعطف عليه رجل منا ؟

فقال : دعوه .

فلما دنا منهم أُبَىّ تناول رسول الله الحربة من الحارث بن الصِّمَّة ، فانتفض بها انتفاضة ، ثم استقبل أُبَيًّا فطعنه فى عنقه طعنة قلبته عن فرسه ، فمات من أثرها وهو فى طريقه إلى مكة[1] .

د ـ لم يكتف النبى صلى الله عليه وسلم بموقف البطولة الذى رمى فيه عن قوسه حتى اندق طرفها ، فجعل يناول سعد بن أبى وقاص النبل وهو يقول : ارم فِداك أبى وأُمى[2] .

بل حول انتصار المشركين الموقوت إلى رهبة من المسلمين ، وتَوَقُّع للثأر القريب ، وبهذا أضعف قوى الخصوم ، وقَوَّى ضعف المسلمين ، وبشرهم بنصر قريب .

وذلك أنه بعد الموقعة نادى أبو سفيان : إن موعدكم بدر للعام القابل ، فقال رسول الله لرجل من أصحابه : قل : نعم ، هو بيننا وبينكم موعد .

ثم بعث على بن أبى طالب فقال : اخرج فى آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون وما يريدون ، فإن كانوا قد جَنَّبُوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فإنهم يريدون المدينة ، والذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم فيها ، ثم لأُناجزنهم .

قال على : فخرجت فى آثارهم أنظر ماذا يصنعون ، فجنَّبُوا الخيل ، وامتطوا الإبل ، وتوجهوا إلى مكة[3] .

(١) سيرة ابن هشام ٨٩/٣
(٢) سيرة ابن هشام ٨٧/٣
(٣) سيرة ابن هشام ١٠٠/٣

ثم عاد الرسول إلى المدينة ، فناول سيفه ابنته فاطمة وقال : اغسلى عن هذا دمه يا بنية ، فوالله لقد صَدَقنى اليوم (١) .

وقد جاء ذكر هذه الخَرْجة فى قوله تعالى : «الذِينَ استَجابُوا للهِ والرَّسول مِنْ بَعْدِ ما أَصَابَهُمُ القَرْحُ ، للذينَ أَحسنُوا منهُم واتَّقَوا أَجرٌ عظيمٌ . الذين قالَ لَهُمُ النَّاسُ إنَ الناسَ قدْ جَمَعُوا لكم ، فاخْشَوْهُمْ . فزَادَهُمْ إيماناً ، وقالوا : حَسْبُنَا اللهُ ونِعْمَ الوكيلُ . فانقلبُوا بنعمةٍ من اللهِ وفضلٍ لم يَمْسَسْهُم سوءٌ ، واتَّبَعُوا رِضْوانَ الله ، واللهُ ذو فضلٍ عظيمٍ . إنَّمَا ذلكمُ الشيطانُ يُخوِّفُ أَولياءَهُ ، فلا تخافُوهُمْ وَخَافُونِ إنْ كنتُمْ مُؤْمنين (٢) » .

هـ ـ ثم نفذ النبي وعيده فى العام التالى لأحد ، فخرج ليلقى أبا سفيان فى بدر الآخرة ، وأقام ثمانى ليال ينتظره ، وكان أبو سفيان قد خرج فى أهل مكة حتى نزل مَجنَّة ، ثم بدا له أن يرجع ، فرجع هو ومن معه ، وأقام النبي على بدر ينتظر أبا سفيان ، فلما لم يجئ عاد إلى المدينة (٣) .

٣ ـ قالت السيدة عائشة : كان رسول الله فى غزوة الخندق يتردد على ثُلْمة فى الخندق يحرسها بنفسه ، حتى إذا آذاه البرد جاءنى فأدفأته ، فإذا دَفِئ عاد إلى تلك الثلمة يحرسها ، ويقول : ما أخشى أن يُؤْتى الناس إلا منها (٤) .

---

(١) السيرة ١٠٦/٣

(٢) سورة آل عمران ١٧٢–١٧٥ القرح : الجراح . قال لهم الناس : نفر من عبد القيس أرسلهم أبو سفيان الى المسلمين ليثبطوهم .
يخوف أولياءه : أولئك الرهط الذين القى الشيطان على أفواههم ما يرهبكم به من أعـوانه .

(٣) سيرة ابن هشام ٢٢٠/٣

(٤) كتاب المغازى ٤٦٣

٤ ـ في سنة ثمان بعد الفتح خرج النبي للقاء هَوازن وثَقيف وغيرهم في غزوة حُنين ، فلما اقتربوا من وادى حنين انحدروا في متسع منحدر ، وفي عماية الصبح كان القوم قد سبقوهم إلى الوادى ، فكمنوا في شعابه وأحنائه ومضايقه ، فشدوا على المسلمين ، فانهزموا راجعين إلا قليلا منهم ، لا يلوى أحد على أحد .

ولكن الرسول انحاز ذات اليمين وكان على بغلته البيضاء ، وابن عمه أبو سفيان بن الحارث يقودها به ، وكان النبي ينادي : أنا النبي لا كَذِب ، أنا ابن عبد المطلب ، أيها الناس ، هلمُّوا إلى ، أنا رسول الله ، أنا محمد بن عبد الله ، ولكنهم شغلوا باضطرابهم ، وحملت الإبل بعضها على بعض ، فانطلق الناس ، إلا نفرا من المهاجرين والأنصار ثبتوا مع رسول الله ، فقال الرسول : يا عباس ، اصرخ : يا معشر الأنصار ، يا معشر أصحاب السَّمرة ، فأجابوا : لبيك لبيك ، فكان الرجل يذهب ليثنىَ بعيره ، فلا يقدر ، فيأخذ درعه ، فيقذفها في عنقه ، ويأخذ سيفه وتُرْسه ، ويقتحم عن بعيره ، ويخلى سبيله ، فيؤم الصوت حتى ينتهى إلى رسول الله ، حتى إذا اجتمع إليه منهم مائة استقبلوا الناس فاقتتلوا حتى انتصر المسلمون[1] .

وقد سئل البَرَاءُ بن عازب : أفررتم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم حنين ؟ فقال : لكن رسول الله لم يفر ، إن هوازن كانوا قوماً رُماة ، فلما لقيناهم حملنا عليهم فانهزموا ، فأقبل المسلمون على الغنائم ،

---

(١) كتاب المغازى للواقدى ٩٠٠ وسيرة ابن هشام ٨٥/٤ والسيرة الحلبية ١٢٤/٣ واللؤلؤ والمرجان ٢٦٠/٢

واستقبلتنا هوازن بالسهام ، فأما رسول الله فلم يفر ، فلقد رأيته على بغلته البيضاء وأبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب آخذ بلجامها ، والنبي يقول : أنا النبي لا كذب أنا ابن عبد المطلب(١) .

٥ ـ ومن مظاهر شجاعة رسول الله أنه كان يطلق على أسلحته وعدده الحربية أسماء تميزها ، وألقاباً تدل عليها ، لأنه يشعر نحوها بعطف ومودة وإعزاز ، كأنما هى أنا بِىٌّ من جنوده الأوفياء وأعوانه الأصدقاء .

فرايته التى يحضر الحرب بها اسمها العُقَاب (٢) .

وسيفه الذى لم يفارقه فى حرب من الحروب اسمه ذو الفَقَار(٣) ، وله سيوف أخرى هى المِخْذَم(٤) ، والرَّسُوب(٥) ، والقَضِيب(٦) ، والقَلَعِىّ(٧) ، والبَتَّار(٨) ، والحَتْف(٩) ، والعَضْب(١٠) ، والصَّمْصَامَة(١١) .

وأسماء قِسِيِّهِ السَّداد ، والكَتُوم ، والرَّوْحاءُ ، وشَوْحَط(١٢) .

وكِنانة سهامه اسمها الجُمْع(١٣) .

---

(١) فتح المبدى ٢/٣٠٨

(٢) العقاب طائر من كواسر الطير قوى المخالب حاد البصر

(٣) كان فى وسطه مثل فقرات الظهر

(٤) المخذم : القاطع

(٥) الذى يرسب ويستقر فى الضريبة

(٦) القضيب : القاطع

(٧) نسبة الى برج القلعة وهو موضع بالبادية

(٨) البتار : الشديد القطع

(٩) الحتف : الهلاك

(١٠) العضب : القاطع

(١١) الصمصامة : السيف الذى لا ينثنى

(١٢) السداد : المصيبة الموفقة . الكتوم : التى لا صدع ولا شق فى نبعها أو هى المنخفضة الصوت عند الرمى بها . الروحاء : موضع بين الحرمين على ثلاثين ميلا من المدينة . الشوحط : شجر بالجبال تتخذ منه القسى .

(١٣) الجمع : العظمة او المثقلة أو المستورة

وحربته اسمها النَّبْعة ، وله أُخرى يقال لها البيضاء ، وثالثة صغيرة تشبه العكاز يقال لها العَنزة .

ومجنُّه اسمه الدَّفْن [1] .

وتُرْسه اسمه الموجز ، وله آخر اسمه الزَّلُوق ، وثالث اسمه فُتُق [2]

ومن رماحه المُثْوى [3] والمُثْنَى [4] .

وأدراعه ذات الفُضول [5] ، والفِضَّة ، وذات الوِشاح ، وذات الحواشِي ، والسُّغْديّة أو السَّعْدية ، والبتْراءُ [6] ، والخِرْنِق [7] .

وأسماءُ أفراسه السَّكْب [8] ، وقد اشتراه من أعرابي وكان اسمه عند صاحبه الضَّرِس [9] فغير رسول الله اسمه ، واللِّزَاز [10] ، واللَّحِيف أو اللُّخَيْف (بالحاءِ والخاءِ [11]) والورد [12] ، والطِّرْف [13] ، وسَبْحة [14] .

---

(١) الدفن : الستر والاخفاء ، فلعل المراد أن المجن يستر صاحبه وفي السيرة الحلبية أنه الذقن كان له رأس معقوفة كالصولجان ، وفي القاموس أن الذقن مجتمع اللحيين من أسفلها

(٢) الزلوق : لأن السلاح ينزلق عنه . فتق : ضبط الكلمة مؤلف السيرة الحلبية بضم الفاء وفتح التاء ولم يشرحها ، وفي القاموس المحيط أن الفتق بضم الفاء والتاء موضع بالطائف .

(٣) لأنه يثوى المطعون به ويقيمه موضعه فلا يتحرك

(٤) أى المثنى عليه .

(٥) ذات الفضول : ذات الطول

(٦) البتراء : القصيرة .

(٧) الخرنق : الناعمة .

(٨) شبه بسكب الماء وانصبابه لشدة جريه

(٩) الضرس : الصعب السيء الخلق .

(١٠) اللزاز : الذى يلحق بالمطلوب لسرعته

(١١) اللحيف بالحاء على وزن أمير وزبير لأنه يلحف الأرض بذنبه لطوله أى يغطيها . وبالخاء الذى يجرى بشدة

(١٢) الورد : الذى لونه بين الكميت والأشقر

(١٣) الطرف : الكريم الجيد

(١٤) سبحة : سريع

وبغلته اسمها الشَّهْبَاءُ ، واسمها الدُّلْدُل ، وهى التى ركبها فى غزوة حنين [1] .

وناقته اسمها القصواء أو العطباء أو الجدعاء [2] .

وهكذا يتبين من تلك الأسماء ومن غيرها أن النبى لم يترك عدة من عدده الحربية إلا سماها [3] .

٦ ــ كذلك كان يحدب على خيله ويعزها ، حتى إنه مسح وجه فرسه ومِنْخَرَيْهِ وعينيه بكمِّ قميصه ، فقيل له ؛ يا رسول الله تمسح بكم قميصك ؟ فقال : إن جبريل عاتبنى فى الخيل .

وذُكر أنه فى غزوة تبوك قام إلى فرسه الطِّرْفَ فعلق عليه شَعيرة ، وجعل يمسح ظهره بردائه ، فقيل له يا رسول الله تمسح ظهره بردائك ؟ فقال : نعم ، وما يدريك لعل جبريل أمرنى بذلك .

وقال : الخيل معقود بنواصيها الخير .

وكان يُضَمِّرُ الخيل للسباق ، ويأمر بإجرائها كل يوم شوطاً وشَوْطين [4] .

الغاية منها

وأما الغاية من شجاعته فإنها أعلاءُ كلمة الله ، والدفاع عن التوحيد الخالص ، وحماية الإسلام من عدوان المشركين ، وتحرير الناس من أغلال

---

(١) السيرة الحلبية ١٢٤/٣ الشهباء : بيضاء مسودة . الدلدلة : تحريك الرأس والأعضاء فى المشى .

(٢) القصواء : التى تطع نليل من طرف أذنها . العضباء : التى شقت أذنها . الجدعاء : التى قطعت أذنها . وهذه ألقاب لناقة رسول الله ولم تكن قصواء ولا عضباء ولا جدعاء (القاموس المحيط مادة جدع ، وفتح المبدى ٣٠٩/٢

(٣) السيرة الحلبية ٣٦٦/٣ وتاريخ الطبرى ١٨٢/٣ والاحياء وهامشه ٣٢٤/٢ ، والقاموس المحيط .

(٤) السيرة الحلبية ٣٦٨/٣ .

الوثنية ، وأوهاق الاستعباد ، وأصفاد الفساد ، ومخازى العقائد والنظم ، ومفاسد الأخلاق ، لتحل محلها أسمى عقيدة وأصلح نظام فى السياسة والإدارة والمعاملات والاجتماع .

كانت شجاعة رسول الله بالحق وفى نصرة الحق ، فلم تلبس لبوس الغرور أو الكبرياء أو المباهاة أو الاستعلاء ، ولم يتصل بها جبروت أو شَرَهٌ إلى التوسع ، أو طمع فى سلطان أو استيلاء .

جاء رجل إلى النبي فقال : يا رسول الله ما القتال فى سبيل الله ، فإن أحدنا يقاتل غَضَباً ويقاتل حَمِية ؟ فقال : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله(1) .

وأتى إليه أعرابى فقال : يا رسول الله ، الرجل يقاتل حمية ، والرجل يقاتل شجاعة ، والرجل يقاتل ليرى مكانه فى سبيل الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله(2) .

فلم تكن الشجاعة التى اتصف بها النبى ، والتى حرض عليها ، وأقرها وامتدحها ، شجاعة القوى المقدام المُدِلّ بقوته ، المفاخر بها بين الناس ، ولا شجاعة الثائر المهتاج الذى أشعله الغضب لغير حق ، بل كانت الشجاعة المثلى التى لا تتوخى غير إعزاز دين الله ، وإعلاء كلمته ، والذود عن محارمه ، والدفاع عن الحقوق التى صانتها الشريعة وحمتها ، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم : من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد(3) .

---

(1) فتح المبدى ١/١١٩

(2) الاحياء ٤/٣٢٩

(3) فتح المبدى ٢/٢٤٠

وكانت الغاية النبيلة تقضى بأن تكون الوسائل نبيلة ، فقد عرض عليه الانتصار بالمشركين على المشركين ، وهو فى قلة من الأعوان وحاجة إلى فرد واحد يزيد عدد من معه ، فأبى ، وقال : لا أنتصر بمشرك [1] .

الاشادة بشجاعته

لقد كان المسلمون يُعْجَبون بشجاعة رسول الله إعجاباً يصغر فى عيونهم شجاعتهم ، ويهوّن بسالتهم .

يقول الإمام علىٌّ : كنا إذا حمىَ البأس اتقينا برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو .

ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى ، وهو أقربنا إلى العدو ، فكان يومئذ أشدنا بأساً [2] .

ويقول أنس بن مالك : كان النبى أشجع الناس ، فزع أهل المدينة ليلة ، فانطلق بعضهم نحو الصوت ، يريدون أن يتعرفوا الخبر ، فإذا النبى عائد على فرس ما عليه سرج ، وفى عنقه سيفه ، وكان قد سبقهم إلى الخروج فعرف الصوت ، فلما قابلهم قال لهم : لن تُرَاعوا ، ان تراعُوا [3] .

وقال عبد الله بن عمر : ما رأيت أنجد ولا أجود ولا أشجع ولا أرمى من رسول الله .

وقال عِمرانُ بن حُصَيْن : ما لقى رسول الله كتيبة إلا كان أول من يضرب .

---

(١) الاحياء ٣١٦/٢
(٢) الاحياء ٣٣٨/٢
(٣) تاريخ الطبرى ١٨٦/٣

وقال البراء : كان رسول الله إذا تشمر للقتال أشد الناس بأساً ، وكان الشجاع منا هو الذى يقترب منه فى الحرب ، لشدة قربه من العدو[1] .

حضه على الشجاعة

كان النبى قدوة المسلمين فى شجاعته الحربية وغير الحربية ، وكان يحضهم على الشجاعة ، ويحببها إليهم بأقواله ، ويوضح لهم الغاية النبيلة التى يجب أن يتوخوها فى جهادهم ، وله فى هذا المجال أحاديث كثيرة ، منها :

١ – من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون دينه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد[2] .

٢ – أفضل الجهاد كلمة حق عند سلطان جائر[3] .

٣ – إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أو شك أن يعمهم الله بعقاب منه[4] .

٤ – قيل : يا رسول الله أى الناس أفضل ؟ فقال رسول الله : مؤمن يجاهد فى سبيل الله بنفسه وماله[5] .

٥ – مثل المجاهد فى سبيل الله – الله أعلم بمن يجاهد فى سبيله –

---

(١) الاحياء ٣٢٨/٢

(٢) فتح المبدى ٢٤٠/٢ والجامع الصغير ٣٨٧/٢

(٣) الجامع الصغير ١٦١/١ والاحياء ٣٠٠/٢

(٤) الجامع الصغير ٢١٤/١

(٥) فتح المبدى ٢٦٢/٢

كمثل الصائم القائم ، وَتَوكّل الله للمجاهد فى سبيله بأن يتوفاه أن يدخله الجنة أو يرجعه سالماً مع أجر أو غنيمة (١) !.

٦ ـ إن فى الجنة مئة درجة أعدها الله تعالى للمجاهدين فى سبيل الله ، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض (٢) .

٧ ـ لَغَدْوَةٌ فى سبيل الله أو رَوْحَةٌ خير من الدنيا وما فيها (٣) .

٨ ـ والذى نفسى بيده لا يُكْلَمُ أحد فى سبيل الله ـ والله أعلم بمن يكلم فى سبيله ـ إلا جاء يوم القيامة وجرحه يَثْعَبُ دماً . اللون لون الدم ، والريح ريح المسك (٤) .

٩ ـ جاء رجل إلى النبى فقال : الرجل يقاتل للمغنم ، والرجل يقاتل للذكر ، والرجل يقاتل ليرى مكانه ، فمن فى سبيل الله ؟

قال : من قاتل لتكون كلمة الله هىَ العليا فهو فى سبيل الله .

١٠ ـ ألا إن القوة الرمى ، ألا إن القوة الرمى .

١١ ـ لا يَعجِزَنَّ أحدكم أن يلهو بأسهمه : من ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه فإنها نعمة كفرها .

١٢ ـ لولا أن أشق على أمتى ما قعدت خلف سَرِيَّة . ولوددت أن أُقتل فى سبيل الله ، ثم أحيا ، ثم أُقتل (٥) .

---

(١) فتح المبدى ٢٩٣/٢ أى مثل الصائم نهاره القائم ليله ، وتوكل الله أى تكفله .

(٢) فتح المبدى ٢٩٤/٢

(٣) فتح المبدى ٢٩٤/٢

(٤) فتح المبدى ٢٩٧/٢ لا يكلم: لايجرح . والله أعلم بعظم شأن من يجرح فى سبيله ، أو هو تتميم للصيانة عن الرياء والسمعة وتنبيه على الاخلاص فى الجهاد ، وأن الثواب لمن أخلص فيه وقاتل لتكون كلمة الله هى العليا .

يثعب : يجرى

(٥) فتح المبدى ٦٦/١

١٣ - إنما الأعمال بالنيات ، وإنما لكل امرئ ما نوى ، فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ، ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها ، أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه [١] .

١٤ - قال فى يوم بدر : والذى نفس محمد بيده لا يقاتلهم اليوم رجل فيقتل صابرا محتسباً مقبلا غير مدبر إلا أدخله الله الجنة [٢] .

١٥ - مَنْ أَحْسَنَ الرمى ثم تركه فقد ترك نعمة من النعم [٣] .

١٦ - لا يكن أحدكم إمَّعَة ، يقول : أنا مع الناس ، إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تحسنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم [٤] .

---

(١) فتح المبدى ١/١٢ وكنز العمال ٢/٨٧

(٢) تاريخ الطبرى ٢/٢٨١

(٣) الجامع الصغير ٢/٣٤٢

(٤) تيسير الوصول ٣/٢٧٨ الامعة : الذى لا رأى له

الفصل الرابع

الكـــرم

الكرم والجود والسخاء: الإنفاق عن رضا فيما يعظم نفعه وخطره، أو بذل المال فى سبيل من سبل الخير والبرّ.

وقد ذكر القاضى عِياض أن هذه الألفاظ متقاربة المعانى، وقال إن بعضهم فرق بينها، فجعلوا الكرم الإنفاق بطيب النفس، وسموه حرية، وهو ضد النذالة، وإن السخاء سهولة الإنفاق، وتجنب اكتساب ما لا يحمد، وهو الجود، وهو ضد التقتير، وإن السماحة التجافى عما يستحقه المرءُ عند غيره بطيب نفس، وهى ضد الشكاية[1].

ولكن هذه تفرقة فيها تعسف وتكلف، لأن اللغة لا تقرها[2].

وقد كان الكرم من سجايا النبىّ عليه الصلاة والسلام فطرةً وتربيةً إلهية وتوجيهاً من القرآن، إذ كان الكرم – بمعنى البذل فى سبيل الخير والحق – وما زال وسيلة من وسائل القوة والتعاون والتواد والأمن والصلاح.

لهذا تردد الأمر بالبذل والنهى عن البخل فى القرآن الكريم.

فمن حض القرآن الكريم على البذل فى سبيل الله قوله تعالى: «مَنْ

(١) الشفا ١/٨٥.

(٢) المعاجم اللغوية على ان الكرم والجود والسخاء معانيها واحدة.

ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضًا حسَنًا فَيُضَاعِفَه له أَضْعافاً كثيرةً ، واللهُ يَقْبِض ويَبْصُطُ وإليه تُرْجَعُون (١) » .

وقوله سبحانه : «يأَيها الذِّينَ آمَنُوا أَنفِقُوا مما رزقناكم مِنْ قَبْلِ أَن يَأْتِىَ يومٌ لا بيعٌ فيه ولا خُلَّةٌ ولا شفاعةٌ والكافرون هم الظالمون (٢) » .

وقوله سبحانه : «مثَلُ الذِّينَ يُنْفِقُونَ أَمْوالَهُمْ فى سبيلِ اللهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبتَتْ سبْع سَنابلَ ، فى كل سُنْبُلَةٍ مائةُ حَبَّة ، واللهُ يُضاعفُ لمن يَشاءُ واللهٌ واسعٌ عليمٌ (٣) » .

وقوله تعالى : «لَنْ تَنالوا البِرَّ حتى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ ، وما تُنْفِقوا من شىءٍ فإن اللهَ بِهِ عليم (٤) » .

وقوله سبحانه : «إنْ تُقْرِضُوا اللهَ قَرْضًا حسَنًا يضاعفْه لكم وَيَغْفِرْ لكم واللهُ شكورٌ حَليمٌ (٥) » .

ومن نهى القرآن عن البخل ووعيده للأشحَّاء عن الإنفاق فى سبيل الله قوله تعالى : «ولَا يَحْسَبَنَّ الذين يَبْخَلُونَ بما ءَاتاهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ هو خيرًا لهم بل هو شرٌ لهم ، سيُطوَّقُونَ ما بَخِلُوا به يَوْمَ القِيامةِ (٦) » .

وقوله سبحانه : «والذينَ يكْنِزُونَ الذَّهَبَ والفضَّةَ ولا يُنْفقونها فى سبيلِ الله فبَشِّرْهُمْ بعذابٍ أَليم ، يوم يُحْمَى عليها فى نَارِ جَهنمَ فَتُكْوَى

---

(١) سورة البقرة ٢٤٥
(٢) سورة البقرة ٢٥٤ خلة : صداقة
(٣) سورة البقرة ٢٦١
(٤) سورة آل عمران ٩٢
(٥) سورة التغابن ١٧ .
(٦) سورة آل عمران ١٨٠

بها جِباهُهُمْ وجُنُوبهم وظُهُورُهُمْ ، هذا ما كَنَزْتُمْ لأَنفُسكمْ ، فذُوقوا ما كنتم تكنِزُونَ[1] » .

وقوله تعالى : «وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نفسِهِ فأُولئك هُمُ المُفْلِحُونَ[2] » .

خصائص كرمه

لم يُشْغَف العرب فى الجاهلية والإسلام بأكثر من شغفهم بالشجاعة والكرم ، فكان الأُمراءُ والملوك أشد ما يكونون حرصاً على أن يذيع فى الناس كرمهم وشجاعتهم ، وكان شعراؤُهم يشيدون بفَعالهم ، ويختصون هاتين الفضيلتين بالتنويه ، محقين حيناً ، ومبطلين حيناً ، ومبالغين أحياناً .

ولم ينفر العرب فى الجاهلية والإسلام من نقائص نفورهم من الجبن والبخل ، ولم يعير خصم خصمه بأقبح من هاتين الرذيلتين ، حتى لقد تجنى بعض الشعراء على خصومهم ، فعيروهم بالجبن والبخل ، وهم فى الحقيقة أصحاب بلاءٍ وسخاءٍ .

لكن كرم النبى عليه الصلاة والسلام كان لوناً آخر جديدا لم يعرفه العرب ، ولم يأْلفه غيرهم .

١ ـ فلم يكن جوده لكسب مَحْمَدةٍ أو اتقاء مَنْقَصة ، ولم يكن للمباهاة أو الاستغلال أو لاجتذاب المادحين ، بل كان فى سبيل الله ، وابتغاء مرضاة الله .

---

(١) سورة التوبة ٣٤-٣٥

(٢) سورة الحشر ٩

كان فى حماية الدين ، وفى موازرة الدعوة ، وفى محاربة الذين يصدون عن سبيل الله .

وكان فى الإنفاق على الفقراء من المسلمين الذين فقدوا أموالهم فى سبيل الله ، أو عجزوا عن الكسب .

وكان فى رعاية اليتامى والأيامى .

وكان فى تحرير الأرقاء الذين كاتبوا مالكيهم على مال .

وكان فى اجتذاب من يرى تألف قلوبهم من غير المسلمين ، ليتقوى باجتذابهم الإسلام .

٢ ـ وكان كرم النبى إيثارا على نفسه وأهله ، فهو يعطى أحوج ما يكون إلى ما يعطيه ، ويبذل الكثير وهو محتاج إلى القليل ، لأنه يستطيع أن يصبر ، ولأنه يحيا حياة الزهاد ، ولأنه الملاذ الرفيق و الأب الشفيق الذى تشغله حاجات بنيه أضعاف ما تشغله حاجات نفسه .

وهذه هى الدرجة العليا من الكرم التى امتدحها الله تعالى فى قوله : « ويُؤْثِرُونَ على أَنْفُسِهِمْ ولو كانَ بِهِم خَصَاصة [1] » .

لهذا قالت السيدة عائشة : ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثة أيام متوالية حتى فارق الدنيا ، ولو شئنا لشبعنا ، ولكن كنا نؤثر على أنفسنا [2] .

وسنعرف فى فصل (الزهد) أنه كان يؤثر على نفسه وأولاده ، فيعطى عطاء يعجز عنه الملوك ، ويعيش هو عيشة الفقراء ، فيأتى عليه الشهر

---

(١) سورة الحشر ٩ خصاصة : حاجة شديدة
(٢) الاحياء ٢/٢٢٣

والشهران لا يوقد فى بيته نار ، وربما ربط الحَجَر على بطنه الشريف من الجوع[1] .

٣ ـ وكان ينفق فى سبيل الله ما استطاع أن ينفق ، وهو يستقل ما أنفق ، وكان يعطى العطاء الجزل ، فلا يستكثر ما أعطى ، وما سئل عن شئ قط على الإسلام إلا أعطاه ، وما سئل شيئاً قط فقال لا .

أتاه رجل فسأله ، فأعطاه غنماً سَدَّتْ ما بين جبلين ، فرجع إلى قومه وقال : : أَسْلِمُوا فإن محمدا يعطى عطاء من لا يخشى الفاقة .

وحمل إليه تسعون ألف درهم ، فوضعها على حصير ، ثم قام إليها فقسمها ، فما رد سائلا حتى فرغ منها .

ولما قفل من حُنَيْن جاءه الأعراب يسألونه ، حتى اضطروه إلى شجرة ، فخطفت رداءه ، فوقف وقال : أعطونى ردائى ، لو كان لى عدد هذه العِضاه[2] نَعَمًا لقسمتها بينكم ، ثم لا تجدونى بخيلا ولا كذاباً ولا جباناً[3] .

وأُتى بمالٍ من البحْرَيْنِ ، فقال : انثروه فى المسجد ، وكان أكثرَ مال أُتِيَ بِه ، فخرج إلى الصلاة ، ولم يلتفت إليه ، فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فما كان يرى أحدا إلا أعطاه وما قام وثَمَّ منها درهم[4] .

٤ ـ وبلغ به الكرم أنه كان يستحيي أن يرد سائله خالى اليدين معتذرا بالفاقة .

---

(١) شرح الزرقانى ٣٠٢/٤

(٢) العضاه : شجر شائك كثير فى الصحراء .

(٣) فتح المبدى ٣٣٩/٢ والاحياء ٢٣٧/٢ وصحيح مسلم ٧٢/١٥

(٤) فتح المبدى ١٩٨/١ .

جاءه رجل فسأله ، فقال : ما عندى شىءٌ ، ولكن ابْتَعْ علىَّ ، فإذا جاءنا شىء قضيناه.

فقال عمر بن الخطاب ، يا رسول الله ، قد أعطيته من قبل ، فما كلفك الله مالًا تقدر عليه .

فكره النبي ذلك ، فقال رجل من الأَنصار : يا رسول الله : أنفق ، ولا تخش من ذى العرشِ إقْلالا ، فتبسم النبّى ، وعُرِفَ البِشْرُ فى وجهه ، ثم قال : بهذا أُمِرْتُ [1] .

مظاهر كرمه

تعددت مظاهر هذا الكرم فى ألوان ومناسبات شتّى ، منها ما سبق فى خصائصه ، ومنها :

١ ــ قال جابر : بينما رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس أتاه صبى ، فقال : إن أُمى تَسْتَكْسيك دِرْعا [2] ، فقال رسول الله ، من ساعة إلى ساعة يظهر ، فعُدْ إلينا .

فذهب الصبى إلى أُمه فقالت له : عد إليه ، فقل له إن أُمى تستكسيك الدِّرْع الذى عليك .

فدخل رسول الله داره ، ونزع قميصه ، وأعطاه الصبى ، وقعد عُرياناً ، وأَذَّنَ بلال ، وانتظر المسلمون ، فلم يخرج النبي للصلاة [3] .

---

(١) المواهب اللدنية ٢٠٩ ، والاحياء ٢/٣٢٧ .

(٢) الدرع : القميص .

(٣) الكشاف ١/٥٤٦ .

٢ ـ أتته امرأة ببُردة فقالت : يا رسول الله ، أكسوك هذه ، فأخذها وهو محتاج إليها فلبسها ، فرآها عليه رجل من الصحابة ، فقال : يا رسول الله ، ما أحسن هذه ، فاكْسُنيها ، فقال : نعم .

فلما قام النبي لام الصحابة الرجل ، وقالوا له : إنك تعرف أن النبي محتاج إليها ، وأنه لا يُسْأَل شيئاً فيمنعه .

٣ ـ أعطى الأقرع بن حابس مئة من الإبل ، وأعطى عُيَيْنَةَ بن حِصْنٍ مثلها ، فجاء عباس بن مِرْداس فقال :

أتجعل نهبي ونَهْبَ العُبَيْـ ـد بين عُيَيْنَةَ والأَقْرَعِ[1]

وما كان حِصْنٌ ولا حابسٌ يفُوقَان جَدِّى فى مَجْمَع

وما كنتُ دون امرىءٍ منهما ومن تَضَعِ اليوم لا يُرْفَع

فقال رسول الله : يا أبا بكر اقطع لسانه عنّي ، أعطه مئة من الإبل[2] .

٤ ـ فى مسيرة رسول الله إلى نجد يريد بنى مُحارب وبنى ثَعْلَبة من غَطَفان ، حَدَّثَ جابر بن عبد الله قال : خرجت مع رسول الله على جمل لى ضعيف ، فلما عدنا جعلت الرفاق تمضى وجعلت أتخلف ، حتى أدركنى رسول الله فقال : مالك يا جابر ؟ قلت : يا رسول الله أبطأ بى جملى هذا ، قال : أَنِخْهُ ، فأنخته وأناخ رسول الله ناقته ، ثم قال : أعطنى هذه العصا من يدك ، ففعلت ، فأخذها فنخس الجمل بها نَخَسات ، ثم قال : اركب ، فركبت ، فصار جملى يسابق ناقة الرسول .

وتحدثت معه فقال لى : أتبيعنى جملك هذا يا جابر ؟ قلت : يا رسول

---

(١) النهب : المراد الغنيمة . العبيد : اسم فرسه .

(٢) الكشاف ١/٤٢٦ه

الله ، بل أَهَبُهُ لك ، قال : لا ، ولكن بعنيه ، فقلت : سُمْهُ يا رسول الله ، قال : بِدرْهَم ٍ ، قلتُ : لا ، إذن تغبنني يا رسول الله ، قال : بدرهمين : قلت : لا ، فلم يزل يرفع لى فى ثمنه حتى بلغ الأُوقية ، فقلت : أفقد رضيتَ يا رسول الله ؟ قال : نعم ، قلت : فهو لك ، قال : قد أخذته .

ثم أصبحت فأنخت الجمل على باب رسول الله ، وجلست فى المسجد قريباً منه ، فخرج فرأى الجمل ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : هذا جمل جاء به جابر ، قال : فأين جابر ؟ فَدُعِيتُ له فقال : يا بن أخيّ ، خذ جملك فهو لك ، ودعا بلالا فقال له : أعط جابرا أُوقية ، فذهبت معه فأعطانى أُوقية وزادنى شيئاً يسيرا [1] .

٥ ـ قالت الربيعُ بنت مُعوِّذ : أتيت النبيبقِناعٍ [2] من رُطَب وأجْرٍ زُغْبٍ [3] ، فأعطانى ملء كفه حُلِيًّا وذهباً .

وذلك أنه كما قالت السيدة عائشة كان يقبل الهدية ويثيب عليها [4] .

٦ ـ كان أحب الطعام إليه ما كان على ضَفَف ، أى ما كثرت عليه الأيدى [5] .

٧ ـ وكان فى شهر رمضان كالريح المرسلة ، لا يمسك شيئاً .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٦٧/٣

(٢) قناع : طبق من عسب النخل توضع فيه الفاكهة

(٣) اجر : جمع جرو وهو الكلب الصغير ، شبهت بها القثاء الصغيرة فى لينها ونعومتها زغب : عليها زغب وهو الشعر القصير .

(٤) المواهب اللدنية ٢١٠ ، والشفا ٨٧/١

(٥) الاحياء ٢٢٦/٢

وقد وصفه على بن أبي طالب بقوله : كان أجود الناس كفاً[1] .

٨ ـ تعددت مظاهر كرمه حتى قبل البعثة ، قالت السيدة خديجة : إنك لتصل الرَّحِم ، وتحمل الكَلَّ ، وتكسب المُعْدِم ، وتَقْرِى الضيف ، وتُعين على نوائب الحق[2] .

حضه على الكرم

لطالما حض النبي على الكرم بمعناه الذى يرتضيه الإسلام ، من بذل في تقوية الجيش ، أو فى الدفاع عن الدعوة ، أو فى البر بالفقراء .

من هذا قوله :

١ ـ قال رجل للنبي أى الصدقة أفضل ؟ قال : أن تتصدق وأنت صحيح حريص ، تأمل الغِنى وتخشى الفقر ، ولا تمهل حتى إذا بلغت الحُلْقُومَ قلت : لفلان كذا ، ولفلان كذا ، وقد كان لفلان[3] .

٢ ـ سأل رجل النبي : أىُّ الإسلام خير ؟ ـ يريد أن يعرف أى خصال الإسلام خير ـ فقال له : تطعم الطعام ، وتقرأ السلام على من عرفت ومن لم تعرف[4] .

٣ ـ عَدَّ من السبعة الذين يظلهم الله فى ظله يوم القيامة رجلا تصدق فأخفى ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه[5] .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢/٤٢ ، والاحياء ٢/٢٣٧ .
(٢) الشفا ١/١٠٠
(٣) فتح المبدى ٢/٢٨٩
(٤) فتح المبدى ١/٤٩
(٥) اللؤلؤ والمرجان ١/٢٤٥

٤ – قال لأسماء بنت أبي بكر : أنفقي ولا تُحْصِي فيُحْصِي الله عليك ، ولا تُوعِي فيوعِيَ الله عليك[1] .

٥ – السخيُّ قريب من الله ، قريب من الناس ، قريب من الجنة ، والبخيل بعيد من الله ، بعيد من الناس ، بعيد من الجنة ، قريب من النار[2] .

٦ – ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان ، فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقاً خلفًا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكاً تلفا[3] .

٧ – عن أبي سعيد الخُدْرِيِّ : بينما نحن مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في سفر إذ جاءه رجل على ناقة له ، فجعل يَصْرِفها يميناً وشمالا ، فقال رسول الله : من كان عنده فَضْلُ ظهر فليَعُدْ به على من لا ظهر له ، ومن كان عنده فَضْلُ زادٍ فليعُد به على من لا زادَ له ، حتى ظننا أنه لا حق لأحد منا في الفَضْل[4] .

٨ – إياكم والشُّحَّ ، فإنه أهلك من كان قبلكم ، حملهم على أن سفكوا دماءهم ، واستحلوا محارمهم[5] .

٩ – إياكمَ والشح فإنما أهلك من كان قبلكم الشح ، أمرهم بالكذب فكذبوا ، وأمرهم بالظلم فظلموا ، وأمرهم بالقطيعة فقطعوا[6] .

١٠ – من كان يؤْمنُ بالله واليوم الآخر فلا يؤْذِ جاره ، ومن كان

---

(١) اللؤلؤ والمرجان ٢٤٤/١

(٢) تيسير الوصول ٨٨/٢

(٣) صحيح مسلم ٩٥/٧

(٤) تيسير الوصول ٩١/٢ والمنتخب من السنة ٢٢٤/٧ عن مسلم ومسند احمد .

(٥) الاحياء ٢١٨/٣

(٦) الاحياء ٢١٨/٣

يؤمنُ بالله واليوم الاخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليَصْمتْ (١) .

١١ ـ اصنع المعروف إلى من هو أهله وإلى من ليس من أهله ؛ فإن أصبت أهله فقد أصبت أهله ، وإن لم تصب أهله فأنت من أهله (٢) .

١٢ ـ إن الله تعالى يبغض البخيل فى حياته السخىَ عند موته (٣) .

١٣ ـ تَعِسَ عبد الدينار ، تعس عبد الدرهم (٤) .

١٤ ـ العائد فى هبته كالكلب يقِىءُ ، ثم يعود فى قَيْئه (٥) .

١٥ ـ إذا طبختم اللحم فأكثروا المرق ، فإنه أوسع وأبلغ للجيران (٦) .

١٦ ـ شر الطعام طعام الوليمة يُمْنَعُها من يأتيها ، ويُدْعى إليها من يأباها (٧) .

١٧ ـ شر الطعام طعام الوليمة يُدْعَى إليها الشبعان ، ويحبس عنها الجائع (٨) .

١٨ ـ ليس المؤمن بالذى يشبع وجاره جائع إلى جنبه (٩) .

١٩ ـ قال عوف بن مالك : قلت يا رسول الله : الرجل أمرُّ به فلا يَقْرِينى ، ثم يمر بى ، أفأجازيه ؟

قال : بل أقْره (١٠) .

---

(١) فتح المبدى ٣٠٤/٣
(٢) الاحياء ٢١٣/٢
(٣) كنز العمال ٩٢/٢
(٤) الاحياء ٢٠٣/٢
(٥) فتح المبدى ٢٥٦/٢
(٦) الجامع الصغير ٧٤/١
(٧) الجامع ٣٠/٢
(٨) الجامع ٣٠/٢
(٩) الجامع الصغير ٢٧٥/٢
(١٠) تيسير الوصول ٢٨٩/٢ يقرينى : يضيفنى ويكرمنى

الفصل الخامس

العـــدل

ما العدل

عرف العدل ابن مسكويه بأنه فضيلة للنفس تحدث من اجتماع الفضائل الثلاث : الحكمة والعفة والشجاعة ، وذلك عند مسالمة هذه القوى بعضها لبعض ، واستسلامها للقوة المميزة ، حتى لا تتغالب ولا تتحرك نحو مطالبها على سوم طبائعها ، ويحدث للإنسان بها سمة يختار بها أبدا الإنصاف من نفسه على نفسه أولا ، ثم الإنصاف والانتصاف من غيره وله [1] .

والمراد بالعدل هنا إعطاء كل ذى حق حقه بغير تفرقة بين المستحقين ، ومؤاخذة المسىء أو المقصر على قدر إساءته وتقصيره بدون إعنات أو محاباة.

وقد أمر الله سبحانه وتعالى بالعدل فى كثير من الآيات : مثل قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ يأْمُرُكُمْ أن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إلى أهلها ، وإذا حكمْتُمْ بَيْنَ النَّاسِ أَنْ تَحْكُمُوا بالْعَدْلِ ، إنَّ الله نِعِمَّا يعظكُمْ به ، إنَّ الله كانَ سميعًا بصيرا » [2] .

وأمر بالعدل حتى مع الأعداء ، ونهى عن الظلم خضوعاً للبغضاء ،

(١) تهذيب الاخلاق ١٥ لابن مسكويه .
(٢) سورة النساء ٥٨

فقال سبحانه : «يٰأيها الذين آمنوا كونوا قوّامين لله شهداء بالقسط ، ولا يجرمنّكم شنآن قوم على ألّا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى ، واتّقوا الله إنّ الله خبير بما تعملون» [١] .

وأمر بالعدل بين أهل الكتاب إذا تحاكموا إلى المسلمين ، قال تعالى : «وإنْ حكمتَ فاحكم بينهم بالقسط ، إن الله يحب المقسطين» . إلى قوله تعالى : «وأنزلنا إليك الكتابَ بالحقّ مصدّقًا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنًا عليه . فاحكم بينهم بما أنزلَ اللهُ ، ولا تتّبعْ أهواءهم عمّا جاءك من الحقّ» [٢] .

مظاهره

استقى النبي العدل من التربية الإلهية والأخلاق القرآنية ، وكانت فطرته السليمة مهيأة للعدل منذ شبابه ، فقد اشترك فى حلف تعاهد أصحابه على مقاومة الظلم وإنصاف المظلومين .

وذلك أن قبائل من قريش[٣] تداعت إلى حلف الفُضول [٤] قبل البعثة بعشرين سنة ، وتعاهدوا على ألا يجدوا بمكة مظلوماً إلا قاموا معه وناصروه على ظالمه حتى ينصفوه .

وقد شهد النبي هذا الحِلْفَ ، وقال : لقد شهدت فى دار عبد الله بن جُدْعَانَ حِلْفاً ما أُحِبُّ أن لى به حُمْرَ النَّعَم [٥] ، ولو أُدْعَى به فى الإسلام لأجبت [٦] .

---

(١) سورة المائدة ٨ لايجرمنكم شنآن قوم : لايحملنكم بغضكم لهم

(٢) سورة المائدة ٤٢-٤٨

(٣) من بنى هاشم وبنى المطلب وأسد بن عبد العزى وزهرة بن كلاب وتيم بن مرة .

(٤) سموه بذلك لأنهم تعاهدوا على أن يردوا الفضول على أهلها .

(٥) أى لا أحب نقضه وان دفع لى أجود الابل فى مقابل نقضه .

(٦) سيرة ابن هشام ١٤١/١ .

ثم إن النبى هو المبلغ للشريعة ، والمهيمن عليها ، والمنفذ لها : وهو القاضى الأول الذى يطمئن المسلمون إلى أحكامه ، ويقتدون بها ، فمن يعدل إذا هو لم يعدل ؟

أما مظاهر عدله فإنها متعددة متنوعة ، منها :

١ ـ لما نزل قوله تعالى : «وَأَنْذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ» (١) ناداهم بطناً بعد بطن فقال : يا معشر قريش . اشتروا أنفسكم ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً .

يا بنى عبدمَناف ، لا أغنى عنكم من الله شيئاً .

يا عباس بن عبد المطلب ، لا أغنى عنك من الله شيئاً .

يا صفية عمة رسول الله ، لا أغنى عنك من الله شيئاً .

يا فاطمة بنت محمد سلينى ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئاً (٢) .

٢ ـ بعد غزوة حُنَين وَردَّ السبايا ، أخذ الناس يقولون : يا رسول الله اقسم علينا فيئنا من الإبل والغنم ، حَتَّى ألجأُوه إلى شجرة فاختطفت رداءه ، فقال : ردوا علىّ ردائِى أيها الناس ، فوالله لو كان لكم بعدد شجر تهامة نَعمٌ لقسمته عليكم ، ثم ما ألفيتمونى بخيلا ولا جباناً ولا كذاباً .

ثم قام إلى جنب بعير ، فأخذ وَبرةً من سنامه ، فجعلها بين إصبعيه ، ثم رفعها وقال : أيها النَّاسُ ، والله ما لى من فيئكم ولا هذه الوبرة إلا

---

(١) سورة الشعراء ٢١٤

(٢) فتح المبدى ٢/٢٩٠ والاحياء ٣/٣٢١

الخمس ، والخمس مردود عليكم ، فأدوا الخِياط [1] والمِخْيط [2] فإن الغُلول [3] يكون على أهله عارا ونارا وشنارا يوم القيامة .

فجاء رجل من الأنصار بكُبَّة من خيوط شعر ، فقال : يا رسول الله ، أخذت هذه الكبة لأعمل بها برذعة لبعيرى ، فقال : أما نصيبى منها فلك ، فقال الرجل : أما إذْ بلغتَ هذا فلا حاجة لى بها ، وطرحها من يده .

وكان عَقِيل بن أبى طالب قد دخل على امرأته وسيفه متلطخ دماً ، فقالت : إنى عرفت أنك قد قاتلت ، فماذا أصبت من غنائم المشركين ؟ فقال : دونك هذه الإبرة تخيطين بها ثيابك ، فدفعها إليها ، فسمع منادى رسول الله يقول : من أخذ شيئاً فليرده ، حتى الخِياط والمِخْيط ، فرجع عَقِيل فقال : ما أرى إبرتك إلا قد ذهبت ، فأخذها فألقاها فى الغنائم [4] .

٣ – وجد من خِيار أصحابه قتيلا بين اليهود – هو عبد الله بن سهل الأنصارى – فلم يَجُرْ على اليهود فى تقدير الدية ، ولم يزد على الحق والعدل ، بل طلب ديته مئة ناقة ، كما كان العرب يفعلون ، فى الوقت الذى كان أصحابه فى حاجة إلى بعير واحد يتقوون به [5] .

٤ – كان يصل ذوى رحمه من غير أن يؤْثرهم على من هم أحق منهم ، فكان يجل العباس إجلال الوالد والوالدة [6] ، ولكنه لم يفضله فى عطاء ..

---

(١) الخياط : الخيط

(٢) المخيط : الابرة

(٣) الغلول : الخيانة

(٤) سيرة ابن هشام ١٣٤/٤

(٥) الاحياء ٢١٦/٢

(٦) الاحياء وهامشه ٢١٩/٢

٥ ـ شكت إليه ابنته فاطمة ما تلقى من مشقات فى أعمالها بمنزلها، وطلبت منه خادماً من السّبي يكفيها مئونة العمل ، . فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد ، وقال لها : لا أعطيك وأدع أهل الصُّفَّة تُطْوَى بطونهم من الجوع .

فآثر عليها فقراءُ المهاجرين الذين كانوا يقيمون بسقيفة المسجد ، وليس لهم مرتزق (١) .

٦ ـ كان يُعدِّلُ صفوف أصحابه يوم بدر ، وفى يده قِدْحٌ يعدل به القوم ، فمر بسواد بن غزيّة وهو نائىٌ من الصف ، فطعن فى بطنه بالْقِدْح ، وقال : استويا سواد ، فقال : يا رسول الله أوجعتنى ، وقد بعثك الله بالحق ، فأَقِدْنى (٢) .

فكشف رسول الله عن بطنه ، وقال : اسْتقِدْ يا سواد .

فعانقه سواد ، وقبل بطنه ، فقال الرسول : ما حملك على هذا يا سواد ؟ قال : يا رسول الله حضر ما ترى ، فلم آمن القتل ، فأردت أن يكون آخر العهد بك أن يمس جلدى جلدك ، فدعا له رسول الله بخير (٣) .

٧ ـ قال النعمان بن بشير : أعطانى أبى عطِيَّةً ، فقالت عَمْرَةُ بنتُ رواحة ، لا أرضى حتَىَ تُشْهِد رسول الله ، فأتى رسول الله فقال : إنى أعطيت ابنىَ من عَمْرَةَ بنت رَواحة عطية ، فأمرتنَى أن أُشهدك يا رسول الله .

قال الرسول : أعطيت سائر ولدك مثل هذا ؟

---

(١) شرح الزرقانى ٣٠٢/٤

(٢) أقدنى : دعنى اقتص منك .

(٣) سيرة ابن هشام ٢٧٨/٢ وتاريخ الطبرى ٢٨٠/٢

قال النعمان : لا . قال الرسول : فاتقوا الله واعدلوا بين أولادكم ، فرجع أبي فرد عطيته [1] .

٨ ـ استأذن رجال من الأنصار رسول الله أن يأذن لهم ليتركوا لعمه العباس ابن أختهم المال الذى يفتدي به نفسه من الأسر يوم بدر ، فقال عليه الصلاة والسلام : لا تدعوا منه درهماً .

وذكر ابن إسحاق وغيره أن النبي قال : يا عباس افْد نفسك وابْنَى أخيك عقيل بن أبي طالب ونَوْفَل بن الحارث وحليفك عُتْبة بن عمرو ابن جحْدم ، فإنك ذو مال .

فقال العباس : يا رسول الله إنى كنت مسلماً ، ولكن القوم استكرهونى .

فقال رسول الله : الله أعلمَ بإسلامك ، إن يكن ما تذكر حقاً فالله يجزيك به . فأما ظاهر أمرك فقد كان علينا ، فافْدِ نفسك .

وكان رسول الله قد أخذ منه عشرين أُوقية من ذهب ، فقال العباس : يا رسول الله احسبها لى فى فدائِي .

قال الرسول : لا ، ذاك شيءٌ أعطانا الله عز وجل منك . قال العباس : فإنه ليس لى مال . قال الرسول : فأين المال الذى وضعته بمكة عند أُم الفضل بنت الحارث ليس معكما أحد ، وقلت لها : إن أُصِبْتُ فى سفرى هذا فللفضل كذا وكذا ، ولعبد الله كذا وكذا ، ولقُثَم كذا وكذا ، ولعبيد الله كذا وكذا .

قال العباس : والذى بعثك بالحق ما علم هذا أحد غيرى وغيرها ، وإنى لأعلمَ أنك رسول الله .

---

(١) فتح المبدى ٢/٣٢٦

ففدى العباس نفسه وابنى أخيه وحليفه ، وكان فداؤهم أربعين أوقية ذهباً (١) .

٩ ـ سرقت امرأة مخزومية ، فأحزن قريشاً شأنها ، فقالوا : ومن يكلم فيها رسول الله ؟ ومن يجترئ عليه إلا أسامة بن زيد حبيبه ؟

فكلمه أسامة ، فقال رسول الله : أتشفع فى حد من حدود الله ؟ ثم قام فخطب ، وجاء فى خطبته قوله : إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدّ ، وأيم الله لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها (٢) .

١٠ ـ أعطى يوم حُنَيْن الأقرع بن حابس مئة من الإبل ، فقام رجل فقال : والله إن هذه لقسمة ما عُدِل فيها ، وما أُريد بها وجه الله .

قال النبي : فمن يعدل إذا لم يعدل الله ورسوله (٣) ؟

١١ ـ بعد غزوة حُنين قال قائل لرسول الله : أعطيت عُيَيْنَة مئة بعير ، والأقرع بن حابس مئة بعير ، وتركت جُعيْل بن سُراقة . فقال رسول الله : أما والذى نفس محمد بيده لجُعيْل بن سُراقة خير من طلاع الأرض ، كلهم مثل عيينة والأقرع ، ولكنى تألفتهما ليسلما ، ووكلت جُعيْل بن سُراقة إلى إسلامه (٤) .

١٢ ـ قسم رسول الله غنائم هَوازنَ على المهاجرين والمؤلفة قلوبهم ، ولم يعط الأنصار شيئاً ، فتذمر الأنصار ، وكثرت منهم القالة ، حتى

---

(١) تاريخ الطبرى ٢/٢٩٠ واللؤلؤ والمرجان ٢/١٨٦

(٢) اللؤلؤ والمرجان ٢/٢١٤

(٣) فتح المبدى ٢/٣٤٠

(٤) سيرة ابن هشام ٤/١٣٦ ، ١٣٩ طلاع الأرض : ملئها

ظنا أن الرسول حابى قومه ، وعاتبه حسان بن ثابت بقصيدة ، فدخل عليه سعد بن عُبادة فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وَجدُوا عليك فى أنفسهم ، لما صنعتَ فى هذا الفىء الذى أصبت .

قال الرسول : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

قال : يا رسول الله ، ما أنا إلا من قومى .

قال : فاجمع لى قومك .

فخرج سعد فجمع الأنصار ، فأتاهم رسول الله ، فخطب فيهم بقوله : يا معشر الأنصار ، ما قالة بلغتنى عنكم ، ومَوْجدة وجدتموها علىّ فى أنفسكم ألم آتكم ضُلاَّلا فهداكمَ الله ؟ وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم ؟

قالوا : بلى ، الله ورسوله أَمَنُّ وأفضل .

ثم قال : ألا تجيبوننى يا معشر الأنصار ؟

قالوا : بماذا نجيبك يا رسول الله ؟ لله ورسوله المَنُّ والفضل .

قال : أما والله لو شئتم لقلتم ، فلَصَدقتم ولصُدِّقتم : أتيتنا مُكذَّباً فصدقناك ، ومخذولا فنصرناك ، وطريدا فآويناك ، وعائلا فواسيناك .

أوجدتم يا معشر الأنصار فى أنفسكم فى لُعاعة (1) من الدنيا تألفتُ بها قوماً ليسلموا ، ووكلتكم إلى إسلامكم ؟ .

ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير ، وترجعوا برسول الله إلى رحالكم ؟ .

---

(1) اللعاعة : بقلة خضراء ناعمة شبه بها زهرة الدنيا ونعيمها .

فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرأ من الأنصار ، ولو سلك الناس شِعْبًا وسلكت الأنصار شِعْباً لسلكت شِعب الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار ، وأبناء أبناء الأنصار.

فبكى القوم حتى أخضلوا[١] لحاهم ، وقالوا : رضينا برسول الله قَسْمًا وحظاً [٢] .

أثر العدل فى المساواة :

جاء الإسلام والناس طبقات ، والعرب درجات ، فسوى بينهم مساواة حقيقية واقعية لم يعرف العالم مثلها من قبل ولا من بعد ، فلا عبرة بالحسب ولا بالمال ولا بالجاه ولا باللون ، بل العبرة بالأخلاق الفضلى وبالتدين الصحيح ، قال تعالى : «إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ» [٣] .

وقال عليه الصلاة والسلام : «إن ربكم واحد ، وإن أباكم واحد ، ولا فضل لعربى على عجمى ولا عجمى على عربى ولا أحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم ، ألا هل بلغت ؟ فليبلغ الشاهد الغائب [٤] .

وقال عليه الصلاة والسلام : إن الله أذهب عنكم عُبيَّة الجاهلية [٥] ، كلكم بنو آدم ، وآدم من تراب [٦] .

---

(١) بللوها بالدموع
(٢) سيرة ابن هشام ١٤١/٤
(٣) سورة الحجرات ١٣
(٤) كنز العمال ٢٢/٢
(٥) عبية الجاهلية : كبرها
(٦) الاحياء ٣٢١/٣

وقد كان العدل من أقوى البواعث على هذه المساواة .

وإليك طرفاً من مظاهر المساواة الإسلامية التى حققها العدل بين الناس .

١ ـ قال للنبي بعض سادات العرب مثل الأقرع بن حابس التميمى وعُيينة بن حِصْن الْفَزارى وعباس بن مِرْداس السُّلَمى وغيرهم : اجعل لنا يوماً ولهم ـ للفقراء مثل بلال وسلمان وصُهَيْب وأبى ذَرٍّ وخَبَّاب بن الأرتّ وعمار بن ياسر وأبى هُرَيْرَة وأصحاب الصُّفة من الفقراء ـ يوماً ، يجيئون إليك ولا نجىء ، ونجىءُ إليك ولا يجيئون ، وذلك لأنهم شكوا إلى النبى التأذى برائحتهم ، فأجابهم رسول الله ، رغبة فى تقوية الإسلام بهم : فنزل قوله تعالى : «واصْبِرْ نَفْسَك معَ الذِّينَ يَدْعُون رَبَّهم بالغَداة والعشِيِّ يُريدون وَجْهَه ، ولا تَعْدُ عيناك عنهم تُريدُ زِينةَ الحياةِ الدنيا ، ولا تُطِعْ مَنْ أغفلنا قَلْبَهُ عن ذِكْرِنَا واتبَع هواه وكَانَ أَمرُهُ فُرُطا . وقل الحقُّ من ربكم فمن شاء فليُؤْمِنْ ومن شاء فليَكْفُرْ ...... » (١) .

٢ ـ حينما أذَّن بلال يوم الفتح على الكعبة قال الحارث بن هشام وسهل بن عمرو وخالد بن أُسَيْد : هذا العبد الأسود يؤذِّن ؟ فنزل قوله تعالى : «يأَيها الناسُ إنَّا خلقناكم من ذكرٍ وأُنثى وجعلناكم شُعُوباً وقبائل لتَعارفُوا ، إن أكرمكم عِنْدَ اللهِ أَتقاكُم » (٢) .

٣ ـ قال أبو ذرٍّ : قلت لرجل عند النبي صلى الله عليه وسلم يا ابن السوداء ، فقال النبى : يا أبا ذر طفَّ الصاع ، طفَّ الصاع ، ليس لابن البيضاء على ابن السوداء فضل .

---

(١) سورة الكهف ٢٨ـ٢٩
(٢) سورة الحجرات ١٣

فقال أبو ذر : فاضطجعت وقلت للرجل : قم فطأ على خدى [1]

٤ ـ رأى رسول الله رجلا غنياً جلس بجنبه فقير ، فانقبض الغنى عنه ، وجمع ثيابه ، فقال الرسول : أخشيت أن يَعْدُوَ إليك فقره؟ [2] .

حضه على العدل والمساواة

قال عليه الصلاة والسلام :

١ ـ لا يقضين حكَمٌ بين اثنين وهو غضبان [3] .

٢ ـ ما من عبد استرعاه الله رعيته فلم يحطها بنصيحته إلا لم يجد رائحة الجنة [4] .

٣ ـ المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يُسْلمه [5] ، ومن كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته [6] .

٤ ـ الظلم ظلمات يوم القيامة [7] .

٥ ـ سمع خصومة بباب حجرته ، فخرج إليهم فقال : إنما أنا بشر ، وإنه يأتينى الخصم ، فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صَدَق ، فأقضى له بذلك ، فمن قضيت له بحق مسلم فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو ليتركها [8] .

---

(١) الاحياء ٣/٢٠٢

(٢) الاحياء ٣/٣٢٢

(٣) اللؤلؤ والمرجان ٢/٢٢٦

(٤) اللؤلؤ والمرجان ١/٣٠

(٥) لايسلمه : لايخذله

(٦) فتح المبدى ٢/٢٣٥

(٧) فتح المبدى ٢/٢٣٦

(٨) فتح المبدى ٢/٢٣٨

٦ – الناس كلهم سواء كأسنان المشط (١) .

٧ – انظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تَفْضُلَهُ بتقوى الله (٢) .

٨ – المسلمون تتكافأ دماؤهم ، ويسعى بذمتهم (٣) أدناهم ، وهم يَدٌ على من سواهم (٤) .

٩ – من كانت له امرأتان فمال إلى إحداهما دون الأُخرى جاء يوم القيامة وأحد شِقَّيْهِ مائل (٥) .

١٠ – ثلاث منجيات وثلاث مهلكات : فأما المنجيات فالعدل فى الغضب والرضا ، وخشية الله فى السر والعلانية ، والقصد (٦) فى الفقر والغنى .

١١ – إنما أهلك الذين من قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق فيهم الضعيف أقاموا عليه الحدَّ (٧) .

١٢ – من حالت شفاعته دون حد من حدود الله فقد ضاد الله عز وجل .

١٣ – من أعان ظالماً لِيَدْحَضَ بباطله حقاً ، فقد برئت منه ذمة الله وذمة رسوله (٨) .

---

(١) البيان والتبيين ١٩/٢
(٢) كنز العمال ٢٢/٢
(٣) الذمة : الأمان
(٤) البيان والتبيين ١٩/٢
(٥) الاحياء ٤٤/٢
(٦) القصد : الاقتصاد
(٧) الجامع الصغير ٢٧٥/١
(٨) الجامع الصغير ٣٥٤/٢ وكنز العمال ١٠٢/٢ يدحض : يبطل

١٤ ـ حدٌّ يعمل فى الأرض خير لأهل الأرض من أن يُمْطَرُوا أربعين صباحاً [1] .

١٥ ـ من ظلم معاهدا أو انتقصه أو كلفه فوق طاقته أو أخذ منه شيئاً بغير طيب نفس فأنا حجيجه يوم القيامة .

١٦ ـ من آذى ذمياً فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمتُه يوم القيامة [2] .

١٧ ـ من ابتلى بالقضاء بين المسلمين فليعدل بينهم فى لحظه وإشارته ومقعده ومجلسه [3] .

١٨ ـ اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرا فإنه ليس دونه حجاب [4] .

١٩ ـ إن الله تعالى ليُمْلى للظالم حتىّ إذا أخذه لم يُفْلِتْه [5] .

---

(١) الجامع الصغير ٣٦٧/١

(٢) الجامع الصغير ٣٣٦/٢ خصمته : غلبته فى الخصومة

(٣) الجامع الصغير ٣٣٧/٢

(٤) كنز العمال ٢٢/٢

(٥) كنز العمال ١٠٢/٢

الفصل السادس

العفة

حقيقتها

العفة فضيلة تقى الإنسان من أن يرتكب بيده أو بلسانه أو بشهوته ما لا يحلُّ له وربما تمنعه من الحلال إباء وأنفةً .

وقد وردت كلمة العفة ومشتقاتها فى كتاب الله دالة على هذه الأنواع :

١ - حفظ الفروج عن الحرام قال تعالى : «وليَسْتَعْفِفِ الذين لا يَجِدُونَ نِكاحاً حتىَّ يُغْنِيهُمُ اللهُ مِنْ فَضْلِهِ» (١) .

فهنا أمرٌ بالاجتهاد فى طلب العفة والحرص عليها للذين لا يستطيعون الزواج لعجزهم عن الإنفاق .

وقد جاءت الآية الكريمة بعد الأمر بما يَعْصِمُ من الفتنة ويُبْعِدُ من ارتكاب المعصية وهو غض البصر ثم بالزواج الذى يُحْصِنُ المتزوج ثم بالحمل على النفس الأمَّارة بالسوء وكبح جماحها إلى أن تحين المقدرة على الزواج (٢) .

---

(١) سورة النور ٣٣

(٢) الكشاف ٢/٩٣

ويتصل بحفظ الفروج الامتناع عما لا يلائمه كالتبرج والكشف عن مواضع الزينة والإغراء ولهذا أمر الله سبحانه بالتصون والتوقر فى قوله : «والقَواعِدُ من النِساءِ اللاتى لا يَرْجُونَ نِكاحاً فليس عليهنّ جُناحٌ أن يَضَعْنَ ثِيابَهُنّ غَيْرَ مُتَبَرجاتٍ بِزِينةٍ ، وأن يَسْتَعْفِفْنَ خيرٌ لهنّ ، واللهُ سميعٌ عليم »[1] .

فإنه لا حرج على هؤلاء النسوة اللاتى كبرن فلا يطمعن فى زواج أن يخلعن ملابسهن الظاهرة غير مبديات شيئاً من زينتهن الخفية ، أو غير قاصدات إلى التبرج[2] .

٢ ـ نزاهة النفس وأمانة اليد ، قال تعالى فى النهى عن أكل مال اليتامى : «وابْتَلُوا اليتَامىَ حتىَ إذا بلَغُوا النكاحَ ، فإنْ ءانسْتُمْ منهمْ رُشْدًا فادْفَعُوا إليهم أموالَهُمْ ، ولا تأْكلوها إسْرافًا وبِدارًا أنْ يكْبرُوا ، ومَنْ كان غَنِياً فلْيَسْتَعفِفْ ، ومنْ كان فقيرا فليأْكُلْ بالمَعْرُوفِ[3] » .

أى اختبروا عقولهم ومعرفتهم بالتصرف قبل البلوغ ، حتى إذا تبينتم منهم رُشدا دفعتم اليهم أموالهم بغير تأخير عن حد البلوغ .

ولا تأكلوا أموالهم مسرفين ومبادرين بلوغهم الرشد .

والأوصياء نوعان : نوع غنى ونوع فقير ، فعلى الغنى أن يتعفف عن مال اليتيم قانعاً بما رزقه الله ، مشفقاً على اليتيم ، مبقياً على ماله ، وأما الفقير فيتناول من مال اليتيم أجره مقدرا بالعدل والأمانة[4] »

(١) سورة النور ٦٠
(٢) الكشاف ٩٩/٢
(٣) سورة النساء ٦
(٤) الكشاف ١٩٠/١

٣ ـ الأنفة من طلب الطعام أو المال مع شدة الفقر والحاجة ، قال تعالى : «لِلْفُقَرَاءِ الذينَ أُحْصِرُوا فى سبيلِ اللهِ لا يستطيعونَ ضَرْبًا فى الأَرْضِ ، يَحْسَبُهُم الجاهِلُ أغنياءَ مِنَ التَّعَفُّفِ ، تَعْرِفُهُمْ بِسِيماهُمْ ، لا يسأَلُونَ النَّاسَ إلْحَافًا[1] » .

والمراد أولئك الذين قصروا أنفسهم على الجهاد فلا يستطيعون كسباً ، وقيل هم أصحاب الصُّفَّة[2] ، فمن كان عنده فضل أتاهم به إذا أمسى .

وقد كان الجاهل بحالهم يظنهم مستغنين بسبب تعففهم عن السؤال ، ولكن الذى ينظر اليهم يرى وجوههم مصفرة ومناظرهم رثة ، ولم يكن أحد منهم يسأل الناس على الإطلاق ، أو كان بعضهم يسأل فى تلطف وتعريض لا إلحاف فيه ولا إلحاح .

مظاهرها

بلغ عليه الصلاة والسلام أعلى الدرجات فى جميع ضروب العفة وأنواعها ، فقد كان المثل الأعلى فى الفضائل كلها ، والعفة موصولة ببعضها كالأمانة والعدل والقناعة والإيثار والزهد :

١ ـ أما عفته عن الفاحشة فإنها من البديهيات التى لا تحتاج إلى تفصيل . وقد عصم الله نبيه من الفاحشة منذ طفولته : فلم يزِلَّ قط .

(١) سورة البقرة ٢٧٣ أحصروا : حبسوا أنفسهم على الجهاد . ضربا فى الارض :سفرا سيماهم : علامتهم من الجهد والتواضع

(٢) كانوا نحو اربع مئة رجل من مهاجرى قريش لم يكن لهم مساكن فى المدينة ولا عشائر فكانوا فى صفة المسجد وهى سقيفة ، يتعلمون القرآن بالليل ؛ ويرضخون النوى بالنهار ، وكانوا يخرجون فى كل سرية بعثها رسول الله .

ولم يَهُمّ بفاحشة قط . حتى إن يده لم تمس يد امرأة إلا إذا كانت زوجة أو ذات محرم أو ملك يمين (١) .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما هممت بشيء مما كان أهل الجاهلية يعملون به غير مرتين ، كل ذلك يحول الله بيني وبين ما أُريد ، ثم ما هممت بسوء حتى أكرمني الله عز وجل برسالته ، فإني قد قلت ليلة لغلام من قريش كان يرعى معي بأعلى مكة : لو أبصرتَ لي غنميَ حتى أدخل مكة فأسمرَ بها كما يَسْمُرُ الشباب ؟ فقال : أفعل ، فخرجت أُريد ذلك ، حتى إذا جئت أول دار من دور مكة سمعت عزفاً بالدفوف والمزامير ، فقلت : ما هذا ؟ قالوا : فلان بْن فلان تزوج بفلانة بنت فلان ، فجلست أنظر إليهم ، فضرب الله على أُذني ، فنمت ، فما أيقظني إلاّ مَسُّ الشمس . ثم جئت صاحبي فقال : ما فعلت ؟ قلت : ما صنعت شيئاً ، ثم أخبرته الخبر .

ثم قلت ليلة أُخرى مثل ذلك فقال : أفعل ، فخرجت فسمعت حين جئت مكة مثل ما سمعت حين دخلت مكة تلك الليلة ، فجلست فضرب الله على أُذني ، فوالله ما أيقظني إلا مَسُّ الشمس .

فرجعت إلى صاحبي فأخبرته الخبر ، ثم ما هممت بعدها بسوء حتى أكرمني الله عز وجل برسالته (٢) .

وقد سن للمسلمين أدب الطريق ، فنهاهم عن الجلوس فى عرض المارة ، فإنه لا مندوحة من أن تمر نسوة يستحيين من تطلع الأنظار إليهن ،

---

(١) الاحياء وهامشه ٣١٥/٢

(٢) تاريخ الطبرى ١٩٦/٢

أو تمر بعض نساءٍ يبدو منهن - عن غير قصد - شيءٌ من زينتهن ، فإن اضطروا إلى الجلوس بقارعة الطريق كان عليهم أن يلتزموا آدابه ، ومنها أن يَغُضُّوا أبصارهم ، فلا يعلقوها بهذه أو بتلك .

قال عليه الصلاة والسلام : لا تجلسوا على ظهر الطريق ، فإن أبيتم فغضوا الأبصار ، وردوا السلام ، واهدوا الضال ، وأعينوا الضعيف [1] .

وهو في هذا النهي يعمل بما أمر به القرآن الكريم ، وبما تهدى إليه التجارب والنظر السليم ، فإن النظرة كثيرا ما تجر شرورا ، قال تعالى : « قُلْ لِلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ، ذلكَ أَزْكَى لَهُمْ ، إنَّ اللهَ خبيرٌ بما يَصْنَعُونَ . وقلْ للمؤْمِناتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أبصارِهِنَّ ، وَيَحْفَظْنَ فُرُوجهن ، ولا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إلا ما ظَهَرَ منها ، ولْيَضْرِبْنَ بخُمُرهِنَّ على جُيوبِهِنَّ ، ولا يُبْدِينَ زِينتَهُنَّ إلا لبُعولتهنَّ أو ءَابائِهنَّ أو ءَاباءِ بُعولتهنَّ أو أبْنائِهنَّ أو أبناءِ بُعولتهنَّ أو إخوانِهنَّ أو بَنِي إخوانِهنَّ أو بني أَخَواتِهنَّ أو نسائهنَّ أو ما مَلَكَتْ أيمانُهُنَّ ، أو التَّابِعينَ غَيْرِ أُولى الإِرْبَةِ مِنَ الرجالِ أو الطِّفْلِ الذين لمْ يَظْهَرُوا على عَوْراتِ النساءِ ، ولا يَضْرِبْنَ بأَرجلِهِنَّ لِيُعْلَمَ ما يُخْفِينَ مِنْ زينتِهِنَّ ، وتُوبُوا إلى اللهِ جميعًا أَيُّها المؤمنونَ لعلكم تُفْلِحُون » [2]

---

(١) تيسير الوصول ٢٦٣/٢ والبيان والتبيين ٢١/٢

(٢) سورة النور ٣٠-٣١ ، أزكى لهم : أطهر . الزينة : ماتزينت به المرأة ، فما كان ظاهراً منه كالخاتم والكحل والخضاب فلا بأس بإبدائه للأجانب ؛ وما خفي كالسوار والخلخال والوشاح والقرط فلا تبديه الا لهؤلاء المذكورين ؛ وذكرت الزينة دون مواقعها للمبالغة في التصون والتستر ، لأن هذه الزينة على مواضع من الجسد لا يحل النظر اليها لغير هؤلاء وهى الذراع والساق والعضد والعنق والرأس والصدر والأذن .

الا ماظهر منها : الا ماجرت العادة بظهوره من الزينة الظاهرة لأن سترها فيه حرج ، فان المرأة لا تجد بدا من مزاولة الأشياء بيديها ومن الحاجة الى كشف وجهها في الشهادة والمحاكمة والمشي في الطريق ، والى ظهور قدميها في المشي .

ليضربن بخمرهن على جيوبهن : كانت جيوبهن واسعة تبدو منها نحورهن وصدورهن وما حواليها فأمرهن الله أن يسدلن خمرهن على النحور والصدور حتى يغطينها .

أو نسائهن : من في صحبتهن وخدمتهن من النساء والحرائر =

٢ ـ وكان الرسول عفيف اللسان حتى فى أشد حالات الخصام ، لم يعرف الْبَذَاءُ والسِّبابُ سبيلا إلى شفتيه ، فإنه بعد فتح مكة توجه إلى الطائف ومعه أبو بكر وابنا سعيد بن العاص ، فمر أبو بكر بقبر فقال : لمن هذا القبر ؟ قالوا : قبر سعيد بن العاص ، فقال أبو بكر : لعن الله صاحب هذا القبر ، فإنه كان يحارب الله ورسوله .

فغضب ابنه عمرو بن سعيد ، وقال يا رسول الله ، هذا قبر رجل كان أطعم للطعام وأضرب لِلْهام [١] من أبي قُحافة [٢] .

فقال أبو بكر : يكلمنى هذا يا رسول الله بمثل هذا الكلام ؟

فقال صلى الله عليه وسلم : اكفف عن أبي بكر يا عمرو .

فانصرف عمرو ، ثم أقبل النبي على أبي بكر فقال : يا أبا بكر إذا ذكرتم الكفار فعمموا فإنكم إذا خصصتم غضب الأبناء للآباء . فكف المسلمون عن ذلك [٣] .

وقد نهى عن سب قتلى بدر من المشركين فقال : لا تَسُبُّوا هؤلاء ، فإنه لا يخلص إليهم شيءٌ مما تقولون ، وتؤْذون الأحياء ، ألا إن البَذاء لؤْم [٤] .

= أو ما ملكت أيمانهن : المراد الاماء لان عبد المرأة بمنزلة الأجنبى منها . الاربة : الحاجة ، وهم الذين يتبعونكم ليصيبوا من فضل طعامكم ولا حاجة بهم الى النساء لأنهم بله او شيوخ صلحاء . الطفل الذين لم يظهروا : الأطفال الذين لا يعرفون ما العورة ولا يميزون بينها وبين غيرها . ولا يضربن بأرجلهن : لا يضربن الأرض بارجلهن أو لا يضربن رجـلا بأخرى لترن خلاخيلهن فيسترعين الأنظار (الكشاف ٢/٩٠)

(١) الهام : الرءوس .

(٢) ابو قحافة : والد أبى بكر .

(٣) الاحياء ٣/١٠٧ .

(٤) الاحياء ٣/١٠٤

وسأله أعرابي أن يوصيه ، فقال : عليك بتقوى الله ، وإن امرؤ عيّرك بشيء يعلمه فيك فلا تعيره بشيء تعلمه فيه ، يكن وباله عليه وأجره لك ، ولا تسبن شيئاً (١) .

ولما رحل عن ثقيف قال له أحد أصحابه : يا رسول الله ادع عليهم ، فقال : اللهم اهد ثقيفاً وآت بهم (٢) ، وكذلك فعل لما سئل الدعاء على دَوْس (٣) .

وسأله بعض أصحابه أن يدعو على قريش بعد غزوة أُحد ، فقال : إنما بعثت رحمة ولم أُبعث لعاناً ، اللهم اغفر لقومي فإنهم لا يعلمون .

فلم يشأْ أن يدعو عليهم بالهلاك مع أنهم أعداؤه .

وكان إذا سئل أن يدعو على أحد مسلم أو كافر عدل عن الدعاء عليه إلى الدعاء له .

ولقد اقتصر من الدعاء على المشركين فى غزوة الأحزاب بقوله : اللهم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، اللهم اهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وزلزلهم (٤) .

وهذا أعف ما يمكن أن يوجه إلى قوم معتدين جمعوا جموعهم وقدموا إلى المدينة للقضاء على الرسول وعلى المسلمين ، معتمدين على كثرة عددهم ووفرة سلاحهم وممالأة اليهود المقيمين بالمدينة ونفاقهم ، على حين أن المسلمين قليل عددهم ، متخوفون من غدر اليهود بهم .

---

(١) الاحياء ٣/١٠٥ .
(٢) سيرة ابن هشام ٤/١٣٠
(٣) فتح المبدى ٢/٣١٥ .
(٤) فتح المبدى ٢/٣١٥ واللؤلؤ والمرجان ٢/٢٦٤ .

فدعاءُ الرسول على أعدائه بالهزيمة فى هذا المأزق هو الأمر الطبيعى الذى لا تملى الضرورة غيره ، وإن هزيمتهم لأقرب إلى اجتذابهم للإسلام من انتصارهم ، فهم إذا انتصروا طغوا وبغوا واستكبروا استكبارا .

على أنه لم يدع عليهم بالهلاك المدمر أو بالإبادة القاضية ، وكان يستطيع أن يدعو بذلك .

٣ ـ وقد ضربَ للناس أعلى مثل فى أمانة اليد وعزة النفس ، كما يتبين من أمانته وزهده وإيثاره وعدله ، مع أن أموال الفىء والغنائم كانت فى قبضة يده ، ومع أن له نصيباً معلوماً من هذه ومن تلك ، ولكنه كان يقبض منها أقل قدر يقُوتُه ويقَوتُ أهله ولم يتجاوز القدر الموقوف عليه ، حتى لقد أمسك مرةً وبَرَةً من أحد إبل الغنائم وقال : لا يحل لى من غنائمكم مثل هذا إلا الخمس ، والخمس مردود فيكم .

وقد جاءته دنانير فقسمها على الناس ، وبقيت منها ستة أودعها عند بعض نسائه ، ولكنه أرق ليلته ولم يستطع أن ينام حتى قام فقسمها ، وقال : الآن استرحت .

كان رسول الله نزيه النفس عفيف اليد ، بل إنه سما بعفته عن الابتهاج بأن يمتلك ما لم يمتلكه أَحَدٌ ، فهو القائل : ما يسرنى أن لى أُحُدًا ذهبا يبيت عندى منه دينار إلا دينارا أرصده لدينى .

زواج النبي من زينب بنت جحش

فى هذا المقام مقام الحديث عن عفة النبي صلى الله عليه وسلم يجدر بي أن أعرض لزواجه من السيدة زينب بنت عمته ، ليتبين وجه الحق ، ولتتضح الحكمة الإلهية فى هذا الزواج .

والحق أن عفة النبي أسمى من أن تدنو إليها شبهة ، لكن بعض القصاص من ذوي الفغلة خَلَّطُوا فى هذا الزواج تخليطاً يأباه الواقع ، وتنفر منه الحقيقة ، ثم جاء بعض أعداء الإسلام من المستشرقين فتلقفوا هذا التخليط. واعتمدوا عليه ، محاولين أن يثيروا غبارا حول عفة رسول الله ، كأنهم لا يعلمون أن غبارَهم لن يتجاوز أقدامهم ، فمن أين له أن يبلغ الجوزاء ؟

وحسبنا أن نذكر من أباطيل القصاص أن النبي جاء إلى بيت زيد ابن حارثة زوج زينب ، فلم يجده ، وعرضت عليه زينب أن يدخل فأبى وانصرف راجعاً يتكلم بكلام لم تفهم منه سوى قوله : سبحان الله العظيم ، سبحان مصرف القلوب .

فلما جاء زيد أخبرته بما كان ، فمشى إلى رسول الله فقال له : بلغني يا رسول الله أنك جئت منزلي ، فهلاَّ دخلت لعل زينب أعجبتك فأُفارقها .

فقال النبي : أَمْسِكْ عليك زوجك ، واتَّقِ الله .

لكن زيدا عجز عن إمساكها ، ففارقها ، فتزوجها النبي بعد أن استوفت عدتها .

وفى خبر آخر أن النبي أتى بيت زيد ، فرأى زينب جالسة وسط حجرتها

تسحق طيباً ، فلما نظر إليها قال : سبحان خالق النور ، تبارك الله أحسن الخالقين ، فرجع ، فجاء زيد فأخبرته الخبر ، فقال لها : لعلك وقعت فى قلب رسول الله ، فهل لك أن أطلقك حتى يتزوجك ؟ فقالت : أخشى أن تطلقنى ولا يتزوجنى . فجاء إلى رسول الله ، فقال له : أريد أن أطلق زينب ، فأجابه بقوله : أمسك عليك زوجك واتق الله .

وهذا الخبر وأمثاله مما يجب صيانة النبى عنه (١) .

١ ـ أما الحقيقة فإنها تبطل هذا الزعم ، وتنقض ذلك الوهم ، لأن النبى كان قد أعتق مولاه زيد بن حارثة حينما آثر البقاء مع محمد مولىً له على أن يعود مع أبيه ويتحرر من الرق ، وزاد النبى على عتقه أن تبناه وقربه إلى نفسه وأكرمه وأحسن تربيته ، ثم أراد أن يرفع من قدره فزوجه شريفة من قريش هى زينب بنت عمته ، ليكافئه مكافأة مضاعفة على إيثار البقاء معه .

وكانت زينب مزهوة بشرف نسبها ، وكانت لا تفتأ تفخر على زيد وتجفوه وتسمعه ما يؤذيه ، حتى إنها كما قالوا تمنعت عليه أن يلامسها ملامسة الزوج لزوجته ، فجاء يوماً إلى رسول الله فقال : إن زينب قد اشتد علىَّ لسانها ، فأريد أن أطلقها ، فقال له الرسول : أمسك عليك زوجك واتق الله فى أمرها ، ولا تطلقها .

وكان النبى يعلم حينئذ من الوحى أن زيدا سيطلق زينب ، وأنه سيتزوجها من بعده ، لكنه لم يبح بهذا لزيد ولا لغيره ، خشية من لوم الناس ، أو حياء من قولهم إن محمدا تزوج امرأة ابنه .

---

(١) روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ٢٢/٢٥ الالوسى

على أن هذا الزواج كان تشريعاً إلهياً حكيما يبطل ما جرى عليه العرب من تحريم زوجة المتبنىً كما يحرمون زوجة الإبن ، وكان زواج النبي من زينب هو القدوة العملية الى تحل ما حرموه على أنفسهم مما لا حرمة فيه.

ولقد عاتب الله تعالى نبيه على خشيته من الناس ، وإخفائه فى نفسه ما يعلمه من الوحى ، لأن الله وحده هو الحقيق بأن يخشاه فى كل شأن من شئونه ، فيفعل ما أباحه له وأذن له فيه ، وكان الأولى فى تلك الحالة أن يصمت أو أن يفوض الأمر إلى زيد . .

وهذا هو معنى قوله تعالى : «وإذْ تقول للذى أنعَمَ اللهُ عليه وأنعَمْتَ عليه : أمْسِكْ عليك زوجك واتق الله ، وتُخفى فى نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيهِ ، وتَخْشَى النَاسَ واللهُ أحقُّ أن تَخْشاهُ . فلما قَضَىَ زيدٌ منها وَطَرًا زَوَّجْنَاكهَا ، لكَىْ لا يَكُونَ عَلى المؤْمِنِينَ حَرَجٌ فى أزْواجِ أدْعِيائهم إذَا قضوا منْهُن وَطَرًا ، وكان أمر اللهُ مفعولًا [1] . .

٢ ــ لم يبق منفذ لأيةِ شبهة فى هذا الزواج الذى كان بأمر من الله تعالى ، ليحل للناس ما حرموه على أنفسهم ، وليشرع لهم قانوناً جديدا يلغى ما وضعوه. !

وإن الآية القرآنية الكريمة لتنطق بالخبر كله فى جلاءٍ لا لبس فيه ، وتكشف عن الغرض من هذا الزواج كشفاً ينقض ما حاكه القصاص ، وضخمه المستشرقون المعادون للإسلام ، فلا مندوحة لمنصف سواء أكان مسلماً أم غير مسلم أن يجنح إلى تصديق أسطورة يكذبها كتاب الله ،

(١) سورة الاحزاب ٣٧ ــ أنعم الله عليه • المراد نعمة الاســلام انعمت عليه : المراد العتق والرعاية والتبنى ، تخفى فى نفســك ما الله مبــديه : تكتم ما اوحى اليك من طلاق زينب وزواجك منها • حرج : معناها ضيق وضجر : ادعيائهم اولادهم من التبنى •

ويدحضها ما عرف عن النبي من العفة والزهد والحياء وكرم الصحبة وطيب العشرة والغيرة والتقوى والخلق العظيم .

٣ ـ ولقد كان على القصاص ومتابعيهم من المستشرقين أن يسألوا أنفسهم هذه الأسئلة .

هل كان النبي يجهل زينب ويخفى عليه جمالها ، وهى بنت عمته ، وهو الذى خطبها لزيد ؟

وهل كان النبي وهو الذى يحمل أعباء الرسالة العظمى خَلِيَّ البال ليأسره جمال النساء ؟

ولماذا زوج زيدا من زينب ولم يتزوجها هو ، مع أنه لو أراد ذلك لكان أيسر عليه ؟

وأيهما كان أولى بمكانته أن يتزوج زينب ابتداء أم أن يَتَخَلَّفَ عليها مولاه ؟

وهل من المعقول أن يتحرج من هذا الزواج الذى أوحى به الله إليه وأمره به خشية من الناس ، وهو لا يتحرج أن يقول الناس إنه أعجب بجمال زوجة مولاه فَخَلَفَه عليها ؟

لكن القصاص لا يتحققون ، ولكن أعداء الإسلام سراع إلى تصيد ما يشفى حنقهم ، وإنها لا تَعْمَى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور.

حضه على العفــة

حرص رسول الله على تكوين المجتمع الفاضل ، فأمر المسلمين بالعفة فى كثير من أحاديثه ، كقوله :

١ ـ إن الله تعالى يحب الفقير المُتَعَفِّفَ أبا العِيال [١] .

٢ ـ إن الله يحب الحيي الحليم المتعفف ، ويبغض البذِيَّ السَّأل المُلْحِف [٢] .

٣ ـ اليد العليا خير من اليد السفلى [٣] .

٤ ـ لأن يحتطب أحدكم حُزْمةً على ظهره خير من أن يسأل أحدا فيعطيه أو يمنعه [٤] .

٥ ـ ليس الغنى عن كثرة العَرَضِ ولكن الغنى غنى النفس [٥] .

٦ ـ من سأل من غير فقر فكأنما يأكل الجمر [٦] .

٧ ـ عليكم بالقناعة فإن القناعة مال لا ينفد [٧] .

٨ ـ سأل ناس من الأنصار رسول الله فأعطاهم ، ثم سألوه فأعطاهم ، حتى نفد ما عنده فقال : ما يكون عندى من خير فلن أدخره عنكم ، ومن يستعفف يُعِفَّهُ الله ، ومن يستغن يغنه الله ، ومن يتصبر يُصبِّرْه الله وما أعطى أحد عطاءً خير وأوسع من الصبر [٨] .

٩ ـ قال حكيم بن حزام : سألت النبي صلى الله عليه وسلم فأعطاني ثم سألته فأعطاني ، ثم قال : يا حكيم إن هذا المال خَضِرَةٌ حُلْوة ، فمن أخذه بسَخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم

---

(١) كنز العمال ٨٠/٢ والاحياء ١٦٧/٤ .
(٢) الكشاف ١٢٦/١ .
(٣) اللؤلؤ والمرجان ٢٤٦/١ .
(٤) اللؤلؤ والمرجان ٢٥٠/١ .
(٥) اللؤلؤ والمرجان ٢٥١/١ .
(٦) الجامع الصغير ٣٧٣/٢ .
(٧) الجامع الصغير ٩٤/٢ .
(٨) اللؤلؤ والمرجان ٢٥٥/١ .

يُبارَكْ له فيه ، وكان الذى يأْكل ولا يشبع . اليد العليا خير من اليد السفلى [1] .

١٠ ـ أتى أعرابى إلى النبى فقال : يا رسول الله عِظْنى وأَوْجِزْ ، فقال : إذا صليت فصل صلاة مُودِّع ، ولا تحدثَنَّ بحديث تعتذر منه غدا ، واجمع اليأْس مما فى أيدى الناس [2] .

١١ ـ عز المؤْمن استغناؤُه عن الناس [3] .

١٢ ـ إياكم والفُحْش فإن الله تعالى لا يحب الفحش ولا التَفَحُّش .

١٣ ـ ألا إن البَذاءَ لؤم [4] .

١٤ ـ ليس المؤْمن بالطَّعَّان ولا اللَّعَّان ولا الفاحش ولا البذىء .

١٥ ـ معاشر الشباب ، عليكم بالباءة ، فمن لم يستطع فعليه بالصوم ، فالصوم وِجاء [5] .

١٦ ـ من تزوج فقد أحرز شطر دينه ، فليتق الله فى الشطر الثانى.

١٧ ـ النظرة سهم مسموم من سهام إبليس، فمن تركها خوفاً من الله تعالى أعطاه الله تعالى إيماناً يجد حلاوته فى قلبه [6] .

١٨ ـ بلغ النبىّ أن رجلا قال لأحد الصحابة : إن فتح الله عليكم

---

(١) البخارى فى باب الوصايا ومسلم فى الزكاة يريد ان ما اخذ من الاموال بطريق غير مشروع عديم البركة ، كالمال الذى اخذ حياء من المسئول .

(٢) الاحياء ٢٠٦/٢ .

(٣) الاحياء ٢١٠/٢ .

(٤) الاحياء ١٠٤/٣ ـ ١٠٥ .

(٥) الباءة : الزواج وجاء : المراد وقاية من الزنا .

(٦) الاحياء ٨٧/٣ .

الطائف فسل النبي أن يهب لك نادية بنت غَيْلان بن سَلَمة ، فإنها إذا قامت تثنت ، وإذا تكلمت تغنت الخ .

فقال عليه الصلاة والسلام : لقد غَلْغَلت النظرَ يا عدوَّ الله[1] .

١٩ - ذكر من السبعة الذين يظلهم الله يوم القيامة فى ظله يوم لا ظل إلا ظله : ورجل دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال إنى أخاف الله[2] .

---

(١) المجازات النبوية ١٠٢ ، غلغلت النظر : أدخلته وعمقته .

(٢) صحيح مسلم ١٢١/٧

الفصل السابع

الصـــدق

ما الصدق ؟

لا أريد أن تتشعب بنا السبل إلى متاهات الفروض والاحتمالات ، بل أوثر أن يكون الصدق هو قول الحق الصراح ، والإخبار بالواقع الذى يعلمه المتكلم ولا يعلم سواه .

وحسب الصدق من العظمة والعلاء أن الله سبحانه وتعالى وصف به وعْدهُ فى قوله : « أُولئك الذِينَ نَتَقَبَّلُ عنهم أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا ، ونَتَجاوزُ عن سيِّئَاتِهِمْ فى أَصْحَابِ الجنَّةِ ، وَعْدَ الصِّدْقِ الذى كانُوا يُوعدُونَ »(١) وفى قوله : « وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً لا مبدل لكلماته (٢) » ووصف به ذاته العلية فى قوله : « ذَلِكَ جَزَيْنَاهُمْ بِبَغْيِهِمْ ، وإنَّا لَصادِقُونَ »(٣) وفى قوله : « ومَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللهِ حَديثاً »(٤) .

ووصف به النبىَّ فى قوله : « ولما رأى المؤمنونَ الأَحزابَ قالوا هذا ما وَعَدَنا اللهُ ورَسُولُهُ ، وصدَقَ اللهُ ورسولُهُ ، وما زادهم إلا إيماناً وتَسْلِيما »(٥) .

(١) سورة الأحقاف ١٦
(٢) سورة الأنعام ١١٥
(٣) سورة الأنعام ١٤٦
(٤) سورة النساء ٨٧
(٥) سورة الأحزاب ٢٢

ووعد الصادقين ثوابه ، وأنذر الكاذبين عقابه ، فقال : « لِيَسْأَلَ الصَّادِقِينَ عن صِدْقِهِمْ ، وأعدَّ للكافرينَ عذاباً أليماً [١] » ، وقال : « ليجْزِىَ اللهُ الصادقينَ بصدقهم ، ويُعذِّبَ المنافقين إن شاءَ أو يتُوبَ عليهم إن اللهَ كان غفورا رحيماً [٢] » ، وقال سبحانه : « فَمنْ أظلمُ ممَّن كَذَبَ على الله ، وكذَّبَ بالصدق إذْ جاءه ، أليسَ فى جَهَنَّمَ مَثْوًى للكافرين [٣] » .

وواسى النبى عليه الصلاة والسلام حينما كذبه قومه بأن الأُمم السابقة كذبت رسلها « وإنْ يكذبوك فقدْ كَذَّبتْ قبْلهم قومُ نوحٍ وعادٌ وثمودُ وقومُ إبراهيمَ وقومُ لوطٍ وأصحابُ مَدْيَنَ ، وكُذِّبَ موسى فأمليتُ للكافرين ، ثم أخذتهمْ ، فكيفَ كان نكِير [٤] » .

مظاهره

(١) اعتراف مخالطيه

أجمع الذين عرفوا النبى وخالطوه منذ صباه على أنه صادق أمين ، لم يسمعوا من فمه أُكذوبة قط ، ولم يشكوا فى خبر من أخباره ، أو يستريبوا فى قول من أقواله .

١ ـ فالسيدة خديجة لم تجد ما تهدئُ به رَوْعهُ حين أتاها خائفاً بعد أن نزل عليه الملك يقول « اقرأْ باسمِ ربِّك الَّذِى خَلَقَ [٥] » خيرا من قولها له : أَبْشِرْ ، فوالله لا يخزيك الله أبدا ، ووالله إنك لتصلُ الرَّحِم ،

---

(١) سورة الأحزاب ٨
(٢) سورة الأحزاب ٢٤
(٣) سورة الزمر ٣٢
(٤) سورة الحج ٤٢ ـ ٤٤ نكير : انكارى عليهم واهلاكى لهم
(٥) سورة العلق ١

وتصْدُقُ الحديث ، وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكَلّ ، وتَقْرى الضيف ، وتعين على نوائب الحق[1] .

٢ ـ وقريش أعلنت أنه صادق حينما جمعها ليصدع بالدعوة جهرة ، وصعد الصفا فقال : يا صباحاه ، فاجتمعوا إليه ، فقالوا : مالك ؟ قال : أرأيتم إن أخبرتكم أن العدو مُصَبِّحكم أو مُمسيكم أما كنتم تصدقوننى ؟ قالوا : بلى ، ما جربنا عليك كذباً ، قال : فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد . فقال أبو لهب : تبًّا لك ، ألهذا جمعتنا ؟ فأنزل الله تعالى : « تَبَّتْ يَدَا أَبِي لهب وَتبَّ ، ما أغنى عنه مالُهُ وما كَسبَ ، سَيَصْلى نَارًا ذاتَ لَهَب »[2] .

٣ ـ على أنهم وإن كذبوه فى دعوى النبوة لم يجرؤْ أحد منهم على وصفه بالكذب فى سواها ، فقد قال أبو جهل للنبي إننا لا نكذبك ، وما أنت فينا بمكذَّب ، ولكن نكذب بما جئت به ، فأنزل الله تعالى « فإنهم لا يُكَذِّبونك ولكنَّ الظالمين بآياتِ الله يَجْحَدُونَ »[3] .

ولقى الأخْنَس بن شَرِيق أبا جهل يوم بدر فقال : يا أبا الحكم ليس هنا غيرى وغيرك يسمع كلامنا ، أخبرنى عن محمد صادق أم كاذب ؟ فقال أبو جهل : والله إن محمدا لصادق ، وما كذب قط[4] .

٤ ـ ثم تآمرت قريش على أن تشيع فى الوافدين إلى مكّة أن محمدا ساحر ، فردها عن هذه الفِرْية غدو من ألد أعدائه هو النَّضْر بن الحارث ،

---

(١) تاريخ الطبرى ٢٠٥/٢ الكل : الضعيف . تقرى : تطعم وتكرم
(٢) سورة المسد ١-٣ تبت : هلكت وخسرت
(٣) سورة الأنعام ٣٣
(٤) الشفا ١٠٥/١

إذ قال لهم : قد كان محمد فيكم غلاماً حَدَثًا ، فكان أرضاكم فيكم ، وكان أصدقكم حديثاً ، وأعظمكم أمانة ، حتى إذا رأيتم فى صُدْغَيْه الشيبَ ، وجاءكم بما جاءكم ، قلتم : ساحر ، لا والله ما هو بساحر .

٥ ـ ولما سأل هرقل إمبراطور الروم أبا سفيان فى ركب من قريش بعد صلح الحديبية : هل كنتم تتهمونه بالكذب قبل أن يقول ما قال ؟ قال : لا ، فقال : ما كان ليدَعَ الكذب على الناس ويكذب على الله[1] .

٦ ـ جاء فى وصف على بن أبى طالب لرسول الله أنه كان أصدق الناس لهجة .

وجاء فى حديث ابن عمر أن رسول الله كان يعرف فى وجهه غضبه ورضاه[2] .

فكان لا يقول المنكر ، ولا يقول فى الرضا والغضب إلا الحق ، ويعرض عمن تكلم بغير جميل .

وكان أحسن الناس رضا ، إذا سُرَّ رضِىَ ، فإن وعظ وعظ بجِدٍّ ، وإن غضب ـ وليس يغضب إلا لله ـ لم يقم بغضبه شىء حتى ينتصر له . ولا يغضب لنفسه ولا ينتصر لها[3] .

---

(١) فتح المبدى ٣٣/١ وصحيح مسلم ١٠٤/١٢ وتاريخ الطبرى ٨٦/٣ وسيأتى فى فصل الوفاء أن رسول الله شكر لعلقمة بن علاثة صنيعه لأنه قال خيرا أمام هرقل ونهى حسان بن ثابت عن رواية شعر فيه هجاء له (كنز العمال ١٥٢/٢)

(٢) الاحياء ٣٣٦/٢

(٣) الاحياء وهامشه ٣٢٦/٢ .

(٢) الرسالة

لقد صدق رسول الله فى تبليغه عن ربه ، لكن قريشاً التى وثقت بمحمد واطمأنت إلى صدقه فى صلاتها به ومخالطتها له ، ناقضت نفسها ، فكذبت نبوته ، وأنكرت رسالته .

١ – فلو أن الذين كذبوه احتكموا إلى ثقتهم به وتجاربهم معه لعلموا أن الذى يصدقهم الأحاديث والأقوال لا يستطيع أن يكذب على الله .

ولو أنهم كشفوا عن قلوبهم ما ران عليها من حُجُب العناد والضلال والحرص على منافع الدنيا وشهواتها لأيقنوا أن النبى يدعوهم إلى الحق والخير والارتفاع عن وهاد الوثنية والشرك إلى أَوْجِ التوحيد الخالص الذى تقتضيه الفطرة الصحيحة والعقل السليم .

لكنهم عموا عن هذا كله ، وعموا عن البينات الدالة على صدق الرسول ؛ ولم يتبصروا فى قوله تعالى : « ولو تَقَوَّلَ علينا بعْضَ الأَقاويل لأَخذْنَا منه باليَمِين ، ثم لَقَطَعْنَا منه الوتِينَ ، فما منكم مِنْ أَحَدٍ عنه حاجزين[1] » لأنه لَو كان مدعياً للنبوة ما نفى عن نفسه الكذب بهذا التصوير المرعب الذى لا يتفق ومكانة المدعى الكاذب .

٢ – على أن النبىَ – وهم يعلمون أنه أُمى لا يقرأ ولا يكتب ولم يجلس إلى معلم يتلقى عنه – قد جاءهم بكتاب من عند الله ، فيه تشريع جديد ، وفيه أخبار صحيحة عن الماضين ، وفيه أخبار بأُمور ستقع وقد وقعت فعلا ، فمن أين جاء النبى بهذا الكتاب ، وهو كما قال تعالى :

---

(١) سورة الحاقة ٤٤–٤٧ الوتين : عرق متصل بالقلب اذا انقطع مات صاحبه .

« وما كُنْت تَتْلُو مِنْ قَبلِهِ مِنْ كتاب ولا تخُطُّه بيمينك ، إذًا لارتابَ المُبْطِلون[1] » .

من أين جاء النبي بالقرآن وقد عاش فيهم أربعين سنة لم يحدثهم فيها بنبوة ولا رسالة « قُلْ لو شَاءَ اللهُ ما تَلَوْتُهُ عليْكُمْ ولا أدراكم به ، فقد لَبِثْتُ فيكم عُمُرًا مِنْ قبلِهِ ، أفَلا تَعْقِلُون »[2] .

٣ ـ وقد كانت تقع أحداث جسام يتطلع فيها النبي إلى الهداية ، ويَتَشَوَّفُ إلى الحكم الفاصل ، فينتظر وهو ملهوف حتى ينزل عليه الوحى بالقضاء الحاسم .

ويكفى أن أشير هنا إلى قصة الإفك التى نسجها بعض المنافقين حول زوجته السيدة عائشة ، وأبطأ الوحى ، والمسلمون فى قلق ، والنبي فى قلق ، والنبي نفسه حائر لا يقول إلا أنه لا يعلم عنها إلا الخير ، ثم بعد شهر كامل نزل الوحى بتبرئتها مما افتروا عليها[3] .

فلو أن النبي كاذب لسارع منذ اليوم الأول إلى تبرئة زوجته وحماية عرضه ، ولكان من السهل عليه أن ينسب إلى السماء ما يدعيه ، ليكف المتخرصون عن أراجيفهم ، وليطمئن المسلمون إلى براءة زوجة نبيهم وهى أم من أمهاتهم .

وليس يصح أن ينسى أحد أن هذا المقام لا يحتمل الصبر والانتظار ، لأن الفِرْيَةَ مصوبة إلى أعز ما يتصل بالإنسان الحر وهو العرض ،

---

(١) سورة العنكبوت ٤٨ ارتاب : شك

(٢) سورة يونس ١٦

(٣) سورة النور

ولأن هذا العرض موصول بالإسلام صلة ترفعه أو تضعه ، فهو عرض النبي نفسه ، وعرض صديقه أبي بكر ، وعرض إحدى أمهات المسلمين .

ولا يصح أن يتغافل أحد فى هذا المأزق أن النبي عربى من أشرف قبيلة فى العرب ، والعرب أصحاب غيرة على أعراضهم ، وصيانة لنسائهم لم يكن لها بين الأمم نظير ومثال .

٤ - وكثيرا ما كانت تعرض مشكلة يتلمس المسلمون عند النبي حلاً لها ، فينتظر الحل الذى يُوحَى إليه ، لأنه صادق لا يبلغ عن ربه إلا ما أُوْحى ، كما حدث إذ جاءته امرأة تشكو زوجها لأنها بعد أن ولدت له أولادا جعلها عليه كأمه ، فحَرَّمها على نفسه[١] ، وقالت للنبي إن لى صبية صغارا إن تركتهم له ضاعوا ، وإن أخذتهم منه جاعوا .

فقال لها النبي : ليس عندى فى أمرك شيء ، فقالت : أشكو إلى الله فاقتى ووَجْدِى ، فنزلت الآيات[٢] تبطل الظهار الذى كان العرب يمارسونه قبل الإسلام .

٥ - على أن الوحى كان ينزل أحياناً بما لم يكن النبي يتوقعه ، فيأذن له فى شيء لا يقبل عليه ، كتحريمه بعض الطعام على نفسه[٣] . أو يعاتبه فى عمل عمله ، كإذنه لبعض المسلمين الذين استأذنوه فى أن يتخلفوا عن غزوة تَبُوك ، معتذرين بالسفر البعيد أو بالمرض ، وهم فى الحقيقة كاذبون ، قال تعالى : « لو كان عَرَضًا قريباً وسَفَرا قاصدًا

---

(١) كان العرب فى الجاهلية يعرفون الظهار وهو أن يقول الزوج لزوجته أنت على كظهر أمى يريد تحريمها أبدا .

(٢) سورة المجادلة .

(٣) سورة التحريم .

لاتّبعُوك ، ولكنْ بَعُدَتْ عليهم الشُّقَّة ، وَسَيَحْلِفُونَ بالله لو استَطَعْنا لخرجنا مَعَكم يُهْلِكُونَ أنفسهم ، واللهُ يَعلمُ إنهم لكاذبون ، عفا الله عنك ؛ لِمَ أَذِنْتَ لهم حتّى يتَبيَّنَ لك الذين صدَقُوا وتَعْلَمَ الكاذبين[1] » .

ومثل إعراضه عن عبد الله بن شُرَيْح الشهير بابن أُم مَكْتوم ، إذ جاء إلى النبي وعنده جماعة من أشراف قريش يدعوهم إلى الإسلام فقال ، يا رسول الله ، أقرئني وعلمني مما علمك الله ، وكرر هذا وهو لا يرى أن النبي مشغول بهؤلاء ، فكره النبي مقاطعته له ، وقَطَّب ، فنزل قوله تعالى : « عبس وتَولىَّ أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى ، وما يُدْرِيكَ لعلَّهُ يَزَّكَّى أو يَذَّكَّرُ فتَنْفَعَهُ الذِّكرى ، أَمَّا منِ استَغْنَى فأَنتَ له تَصَدَّى ، وما عليك أَلا يَزَّكَّى ، وأَما من جاءَك يَسْعَى وهو يَخْشَى فأَنت عنه تَلَهَّى[2] » .

٦ ـ والعجب العجيب أن الله تعالى تحداهم أن يأْتوا ولو بسورة من مثل القرآن ، وكان التحدى صارخا ، وكانوا ذوى بلاغة وبيان ، فعجزوا عجزا فاضحاً ، ولكنهم حاولوا أن يستروا خزيهم فاتهموا النبي بأَنه شاعر ، وبأَنه كاهن ، وبأَنه ساحر ، ولم يسائلوا أنفسهم لِمَ قَدَرَ هو على ما يعجزون عنه وفيهم الشعراء والكهان والسحرة ؟ أو لعلهم ساءلوا أنفسهم ولكن العناد أملى لهم فى الغى والضلال .

وشىء آخر أنهم بأَذواقهم ومقدرتهم على وزن الكلام وتمييز بعضه من بعض كانوا يجدون فرقاً كبيرا بين القرآن وكلام النبى ، فالقرآن الذى أعجزهم هو القمة العليا فى البلاغة ، ولكن كلام النبى على كثرة

---

(١) سورة التوبة ٤٢-٤٤ عرضا : متاعا من الدنيا

(٢) سورة عبس ١-١٠ ، عبس : قطب ، يزكى : يتطهر من الاثم ، يذكر : يتعظ ، تصدى : تقبل عليه

رسائله وخطبه وأحاديثه لم يصل إلى هذه القمة ، ولم يَدَّعِ النبي نفسه ، ولم يدع أحد من المسلمين لكلامه أنه على درجة من درجات الإعجاز .

فأنَّى له أن يكذب عليهم فيفتعل كلاماً معجزا ينسبه إلى الله ، وهو لا يستطيع أن يحاكى هذا الكلام ؟

٧ – ثم إن لنا أن نسأل عن السبب الذى كانوا يظنون أنه يدفع النبي إلى الكذب ؟

لقد احتمل فى دعوته أفدح المخاطر ، وأقسى الشدائد ، وصبر على ما لا يطاق ثلاثة وعشرين عاماً ، لم ينعم فيها براحة ولا أمن ولا اطمئنان

ثم كان معه عشرات الألوف من أتباعه يتعرضون لفقد الأرواح والأموال وللقلق الدائم على الحياة ، وهو لم يجن من وراء دعواه ما يجنيه أصحاب الدعاوى من رغد وثراء وأبهة وسلطان .

فلو أنه كان كاذباً لآثر على دعواه الرضا بما عرضه عليه قومه من المال والملك حينما يئسوا من تراجعه عن الدعوة إلى الإسلام الذى يسفه عقولهم ، ويلغى أديانهم ، ويبطل كثيرا من عاداتهم ومعتقداتهم ، ويهدد مصالحهم الشخصية بالزوال .

ولو لم يكن صادقاً لأقام نفسه ملكاً على الجزيرة العربية بعد أن دانت له ، وبعد أن وافته القبائل لتعلن إسلامها ، وتدين له بالولاء .

ولكنه لم يفعل شيئاً من هذا ، وقد كان ميسورا عليه .

بل آثر أن يقضى حياته زاهداً مبغضاً لمظاهر الجاه والسلطان .

٨ – على أن زعماء قريش الذين تولوا معارضة الدعوة حيناً من الدهر لم يلبثوا أن آمنوا بها ، وأُشْرِبَتْها نفوسهم ، وكافحوا دونها بدمائهم

وأموالهم ، لأنهم أيقنوا أن محمدا الذى لم يكذب عليهم قط لم يكذب على الله قط ، وليس بصاحب بهتان ولا طالب مال أو جاه .

توريته وكنايته

هل يتطلب أحد من رجل مهما يكن صدقه أن يكشف لأعدائه عن خططه ونواياه؟

ولئن تطلب أحد ذلك ليكونن مثالا لغفلة الخُرْق ، وحماقة البُلْهِ ، وسخافة الأدعياء .

فقد تعرض للرجل الصادق أحداث يعتصم فيها بالكتمان ، وتمر به أحوال يُسْأَلُ فيها فينصرف عن الجواب ، أو يقول مقال الحازم الذى يزن ما يصح أن يقال .

فماذا كان يفعل رسول الله فى مثل هذه الحال ؟

كان يستخدم التورية أو الكناية فيجد مندوحة من الصدق الضار ومن الكذب الذى لا يليق به ولا يرضاه .

فإذا توجه إلى سفَر ورَّى بغيره ، حتى لا ينتهى الخبر إلى أعدائه ، فيتصدون له[1] .

وإذا خرج فى غزوة كَنَى عنها ، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذى إليه يقصد ، إلا غزوة تبوك ، فإنه بينها للناس ، لبعد الشقة ، وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذى يقصد له ، ليتأهب الناس[2] .

---

(١) الاحياء ٣٣١/٤

(٢) سيرة ابن هشام ١٥٩/٤

وفى طريقه إلى بدر وقف على شيخ من العرب ، فسأله عن قريش وعن محمد وأصحابه وما بلغه عنهم ، فقال الشيخ لا أخبركما حتى تخبراني ممن أنتما ، فقال رسول الله : إذا أخبرتنا أخبرناك ، فلما أخبرهم الرجل بما يعلم ، وفرغ من خبره ، قال الرجل : ممن أنتما؟ فقال رسول الله : نحن من ماء ، فجعل الرجل يقول : من ماء؟ من ماء ؟ أمن ماء العراق ؟(١) .

حضه على الصدق

للرسول كثير من الأحاديث فى الأمر بالصدق وتزيينه ، وفى النهى عن الكذب وتقبيحه ، منها قوله :

١ - عليكم بالصدق فإن الصدق يهدى إلى البر ، وإن البر يهدي إلى الجنة ، وإن الرجل لَيَصْدُقُ حتى يكون صِدِّيقا ، وإن الكذب يهدى إلى الفجور ، وإن الفجور يهدى إلى النار ، وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذاباً(٢) .

٢ - آية المنافق ثلاث : إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا اؤْتمن خان(٣) .

٣ - البيِّعان بالخِيار ما لم يَتَفَرَّقَا ، فإن صَدَقا وبَيَّنا بورك لهما فى بيعهما ، وإن كتما مُحِقَتْ بركة بيعهما(٤) .

٤ - تحروا الصدق وإن رأيتم فيه الهَلَكة ، فإن فيه النجاة ، واجتنبوا الكذب وإن رأيتم فيه النجاة فإن فيه الهَلَكة(٥) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٦٨/٢
(٢) فتح المبدى ٣٠٩/٣ وكنز العمال ٧٢/٢
(٣) فتح المبدى ٦٤/١
(٤) اللؤلؤ والمرجان ١٥٦/٢
(٥) كنز العمال ٧٢/٢

٥ ــ إن الكذب باب من أبواب النفاق[١] .

٦ ــ من حلف على يمين بإثم ليقتطع بها مال امرىء مسلم بغير حق لَقِيَ الله عز وجل وهو عليه غضبان[٢] .

٧ ــ قال عبد الله بن عامر : جاء رسول الله إلى بيتنا وأنا صبى صغير ، فذهبت لألعب ، فقالت أمي : يا عبد الله تعال حتى أعطيك ، فقال صلى الله عليه وسلم : وما أردتِ أن تعطيه ؟ قالت : تمرا ، فقال : أما إنك لو لم تفعلى لكتبت عليك كذبة[٣] .

٨ ــ أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة منهن كان فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر[٤] .

٩ ــ سألت امرأة رسول الله فقالت : إن لى ضرة ، وإنى أتكثر من زوجى بما لم يفعل أضارها بذلك ، فهل على شىء فيه ؟ فقال : المتشبع بما لم يُعْطَ كلابس ثوبَىْ زورٍ[٥] .

١٠ ــ ما أملق تاجر صَدُوق .

١١ ــ لا تزال أمتى صالحاً أمرها ما لم تر الأمانة مغنما والصدق مغرماً[٦] .

١٢ ــ ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو أنمى خيرا[٧] .

---

(١) (٢) الاحياء ٣/١١٥–١١٧

(٣) تيسير الوصول ٣/٢٥٦

(٤) فتح المبدى ١/٦٥

(٥) تيسير الوصول ٣/٢٥٦ والاحياء ٣/١٢١ المتشبع : المباهى .

(٦) البيان والتبيين ٢/٢٠

(٧) الاحياء ٤/٣٣٠

١٣ ـ لا يحل الكذب إلا فى ثلاث : يحدث الرجل امرأته ليرضيها ، والكذب فى الحرب ، وفى الإصلاح بين الناس[١] .

١٤ ـ ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ؟ قالوا : بلى يا رسول الله ، قال : الإشراك بالله ، وعقوق الوالدين ، وجلس وكان متكئاً فقال : ألا وقول الزور ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت[٢] .

١٥ ـ كبُرَتْ خيانة أن تحدث أخاك حديثاً هو لك به مُصَدِّق ، وأنت له به كاذب[٣] .

---

(١) فتح البارى ١١٩/٦

(٢) فتح البدى ٢٦٢/٢ قول الزور : الكذب . ليته سكت : شفقة عليه وكراهية لما يزعجه أو لما حصل لهم من الرعب والخوف

(٣) الجامع الصغير ١٥٩/٢

الفصل الثامن

الأمانة

حقيقتها

للأمانة معنيان خاص وعام .

أما الخاص فهو أن يرد الشخص المال أو المتاع أو غيرهما إلى من ائتمنه عليه ، لأنه حفيظ على هذا الشيء ، راعٍ له ، ليس من حقه أن يتصرف فيه ، فإذا ما استرده صاحبه سارع برده إليه .

وأما العام فيتسع لأكثر من هذا ، فيشمل كتمان السر ، وإخلاص المشورة للمستشير ، وصدق التبليغ فيما كلف الشخص أن يبلغه .

فالذى يستودعك سرا واثق بك ، مطمئن إلى كتمانك ؛ فأنت على سره أمين .

والذى يستشيرك يفضى إليك بما فى نفسه ، ويتوقع أن تبدى له رأيك صريحاً وإن خالفه ، فإن فعلت فأنت أمين .

والذى يكلفك تبليغ خبر إلى آخر ، قد اختارك للتبليغ عنه ؛ فإذا ما أديت الرسالة صحيحة فأنت أمين .

وهكذا ترتبط الأمانة فى معناها الخاص وفى معناها العام بعدة فضائل كالصدق والصبر والشجاعة والعفة والوفاء والعدل .

وقد أمر الله تعالى برد الأمانة ، وامتدحها ، وعقب على هذا الأمر بالتخويف من الخيانة ، لأنه سبحانه يسمع ما يقال ، ويرى ما يفعل ، « إِنَّ اللهَ يأْمُرُكم أَن تُؤَدُّوا الأَماناتِ إلى أَهْلِهَا ، وإذا حَكَمْتُمْ بيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بالعَدْلِ ، إنَّ اللهَ نِعِمَّا يعِظكم به ، إنَّ اللهَ كان سميعاً بصيرا[1] » .

وقال فى التداين : « يأَيها الذين آمنوا إذا تَداينْتُمْ بدَيْنٍ إلى أجل مُسَمًّى فاكتبوه ..... وإن كنتم على سفَر ولم تَجِدُوا كاتباً فرِهانٌ مقبوضةٌ ، فإنْ أَمِنَ بعضكم بعضاً فليُؤَدِّ الذى اؤْتُمِنَ أَمانَتَهُ ولْيتَّق اللهَ ربَّهُ »[2] .

وذكر فى الناجين من عذاب جهنم « وَالذين هُمْ لأَماناتِهِم وعهْدِهِم راعُون[3] » .

مظاهرها

أمانة الرسول كفضائله كلها شاملة كاملة متعددة المظاهر :

١ – وليس من شك فى أن مظهرها العظيم هو نهوضه بتبليغ الرسالة التى ائتمنه الله عليها ، وكلفه أن يقوم بها ، فبلغها للناس أعظم ما يكون التبليغ ، وقام بأدائها أعظم ما يكون القيام ، واحتمل فى سبيلها أشق ما يحتمله بشر .

٢ – وقد عرف العرب أمانة الرسول قبل بعثته ، فكانوا يسمونه الأمين[4] ، ولهذا رحبوا بحكمه فيما كان بينهم من نزاع وارتضوا ما قضى به .

---

(١) سورة النساء ٥٨
(٢) سورة البقرة ٢٨٢–٢٨٣
(٣) سورة المعارج ٣٢
(٤) تاريخ الطبرى ٢/ ٢٥١

ذلك أنه لما بلغ خمساً وثلاثين سنة اجتمعت قريش لبناء الكعبة ، وجزأت العمل ، فكان جانب الباب لبنى عبد مناف وزُهْرة ، وكان ما بين الركن الأسود والركن اليمانى لبنى مخزوم وقبائل من قريش انضموا إليهم ، وكان ظهر الكعبة لبنى جُمَح وسَهْم ، وكانت ناحية الحِجْر لبنى عبد الدار ابن قُصى ولبنى أسد بن العُزَّى بن قصى ولبنى عدِى بن كعب بن لُؤَىّ وهو الحَطيم .

وكان رسول الله وعمه العباس فيمن يحملون الأحجار من أشراف قريش .

ولما انتهوا من هدمها جمعوا الحجارة لبنائها ، ثم بنوها حتى بلغ البنيان موضع الركن – الحجر الأسود – فاختصموا فيه ، كل قبيلة تريد أن ترفعه إلى موضعه دون الأخرى ، حتى كادوا يتقاتلون ، فقربت بنو عبد الدار جَفْنةً مملوءة دماً ، ثم تعاقدوا هم وبنو عدى بن كعب على الموت وأدخلوا أيديهم فى ذلك الدم ، فسُمُّوا لعَقة الدم ، فمكثت قريش على ذلك أربع ليال أو خمساً ، ثم أشار أحدهم بأن يحكموا بينهم أول من يدخل من باب المسجد ، فرضوا ، فكان أول داخل عليهم رسول الله ، فلما رأوه قالوا : هذا الأمين ، رضينا ، هذا محمد ، فلما أخبروه الخبر ، قال : آتونى ثوباً ، فأتوه به ، فأخذ الحَجر الأسود فوضعه فيه بيده ، ثم قال : لتأخذ كل قبيلة بناحية من الثوب ، ثم ارفعوه جميعاً ففعلوا ، حتى إذا بلغوا به موضعه وضعه هو بيده ، ثم بنى عليه . وكان ذلك قبل الهجرة بثمان عشرة سنة(١) .

---

(١) سيرة ابن هشام ١/٢٠٤–٢١١ وتاريخ الطبرى ٢/٢٠١ ونور اليقين ٢١

وبهذا أرضى القبائل كلها ، وحسم نزاعها ، وأشركها فى الشرف الذى كانت تتنافس عليه ، لأن البيت محجهم جميعاً ، ولأنه أول بيت أُقيم للعبادة « إنَّ أولَ بيتٍ وُضِع للناس لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُباركاً وهُدًى للعالَمِين . فيهِ آياتٌ بيناتٌ مقامُ إبراهيم ، ومَنْ دخلَه كان آمِنًا (1) » .

كانت أمانة النبي هى التى طمأنت قريشاً إلى فصله فيما بينها ، وهى التى جنبتها القتال الذى كان يوشك أن تشتعل ناره .

وكان استقلاله بوضع الحجر فى مكانه إيذاناً بأنه صاحب الرسالة الخالدة التى تعيد الناس إلى صحة العقيدة وصواب الدين ، وتردهم إلى الحنيفية السمحة التى دعا إليها إبراهيم عليه السلام .

٣ – جاء رجل إلى النبى يسأله ، فقال : اجلس سيرزقك الله .

ثم جاء آخر ثم ثالث ، فقال لهم : اجلسوا . فجاء رابع بأربع أواق ، وقال : يا رسول الله إن هذه صدقة .

فدعا الرسول الرجل الأول فأعطاه أوقية ، ودعا الثانى فأعطاه أوقية ، ودعا الثالث فأعطاه أوقية ، وبقيت معه أوقية واحدة ، فعرض بها القوم ، فما قام أحد .

فلما كان الليل وضعها تحت رأسه ، فجعل لا يأخذه النوم ، فيرجع ويصلى ، فقالت له السيدة عائشة : يا رسول الله ، هل بك شىء ؟ قال : لا قالت : فجاءك أمر من الله ؟ قال : لا . قالت : إنك صنعت الليلة شيئاً لم تكن تفعله .

---

(1) سورة آل عمران ٩٦–٩٧ .

فأخرج الأُوقية ، وقال : هذه التى فعلت بى ما ترين ، إنى خشيت أن يحدث أمر من الله ولم أمضها .

٤ ـ كان رسول الله إذا أصاب غنيمة أمر بلالا فنادي ثلاثاً فى الناس ، فيجيئون بغنائمهم ، فيقسمه ويُخَمِّسهُ ، فجاء رجل بعد ذلك بزمام من شَعر فقال : يا رسول الله هذا فيما كنا أصبنا من الغنيمة ، فقال : أسمعت بلالا ينادى ثلاثاً ؟ قال : نعم ، قال : فما منعك أن تأْتينى به ؟ فاعتذر إليه ، فقال النبي : لن أقبله منك حتى تكون أنت الذى توافينى به يوم القيامة[1] .

٥ ـ استعمل رسول الله عاملا ـ ابن الُّلتيبة ـ على الصدقة ، فجاءه العامل حين فرغ من عمله فقال : يا رسول الله هذا لكم ، وهذا أُهْدِى إلى ، فقال له : أفلا قعدت فى بيت أبيك وأُمك ، فنظرت أَيُهْدَى إليك أم لا .

ثم قام عشية بعد الصلاة فقال : أما بعد ، فما بال العامل نستعمله فيأْتينا فيقول : هذا من عملكم ، وهذا أُهدى إلىَّ ؟ أفلا قعد فى بيت أبيه وأُمه ، فنظر هل يُهْدى له أم لا ؟

فوالذى نفس محمد بيده لا يَغُلُّ أحدكم منها شيئاً إلا جاء به يوم القيامة يحمله على عنقه ، إن كان بعيرا جاء له رُغاء ، وإن كانت بقرة جاء بها لها خُوار ، وإن كانت شاة جاء بها تَيْعر[2] .

٦ ـ قال جابر بن عبد الله : أتيت النبي صلى الله عليه وسلم وهو فى المسجد ضُحًى ، فقال : صل ركعتين ، وكان لى عليه دين فقضانى وزادنى[3] .

---

(١) مسند أحمد ٢٠١/١١

(٢) فتح البارى ٢٨٥/٣ ، ١٤١/٣١ وصحيح مسلم ٢١٩/١٢ ، تيعر : تصيح .

(٣) فتح المبدى ٢٢٩/٢ قضاه ثمن الجمل الذى اشتراه منه وزاده قيراطا .

٧ ـ أتى رجل إلى النبى يتقاضاه ، فأغلظ ، فهمَّ به أصحابه وأرادوا أن يؤذوه ، فقال رسول الله : دعوه ، فإن لصاحب الحق مقالا[١] .

ثم قال : أعطوه سِنًّا مثل سنه[٢] ، قالوا : يا رسول الله لا نجد إلا أمثل من سِنِّهِ ، فقال : أعطوه ، فإن خيركم أحسنكم قضاء[٣] .

٨ ـ مر على كومة من الطعام فأدخل يده فيها ، فنالت أصابعه بللا ، فقال : ما هذا يا صاحب الطعام ؟ قال : أصابته السماء يا رسول الله . قال : أفلا جعلته فوق الطعام حتى يراه الناس ، من غشنا فليس منا .

٩ ـ بعث عبد الله بن رَوَاحَةَ إلى خيبر ليَخْرِصَ ما على نخلها من ثمر . فجمع له اليهود حُلِيًّا من حُلِىِّ نسائهم ، فقالوا : هذا لك ، وخفف عنا ، وتساهل فى التقدير . فقال عبد الله : يا معشر يهود ، والله إنكم لمن أبغض خلق الله إلىَّ ، ولكن ذلك لا يحملنى على أن أحيف[٤] عليكم ، فأما ما عرضتم على من الرشوة فإنها سُحْتٌ ، وإننا لا نأكلها .

فقالوا : بهذا قامت السماوات والأرض .

حضه على الأمانة

قال عليه الصلاة والسلام :

١ ـ العاريةُ مُؤَدَّاة ، والمِنْحَةُ[٥] مردودة ، والدَّين مَقْضِىٌّ ، والزعيم[٦] غارم[٧] .

---

(١) له صولة فى الطلب وقوة فى الحجة .
(٢) جملا سنه مثل الذى له .
(٣) فتح المبدى ٢/٢٠٩
(٤) أحيف : أجور .
(٥) المنحة : الشاة أو الناقة تعطيها غيرك ليشرب لبنها ثم يردها اذا انقطع لبنها .
(٦) الزعيم : الضامن .
(٧) كنز العمال ٢/١٥ وتيسير الوصول ١/٣١

فقال رجل : فعهد الله ؟ قال : عهد الله أحق ما أُدِّى .

٢ ـ أَدِّ الأَمانة إلى من ائتمنك ، ولا تَخُنْ من خانك [١] .

٣ ـ من انتهب فليس منا [٢] .

٤ ـ من ظَلَم قِيدَ شِبْرٍ من الأَرض طُوِّقَهُ من سَبْعِ أَرَضِين [٣] .

٥ ـ كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته ، فالإمام راع وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع فى أهله ، وهو مسئول عن رعيته ، والمرأة راعية فى بيت زوجها ، وهى مسئولة عن رعيتها ، والخادم راع فى مال سيده ، وهو مسئول عن رعيته ، والرجل راع فى مال أبيه وهو مسئول عن رعيته فكلكم راع ، وكلكم مسئول عن رعيته [٤] .

٦ ـ لا إيمان لمن لا أمانة له ، ولا دين لمن لا صلاة له [٥] .

٧ ـ أيما رجل أصاب مالا من غير حِلِّهِ ، وأنفق منه لم يبارك له فيه ، وإن تصدق لم يقبل منه ، وما بقى فزاده إلى النار ، إن الخبيث لا يُكَفِّرُ الخبيث ، ولكن الطيب يكفر الطيب [٦] .

٨ ـ لن تزال أُمتى على الفطرة مالم يتخذوا الأَمانة مَغْنماً والزكاة مغْرماً [٧] .

٩ ـ من أخذ أموال الناس يريد أداءها أدى الله عنه ، ومن أخذها يريد إتلافها أتلفه الله [٨] .

١٠ ـ لا يدخل الجنة لحم نبت من سُحْت [٩] .

١١ ـ أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خصلة

---

(١) الى (٧) كنز العمال ٢/١٥ وتيسير الوصول ٣١/١

(٨) فتح المبدى ٢٢٨/٢ والجامع الصغير ٣٤٣/٢

(٩) المجازات النبوية ٨٩ .

منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها ، إذا اؤتمن خان ، وإذا حدث كذب ، وإذا عاهد غَدر ، وإذا خاصم فَجر(١) .

١٢ - قال أُبيّ بن كعب : وجدت صُرَّة فيها مئة دينار ، فأتيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : عَرِّفها حوْلًا فعرفتها ، فلم أجد من يعرفها . ثم أتيته فقال عرفها حولا ، فعرفتها فلم أجد من يعرفها ، ثم أتيته ثالثاً فقال : احفظ وِعاءها وعددها ووِكاءها ، فإن جاء صاحبها ، وإلا فاستمتع بها(٢) .

١٣ - إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة الرجل يُفْضى إلى امرأته وتفضى إليه ثم ينشر سِرَّها(٣) .

١٤ - إنى لأنقلب إلى أهلى فأجد التمرة ساقطة على فراشى ، فأرفعها لآكلها ، ثم أخشى أن تكون صدقة فأُلقيها(٤) .

١٥ - إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا اؤتمنوا لم يخونوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا باعوا لم يُطْروا ، وإذا كان عليهم لم يَمْطُلوا ، وإذا كان لهم لم يُعَسِّروا(٥) .

١٦ - أربع إذا كن فيك فلا عليك ما فاتك من الدنيا : حفظ أمانة ، وصدق حديث ، وحسن خليقة ، وعفة فى طُعْمة(٦) .

---

(١) فتح المبدى ١/٦٥

(٢) فتح المبدى ٢/٢٣٥ هذه هي اللقطة وهى كل مال ضائع لايعرف مالكه وأكثر ماتطلق على غير الحيوان ، لأن الحيوان يقال له ضالة ، الوكاء : مايشد على رأس الصرة والكيس وانما أمره بذلك ليعرف صدق مدعيها ، ولئلا تختلط بماله

(٣) الجامع الصغير ١/٢٥٠

(٤) فتح المبدى ٢/٢٣٤

(٥) الجامع الصغير ١/٣٢٠

(٦) مسند أحمد ١٠/١٨٢

الفصل التاسع

الصبر

حقيقته

العلماءُ مختلفون فى تعريف هذه الفضيلة اختلافاً كبيرا ، وهذا عرض وجيز لتعريفهم ، ثم تعقيب عليه بما أراه .

١ - فهو كما قال الغزالى الصبر على الأذى ، واحتمال الجفاء ، ومن شكا من سوء خلق غيره دل ذلك على سوء خلقه ، فإن حسن الخلق احتمال الأذى(١) .

وقال فى موضع آخر إن الصبر ثباتُ باعث الدين فى مقاومة باعث الهوى وهو ضربان :

بدنى كتحمل المشاق فى الأعمال والعبادات ، وهو محمود إذا وافق الشرع .

وضرب آخر هو الصبر النفسى عن مشتهيات الطبع ومقتضيات الهوى .

فإن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمى عفة .

وإن كان على احتمال مكروه فى مصيبة سمى صبرا ، وضده الجَزَع والهَلَع .

---

(١) الاحياء ٣/٦١

وإن كان في احتمال الغنى سمى ضبط النفس ، وضده البَطَر .

وإن كان فى حرب سمى شجاعة ، وضده الجبن .

وإن كان فى كَظْم الغيظ والغضب سمى حِلْما ، وضده التَّذَمُّر .

وإن كان في نائبة من نوائب الدهر سمى سعة الصدر ، وضده الضَجر والتَّبَرُّم .

وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر .

وإن كان عن فضول العيش سمى زهدا ، وضده الحِرْص .

وإن كان على قدر يسير من الحظوظ سمى قناعة ، وضده الشَّرَه .

فأكثر أخلاق الإيمان داخل فى الصبر ، ولذلك لما سئل النبى عن الإيمان مرة قال : « هو الصبر » ، لأنه أكثر أعماله وأعزها ، كما قال : « الحج عرفة[1] » .

ويتبين من هذا أن الإمام الغزالى قصر الصبر على بعض ما تدل عليه الكلمة من صبر على الأذى واحتمال المكروه ، ثم توسع فى دلالتها توسعاً شمل كثيرا من الفضائل كالعفة والشجاعة والحلم وكتمان السر والزهد والقناعة .

والحقيقة أن بعض الفضائل متشابكة متداخلة كالصبر والحلم ، وبعضها أوسع نطاقاً من بعض ، كالعدل فإنه يشمل الأمانة ، وكالعفة فإنها أشمل من القناعة ، ولكن هذا لا يقتضى أن ندمج فضيلة فى أخرى . فنجعل العفة والشجاعة والزهد وكتمان السر صبرا ، لأن هذا الإدماج

---

(١) الاحياء ٤/٥٨

يفقد بعض الفضائل كيانها واستقلالها وإيحاءها الخاص ؛ وليس من الصواب أن نتكلف فنحشد عدة فضائل فى فضيلة ، أو نحشد الفضائل كلها فى فضيلة واحدة .

٢ ـ وقال بَولْزِن الألمانى : الصبر هو احتمال الآلام بدون أن تذهب بنفس الشخص ، وهو نوعان : نوع يرجع إلى الاحتمال ، ونوع يرجع إلى الفاعلية .

فالأول احتمال الآلام من غير تذمر ولا معارضة .

والثانى قوة فى الخاطر ، بحيث يجد الشخص من نفسه قدرة على النهوض والإقدام على العمل مرة ثانية بعد انكسار أو خسارة أو نحوهما [١]

والذى ألاحظه أن الشق الأول من التعريف ينطبق على الصبر ، أما الشق الثانى فإنه يتصل بقوة العزيمة ، وصلابة الإرادة ، وتجدد الأمل ، وهذا ليس صبرا بل هو من ثمرات الصبر .

٣ ـ أما التعريف الذى أختاره للصبر فإننى أستنبطه من القرآن الكريم .

وذلك أن الذى يتعقب كلمة الصبر فى كتاب الله يجدها ذات دلالات ، لا تتعدى الثبات والجلد واحتمال المكاره فى غير ما قلق أو خَوَر أو جزع .

وهذه الدلالات هى :

ا ـ الصبر على القيام بما فرض الله من عبادات وطاعات ، وهو يمثل

(١) الاخلاق ١٠١ عبد الرحمن زغلول

الإذعان لأمر الله ، والمقدرة على كبح الهوى ، والتغلب على الإغراء بالعصيان أو التهاون .

ب ـ الصبر فى حماية الدين والوطن ، وفى الكدح لكسب الرزق ، والكد فى مجالى الإنتاج ، والجد فى العمل .

وهو يبعث الأمل ، ويجدد النشاط ، ويشحذ العزم.

حـ ـ الصبر على احتمال الأذى فى الدعوة إلى الحق ، وفى الكشف عن الضلال ، وفى تبصرة الناس بالخير .

وهو المصباح الذى يهدى البشر إلى معارج الكمال .

د ـ الصبر فى تقبل قضاء الله بتسليم وإذعان ، حين فقد الأعزاء ، وموت الأحباء ، ونزول الأمراض ، وحدوث النكبات .

وفى هذا الصبر تماسك وجلد ، وبعدٌ عن الجزع الذي يضخم الكوارث ويضعف القوى ويستدعى السخط .

وهذا هو الذى يفهم من الآيات الكريمة ، سواء أكانت خطاباً للنبى عليه الصلاة والسلام ، أم خبرا عن غيره ، أم توجيهاً للمسلمين .

قال تعالى : «فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُوا العَزْمِ مِنَ الرُّسلِ[1]» ، فقد ثبتوا صابرين على المكاره ، مثل نوح إذ كان قومه يضربونه حتى يُغْشَى عليه وإبراهيم إذ ألقى فى النار ، ويعقوب إذ فقد ابنه يوسف وفقد بصره ، وأيوب إذ صبر على الضر[2] .

وقال سبحانه : «فاصْبِرْ لِحُكْمِ ربِّك ، ولاَ تكُنْ كصاحِبِ الحُوتِ إذْ

---

(١) سورة الأحقاف ٣٥
(٢) الكشاف ٢/٣٧٥

نادى وهُوَ مكْظُوم[1] » ، أى لا تكن مثل يونس إذ نادى فى بطن الحوت وهو مملوءٌ غيظاً ، لأنك لو ضجرت كضجره ابتليت ببلائه .

وقال تعالى : «واصْبِرْ على ما يَقُولُونَ ، واهْجُرْهُمْ هجرًا جميلا[2]» أى اصبر على أذى الكفار ودعاواهم الباطلة ، وقد كان هذا قبل الأمر بقتالهم .

وقال سبحانه : «إنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا عليك القرآنَ تنزيلا ، فاصْبِرْ لِحُكْمِ ربِّكَ ، ولا تُطِعْ منهم ءاثِمًا أو كفورا[3]» .

أى فانتظر فى ثبات حكم ربك المتعلق بحكمته وتعليقه الأمور بالمصالح ، وتوقيعه الأحداث بعلمه وتدبيره ، ولا تجزع من تأخر نصر الله لك على أعدائك من أهل مكة ، ولا تطع أحدا منهم ضعفاً أو قلقاً أو ضجرا من إمهال الظفر .

وقال تعالى : «وإنْ عاقَبْتُمْ فعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقبتم به ، ولَئِنْ صبَرْتُمْ لهُوَ خيرٌ للصَّابِرين. واصْبِرْ وما صَبْرُكَ إلا بالله ، ولا تَحْزَنْ عليهم ، ولا تَكُ فى ضيقٍ مما يَمْكُرُونَ »[4] .

فهنا أمر بالعدل فى الثأر ، وترجيح للصبر على الأذى ، وإيثار لاحتمال الألم من ترك العقوبة على السيئة بمثلها .

وقال تعالى : «ولَقَدْ كُذِّبتْ رُسُلٌ من قَبْلِكَ فَصَبرُوا على ما كُذِّبُوا وأُوذُوا حتى أتاهمْ نَصْرُنا[5]» .

---

(1) سورة القلم ٤٨ مكظوم : مملوء غما فى بطن الحوت
(2) سورة المزمل ١٠ هجرا جميلا : لاجزع فيه
(3) سورة الانسان ٢٣-٢٤
(4) سورة النحل ١٢٧
(5) سورة الأنعام ٣٥

وقال تعالى : «ولَنَبْلُونَّكُمْ بشيء من الخَوْفِ والجوع ونَقْصٍ منَ الأَموالِ والأَنْفُسِ والثَّمراتِ ، وبشِّر الصابرينَ الذِينَ إِذَا أَصابتْهُمْ مصيبةٌ قالوا إنَّا لله وإنا إليهِ رَاجِعُونَ ، أُولَئِكَ عليْهِمْ صَلَواتٌ مِنْ ربِّهِم ورحْمَةٌ ، وأُولَئِكَ هُمُ المُهْتَدُونَ »(1) .

فاحتمال الخوف والجوع ونقص المال وفقدان الأَنفس صبر . والمحمود في هذه الحالات الاسترجاع ، لأَنه دليل التسليم والإذعان ، ولهذا روى عن النبي صلى الله عليه وسلم : من اسْتَرجَعَ عِند المصيبة جبر الله مصيبته ، وأحسن عُقْباه ، وجعل له خَلَفاً صالحاً يرضاه .

وذكر تعالى من الأَبرار «والصَّابرينَ فى البَأْساءِ والضَّرَّاءِ وحِينَ البَأْسِ(2) » وهم الثابتون فى الفقر والشدة وفي المرض والزمانة ، وفي ميادين الجهاد .

وقال تعالى : «ولَنبْلُونَّكُمْ حتىَّ نعْلَمَ المُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ والصَّابرين ونَبْلُو أَخْبَارَكُم(3) » .

وقال سبحانه : «أَمْ حسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الجنَّةَ ولما يعْلَم اللهُ الَّذِين جَاهَدُوا منْكُم ، ويَعلَم الصَّابِرِينَ(4) » ، والمراد بعلمه سبحانه ما يتعلق العلم به من جهاد وصبر على الجلاد .

وقال تعالى : «لَتُبْلَوُنَّ فى أَمْوالِكُمْ وأَنْفُسِكُمْ ، ولَتَسْمعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ من قَبْلِكُمْ ومِنَ الذين أَشركُوا أَذًى كثيرا ، وإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا فإِن ذلك مِنْ عزْمِ الأُمورِ(5) » .

---

(1) سورة البقرة ١٥٥-١٥٧
(2) سورة البقرة ١٧٧ البأساء : شدة الفقر . الضراء : المرض . حين البأس : شدة القتال فى سبيل الله
(3) سورة محمد ٣١
(4) سورة آل عمران ١٤٢
(5) سورة آل عمران ١٨٦

والمراد بالبلاء فى الأموال حدوث آفات لها ، وإنفاقها في سبل الخير ، والمراد بالبلاء فى الأنفس القتل والأسر والجراح والمخاوف ، وأما الأذى الكثير فهو ما ينشأ عن طعن أعدائهم فى الإسلام ، وصدهم من أرادوا الإيمان ، وتسفيههم من آمنوا ، وهجاء المشركين واليهود للنبي وللمسلمين. واحتمال هذا كله صبر وقوة عزيمة .

٤ ـ وقد تردد الصبر في نَيِّفٍ وسبعين موضعاً من القرآن الكريم ، وصف الله فيها الصابرين بعدة أوصاف ، ووعدهم بدرجات عالية من الثواب والخير والتأييد ، مثل قوله تعالى : «وجَعَلْنَا منهُمْ أئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا[1] » .

وقوله سبحانه : «وَلَنَجْزِيَنَّ الذينَ صَبَرُوا أَجْرَهُمْ بأَحْسَنِ ما كَانُوا يعْمَلُونَ[2] » .

وقوله تعالى : «أُولئك يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُمْ مَرَّتَيْنِ بما صَبَرُوا[3] » .

وقوله سبحانه : «إِنَّما يُوَفَّى الصابِرُونَ أَجْرَهُمْ بِغَيْرِ حِسابٍ[4] » .

وقوله تعالى : «واصْبِرُوا إِنَّ اللهَ معَ الصَّابِرِين[5] » .

وقوله سبحانه : «إِن يَكُنْ مِنْكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مائَتَيْن ، وإِن يَكُنْ منكمْ مائةٌ يَغْلِبُوا أَلفًا مِنَ الذِينَ كفروا[6] » .

---

(١) سورة السجدة ٢٤
(٢) سورة النحل ٩٦
(٣) سورة القصص ٥٤
(٤) سورة الزمر ١٠
(٥) سورة الانفال ٤٦
(٦) سورة الانفال ٦٥ .

مظاهره

قضى رسول الله ثلاثاً وعشرين سنة يدعو إلى التوحيد الخالص عبدة الأوثان واليهود والنصارى ، دعوة قوية لا يخفِتُ صوتها ، ولا ينقطع صَداها ، وهم يجدون في هذه الدعوه تسفيهاً لعقولهم ولالهتهم ، وتقويضاً لسلطانهم ونفوذهم ونظمهم ، فيحشدون قواهم لوأدها أو لتعويق انتشارها : فلا يزداد الرسول إلا حماسة لدعوته وإصرارا عليها ، وكلما أمعنوا في إيذائهم له تعالى على الأذى ، فاحتمله في ثبات وجلد وصبر ، ثم أذن الله له في الجهاد فجاهد حتى كتب الله لدينه النصر ، فصار أعداءُ الأمس أصدقاء اليوم ، وأقبل المشركون على دين الله أفواجاً يحملون شعاره ، ويرفعون مناره ، ويفدونه بأغلى ما يُفْتَدَى به عزيز .

١ ــ لقد صبر الرسول على جراح الألسنة ، وإنها لأليمة في مجتمع يحرص على الثناء وحسن الأُحْدوثة أيما حرص ، وينفر من المذمة والهجاء أيما نفور ، لأن الألسنة تقوم فيه مقام الصحف والإذاعة ووسائل الأعلام في المجتمع المعاصر ، حتى لقد كان بعض السَّراة يغدق على الشعراء استدرارا لمدائحهم واتقاء لهجائهم .

وكان رسول الله في مطلع الدعوة أشد ما يكون شوقاً إلى أن يصدقه قومه ، ليرفعهم من الضلالة إلى الهدى ، ومن العَمَاية إلى الرشاد ، وكان موسوماً بينهم بالعقل والحكمة والصدق والأمانة والعفة ، لم يسمعوا منه كذبة قط ، ولم يتناقلوا عنه نقيصة قط .

ولكنهم عاندوا الحق ، واستكبروا أن يتخلوا عما ألفوا عليه آباءهم ، فجرتهم الخصومة الحمقاءُ إلى أن يَعْمِدُوا إلى الافتراء ، فإذا هم يتهمون الرسول

بأنه حالم يهذى بما تراءى له في المنام ، وإذا هم يصوبون إليه تهمة باطلة يعلمون أنه منها براء ، فينسبون إليه الكذب والادعاء ، وإذا هم يلصقون به ما تعارفوا عليه في شعرائهم من تخيل ومبالغة ومهارة فى التأثير والاستهواء ، ثم يتمادون فى السفه فيتهمونه بالجنون وهو سيد العقلاء.

قال تعالى : «بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحلامٍ ، بَلِ افْتراه ، بَلْ هُوَ شاعرٌ ، فَلْيَأْتِنا بآيَةٍ كما أُرْسلَ الأَوَّلُونَ (١) » .

وقال تعالى : «ويقولون أئِنَّا لَتارِكُوا آلِهَتِنَا لشاعرٍ مَجْنُون (٢) » .

وقال تعالى : «أَمْ يقُولُونَ شاعِرٌ نَتَرَبَّصُ به رَيْب المنون (٣) » .

أى ننتظر به حوادث الدهر فنتخلص منه بموت أو بحادث مهلك .

وقال سبحانه : «وقَالُوا يأَيها الذِى نُزِّلَ عليْه الذِّكْر إنَّكَ لَمَجْنُون (٤) » .

وقد نفى عنه الخالق سبحانه أراجيفهم بقوله : «وما هُوَ بقول شَاعِرٍ ، قليلاً ما تُؤْمِنُونَ ، ولَا بِقَوْلِ كاهنٍ قليلاً مَا تَذَكَّرُونَ (٥) » .

وبقوله : «فَذَكِّرْ ، فَمَا أَنْتَ بنِعْمَةِ ربِّكَ بكَاهِنٍ ولا مَجْنُونٍ (٦) » .

وبقوله : «ن والقلمِ وما يَسْطُرون مَا أَنْتَ بنعْمةِ ربِّكَ بمجنون (٧) » .

٢ ـ وكثيرا ما آذوه بأفعال قبيحة مصدرها الحنَقُ والطيش والسَّفَه والاستهانة ، يريدون أن يصدوه عن دين الله ، ويريدون أن يوئسوه

---

(١) سورة الانبياء ٥

(٢) سورة الصافات ٣٦

(٣) سورة الطور ٣٠ المنون : الهلاك والموت

(٤) سورة الحجر ٦

(٥) سورة الحاقة ٤١ـ٤٢

(٦) سورة الطور ٢٩

(٧) سورة القلم ١ـ٢

من نجاح دعوته ، وأن يفضوا أتباعه من حوله ، فكان يتلقى قبائحهم بالصبر الذى يشق طريقه إلى النصر ، وبالجلد الذى يغلب بحكمته جهلهم ، ويفوت عليهم أغراضهم ، إذ كان هذا الصبر العظيم دليلا على أن الرسول صادق مبلغ عن ربه ، وإلا ما احتمل هذا العدوان ، وهو لا يطالب مُلْكاً ، ولا يبتغى جاهاً ، ولا يتطلع إلى مال ، فجعل الناس يقبلون على الإسلام فرادى وجماعات ، وجعلوا يتحملون أذى المشركين فى شجاعة وثبات ، وهم يودون أن يفتدوا رسول الله مما يحتمل من عدوان وإعنات .

وهذه بعض صور من صبر الرسول على الإيذاء بالأعمال :

ا ـ قال ابن مسعود: كنا مع رسول الله فى المسجد وهو يصلى ، فقال أبو جهل ألا رجل يقوم إلى فرث جزور بنى فلان ، فيلقيه على على محمد وهو ساجد

فقام عُقْبةُ بن أبى مُعَيْط ، وجاء بذلك الفَرْث ، فألقاه على النبي وهو ساجد ، ولم يقدر أحد من المسلمين الذين كانوا بالمسجد على حماية النبي أو على رمى القذر بعيدا عنه ، لأنهم كانوا حينئذ ضعافاً . ولم يزل الرسول ساجدا حتى جاءت فاطمة بنته ، فرمت القذر بعيدا عنه .

ب ـ كان عُقْبة بن أبى مُعَيْط جارا لرسول الله ، وكان يؤذيه كما يؤذيه جاره الآخرعمه أبو لَهَب وامرأته أُم جميل بنت حَرْب بن أُمَيّة ، وقد صنع عقبة وليمة ودعا لها كبراء قريش وفيهم الرسول ، فقال الرسول :والله لا آكل طعامك حتى تؤمن بالله ، فتَشهدَ ، فبلغ ذلك أُبَىَّ بن خَلَف الجُمَحِى ، وكان صديقاً لعُقْبة ، فقال : ياعقبة ،

ما شيء بلغني عنك ؟ قال : لا شيء ، دخل منزلى رجل شريف ، فأبى أن يأكل طعامى حتى أَشْهَدَ له ، فاستحييت أن يخرج من بيتى ولم يَطْعَمْ ، فشهِدْتُ لَهُ .

قال أُبيٌّ : وجهى من وجهك حرام إن لقيتَ محمدا فلم تطأعنقه ، وتَبْزُقَ في وجهه ، وتَلْطُمَ عينه .

فلما رأى عقبة رسول الله فعل به ذلك فوطىء عنقه وهو ساجد عند الكعبة ، حتى كادت عيناه تبرزان ، فأنزل الله فيه قوله : «وَيوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ على يَدَيْهِ يقُولُ : يَا لَيْتَنى اتَّخَذْتُ معَ الرّسولِ سبيلا ، يا ويْلَتَى ليتنى لَمْ أَتَّخِذْ فلانًا خليلا ، لَقَدْ أَضَلَّنى عنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جاءَنى وكان الشيطانُ للإنسان خَذُولًا » (١)

حـ ــ قال أبو جهل ــ عمرو بن هشام بن المغيرة المخزومى القرشى ــ : يا معشر قريش ، إن محمدا قد أتى ما ترون من عيب آلهتكم ، وتسفيه أحلامكم ، وسب آبائكم ، وإنى أعاهد الله لأجلسنّ له غدا بحجَر ، فإذا سجد فى صلاته شَدَخْتُ به رأسه ، فأسلمونى عند ذلك أو امنعونى .

فلما أصبح حمل حَجَرا ضخماً ، وجلس ينتظر رسول الله ، وأقبل الرسول إلى صلاته ، وقريش فى ناديهم ينتظرون ما يفعل أبو جهل ، فلما سجد الرسول أقبل أبو جهل نحوه بالحَجَر ، حتى إذا دنا منه ارتد مذعورا ممتقع اللون ، وألقى الحَجَر من يده ، فقام إليه رجال من النادى يسألونه : ما بك يا أبا الحكم ؟

---

(١) سورة الفرقان ٢٧ــ٢٩

قال : دنوت منه لأَرْضَخ رأْسه بالحجر ، فعرَضَ لى فحل من الإبل ما رأيت مثله قط ، همَّ بى ليأْكلنى .

د – كان نفر من جيران رسول الله يؤذونه ، فيطرح عليه أحدهم رحِمَ الشاة وهو يصلى ، ويطرح الآخر رحم الشاة في قِدْرِه إذا نُصِبَتْ له ، حتى اتخذ الرسول حِجْرا يستتر به منهم إذا صلى ، وكان إذا ما طرحوا عليه الأذى يحمله على عود ، فيقف به على بابه ، ثم يقول : يا بنى عبد مناف ، أىُّ جِوارٍ هذا ، ثم يلقيه في الطريق (١) .

هـ – انتهزت قريش وفاة السيدة خديجة – وكانت للرسول مصدر حنان ونَجِىٍّ نفس وخير معين – ووفاة عمه أبى طالب – وكان له عضدا وحامياً ونصيرا – وذلك قبل الهجرة بثلاث سنين ، فأمعنت فى الأذى ، وطمعت فيما لم تكن تطمع فيه وأبو طالب حى ، فاعترضه سفيه من قريش ، فحثا على رأْسه ترابا ، فدخل الرسول على بيته والتراب على رأسه ، فقامت إليه إحدى بناته فجعلت تغسل التراب عنه وهى تبكى ، وهو يقول لها : لا تبك يا بنية ، فإن الله مانعٌ أباك . (٢)

و – لما مات أبو طالب واشتدت قريش فى إيذاء النبى خرج إلى الطائف ، فعمد إلى نفر من ثَقِيف هم يومئذ سادتها ، فجلس إليهم ، فدعاهم إلى الإسلام ، واستنصرهم على من خالفوه من قومه ،

---

(١) سيرة ابن هشام ٥٧/٢
(٢) سيرة ابن هشام ٥٨/٢

فقال له أحدهم : أما وجد الله أحدا يرسله غيرك ؟ وقال الاخر : أَنْزِعُ أستار الكعبة وأرميها إن كان الله قد أرسلك ، وقال الثالث : والله لا أُكلمك أبدا ، لئن كنت رسولا من الله كما تقول لأنت أعظم خطرا من أن أرد عليك الكلام ، ولئن كنت تكذب على الله ما ينبغى لى أن أُكلمك .

فقام الرسول من عندهم بائساً من ثقيف ، وقال لهم : أما وقد فعلتم ما فعلتم فاكتموا عنى ، لأنه خشى أن يعلم قومه بما حدث له فيزدادوا جرأة عليه ، ولكنهم لم يستجيبوا له ، وأغروا به سفهاءهم وعبيدهم ، يسبونه ويصيحون به ، حتى اجتمع عليه الناس ، وألجأوه إلى بستان ، فاستظل بكَرْمة فيه .

فلما اطمأن قال : اللهم إليك أشكو ضعف قوتى ، وقلة حيلتى ، وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ، أنت رب المستضعفين ، وأنت ربى ، إلى من تَكِلُنى ؟ إلى بعيد يتَجهَّمُنى [١] - أم إلى عدوٌ ملَّكتَهُ أمْرى ؟

إن لم يكن بك علىَّ غضب فلا أُبالى ، ولكن عافيتك هى أوسع لى ، أعوذ بنور وجهك الذى أشرقت له الظلمات ، وصلُح عليه أمر الدنيا والآخرة ، من أن تنزل بى غضبك ، أو يحِلَّ علىَّ سخطك .

لك العُتْبى حتى ترضى ، ولا حول ولا قوة إلا بك[٢] .

---

(١) يتجهمنى : يلقانى بوجه كريه

(٢) سيرة ابن هشام ٦١/٢

٣ ـ ثم هاجر النبى من مكة إلى المدينة ، فتعقبوه ، وتتابعت محاربتهم له ، وكثيرا ما جمعو جموعهم من قبائل شتى ، للقضاء على المجتمع المثالى بالمدنية ولقد غدر يهود المدينة بعهدهم مع رسول الله ، فانضموا إلى المشركين تارة ، وحرضوهم على حربه تارة ، وأعماهم الحقد فزعموا لمشركى قريش أن لوثنية خير من دين محمد .

وكانت الحروب بين المسلمين وأعدائهم متصلة متلاحقة ، فلا يكاد المسلمون يتخففون من سلاحهم حتى ينذرهم الأعداء بحرب ، فيسارع المسلمون إلى حمل السلاح ، ولا يكادون يطمئنون إلى معاهدة أو هُدْنَة حتى يفاجئهم خصومهم بالغدر ونقض العهد ، فَيَعْجَلُون إلى سيوفهم ورماحهم .

ولقد انتصر النبي فى بدر والخندق وغيرهما ، ولكنه فقد كثيرا من خلصائه وأحبابه ، فصبر .

وانحرفت ريح النصر عن المسلمين فى غزوة أُحد ، وجرح النبى ، وكُسِرَتْ رباعيته (١) ، وشُجَّ فى وجهه ، وجرحت شفته ، وسال الدم على وجهه ، ورأى عمه الحبيب حمزة قتيلا مبقور البطن ، فصبر .

ولم يؤْثر عنه فى تلك الموقعة المثيرة أنه دعا على قومه دعوة مُبِيرة ، بل كان يمسح دمه وهو يقول : كيف يفلح قوم خَضَبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم (٢) ؟

وأُثر عنه في مأْزق آخر أو فى يوم أُحَدٍ أنه كان يقول اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون (٣).

---

(١) الرباعية : السن التى بين الناب والثنية

(٢) سيرة ابن هشام ٨٤/٣ وفتح المبدى ٣٢٧/٢ وشرح الزرقانى على المواهب اللدنية ٣٥/٢

(٣) الاحياء ٦١/٣ واللؤلؤ والمرجان ٢٦٤/٢

٤ ــ وقد كان الصبر شيمته وهو يفقد فلذات كبده وأغلى ثمره وبُضَعًا من نفسه ، فإنه فقد قبل البعثة طفليه القاسم وعبد الله ــ الملقب بالطاهر والطيب ــ ، ثم فقد بعد البعثة كريماته زينب ورُقَيَّة وأم كُلْثوم بعد أن تزوجن .

ثم رزقه الله بإبراهيم ، بعد شوق طويل إلى الولد ، ففرح به أعظم الفرح ، ووجد فيه عوضاً عمن فقد ، وأمّل أن يبقيه الله ، ليسعد به في شيخوخته ، وليكون له عَقِبًا وذكرى ، ولكن إبراهيم لم يبلغ ستة عشر شهرا أو ثمانية عشر حتى مرض ، فلما كان فى الاحتضار أُخْبِرَ النبي ، فاعتمد على عبد الرحمن بن عَوْف لشدة ألمه ، ومشى حتى رأى إبراهيم فى حِجْر أمه وهو يُصَعِّدُ آخر أنفاسه ، فوضعه فى حِجْره والحزن يعتصر قلبه العظيم ، وقال : إنَّا يا إبراهيم لا نغنى عنك من الله شيئاً . ثم صمت . وبكى .

فلما أيقن أن إبراهيم قد ودع الحياة سال الدمع من عينيه وهو يقول : يا إبراهيم لولا أنه أمرٌ حقٌّ ووعدٌ صدق ، وأن آخرنا سيلحق بأولنا لحزنَّا عليك أشد من هذا .

فقال له عبد الرحمن بن عوف : وأنت يا رسول الله ؟ فقال : يا بن عوف ، إنها رحمة . ثم أتبعها عبد الرحمن بأُخرى ، فقال النبي : إن العين تَدْمَعُ ، والقلب يحزن ، ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بفراقك يا إبراهيم لمحزونون[1] .

كان النبي فى الستين من عمره وهو يشيع ابنه الحبيب ، شاعرا

---

(١) اللؤلؤ والمرجان ١٣٢/٣ وصحيح مسلم ٧٥/١٥

بفداحة الخطب ، لكنه راض بقضاء الله ، صابرا لما أراد ، حتى إنه قال للجبل الذى أودع فيه حبيبه : يا جبل لو كان بك مثل ما بى لهدك ، ولكنْ إنا لله وإنا إليه راجعون .

ولما رأى المسلمون حزن النبي حاولوا أن يواسوه ، فقال لهم : ما عن الحزن نُهيتُ ، وإنما نُهيتُ عن رفع الصوت بالبكاء ، وإن ما ترون بى أثرُ ما فى القلب من محبة ورحمة ، ومن لم يبد الرحمة لم يبد غيره عليه رحمة ، وإنما يرحم الله من عباده الرحماء (١) .

حضه على الصبر

لقد علّم النبي المسلمين الصبر عملا ، وعلمهم الصبر إرشادا وقولا ، فحضهم على الصبر ، وحببه إليهم ، ونفرهم من الجزع ، وبغضه لهم .

وله فى هذا أحاديث كثيرة ، منها قوله :

١ ـ ما من عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى إنّا لله وإنا إليه راجعون ، اللهم اؤجرنى فى مصيبتى ، وأعقبنى خيرا منها ، إلا فعل الله به ذلك (٢) .

٢ ـ ما من مسلم يصيبه أذى إلا حَاتّ (٣) عنه خطاياه كما يَحَاتُّ ورق الشجر (٤) .

٣ ـ فى الصبر على ما تكره خير كثير (٤) .

٤ ـ أفضل الأعمال ما أُكْرِهَتْ عليه النفوس (٥) .

---

(١) الاحياء ٦٤/٤

(٢) (٥) الاحياء ٥٤/٤–٦٣ وكنز العمال ٥٧/٢ حات : ساقط

٥ ـ دخل رسول الله على جماعة من صحابته ، فقال : أمؤمنون أنتم ؟ فسكتوا ، فقال عمر : نعم يا رسول الله . قال : وما علامة إيمانكم ؟ قالوا : نشكر على الرخاء ، ونصبر على البلاء ، ونرضى بالقضاء ، فقال صلى الله عليه وسلم : مؤمنون وربِّ الكعبة [١] .

٦ ـ أتى بعض المسلمين رسول الله وهو متوسد بردائه فى ظل الكعبة ، فشكوا إليه فقالوا : يا رسول الله ألا تدعو الله تستنصره لنا ؟ فجلس محمرًّا لونه ، ثم قال : إن من كان قبلكم ليُؤْتَى بالرجل فيُحْفَرَ له فى الأَرض حفيرة ، ويُجاءُ بالمنشار فيوضع على رأْسه ، فيُجْعل فرقتين ؛ ما يَصْرِفُهُ ذلك عن دينه [٢] .

٧ ـ إن الله تعالى قال : إذْا ابتليتُ عبدى بحبيبَتَيْهِ [٣] فصبر عوضته منهما الجنة .

٨ ـ الصبر نصف الإيمان [٤] .

٩ ـ الصبر من الإيمان بمنزلة الروح من الجسد [٥] .

١٠ ـ نعم صلاح المؤْمن الصبر والدعاءُ [٦] .

١١ ـ ليس منا من لطم الخدود ، وشق الجيوب ، ودعا بدعوى الجاهلية [٧] .

---

(١) الاحياء ٦٣/٥٤/٤ وكنز العمال ٥٧/٢

(٢) الاحياء ١١٤/٤

(٣) المراد فقد عينيه

(٤) فتح المبدى ٢٨٣/٢٨٢/٣ وكنز العمال ٥٦/٢

(٥) (٦) كنز العمال ٥٦/٢

(٧) فتح المبدى ٣٥/٢ وصحيح مسلم ١٠٩/٢

الفصل العاشر

الحلم

ما الحلم

لعل خير معين لنا على تعريف الحلم أن نتعرف الغريزة التي إذا ما تغلب الحلم عليها كان فضيلة .

فما هذه الغريزة؟ إنها الغضب الذي يدعو إلى دفع المؤذيات قبل وقوعها ، أو إلى التشفي والانتقام بعد حدوثها ، فلا تسكن هذه الغريزة ولا ترضى إلا بالثأر والانتقام .

وقد قسم الغزالى الناس فى غريزة الغضب إلى ثلاث درجات [1] ، هى درجة التفريط. حينما تضعف هذه الغريزة أو تَمَّحِى ، وهم الذين يقال فيهم لا حَمِيَّةَ لهم ، وهذه حالة مذمومة ، ولذا قال الإمام الشافعى : من استُغْضِبَ فلم يغضب فهو حمار ، وهؤلاء المفَرِّطُون لا يأْنفون مما يجب أن يأْنف منه الحر ، كالمذلة والتعرض للحُرَم .

والدرجة الأُخرى درجة الإفْراط ، وهى أن تتغلب غريزة الغضب حتى تخرج عن سياسة العقل والدين وطاعته ، فلا يبقى للمرء بصيرة ونظر وفكرة

(١) الاحياء ١٤٤/٣

واختيار ، وهذه الحالة مردودة إلى أمور غريزية فطرية ، وإلى أمور اعتيادية، كأن يخالط قوماً يتبجَّحُونَ بطاعة الغضب ، ويسمون ذلك شجاعة .

وهذا الإفراط مذموم ، لأنه يُعْمِي صاحبه ويُصِمُّهُ عن كل موعظة ، ويُسْلِسُ قياده لهواه لا لعقله ، وينطقه بقبيح من الكلام ، ويدفعه إلى العدوان بالضرب أو القتل ، فإن عجز عن هذا فربما عاد على نفسه بالإهانة أو كسر ما أمامه ، ويبدو هذا الغضبان الثائر متغير اللون ، مرتعد الأطراف ، مضطرب الحركات ، محمرّ العينين ، ولو أنه رأى صورته فى حال غضبه لسكن غضبه حياء من قبحها .

وأما الدرجة المحمودة فهى الاعتدال ، وهو الغضب التابع لإشارة العقل والدين ، لأنه ينبعث حيث تجب الحَمِيَّة ، وينطفىء حيث يحسن الحلم .

لهذا وصف الله سبحانه وتعالى أصحاب النبى بالشدة والحَمِيَّةِ ، فقال : «أَشِدَّاءُ على الكفار ، رُحماءُ بَيْنَهُم[1] » . وقال النبى : «جاهِدِ الكفارَ والمنافِقِينَ واغْلُظْ عليهم »[2] ، وإنما الغلظة والشدة من آثار قوة الحمية والغضب .

١ – فالحلم فى رأى أرسطو وسط بين سرعة الغضب والبلادة ، وليس الغضب مذموماً إذا كان خاضعاً للعقل ، أما المذموم فهو الغضب على من لا يستحق الغضب ، أو الغضب لأسباب لا تستدعيه ، أو على وجه أكثر مما ينبغى ، أو بأسرع مما ينبغى ، أو الغضب زماناً أطول مما يليق[3] .

---

(١) سورة الفتح ٢٩ .
(٢) سورة التوبة ٧٣ .
(٣) علم الأخلاق ٢/٣٥

وهو عند الغزالى انكسار قوة الغضب وخضوعها للعقل ، وفى رأيه أنه يبدأ بالتّحلّم [1] ، أو بكظْم الغيظ ، وليس يحتاج إلى كظم الغيظ إلا من هاج غيظه فجاهده مجاهدة شديدة ، فإذا تعود ذلك مدة صار الحلم خلقاً له ، فلا يهيج غيظه ، وإن هاج لم يتعب فى كَظْمه [2] ، والحلم الطبيعى دلالة على كمال العقل وسيطرته على قوة الغضب [3] .

وعرفه صمويل سميلز بأنه ضرب من ضروب الشجاعة ، مقصور على الإنسان ، لأن الشجاعة بإطلاقها العام يتصف بها الإنسان والحيوان ، ولهذا عرف شكسبير الإنسان بأنه مخلوق يتدبر عواقب الأمور [4] .

وأدمج بعض الدارسين الحلم فى فضيلة أخرى هى ضبط النفس : بل سموا الحلم ضبط النفس ، وقالوا إنه ليس من المغالاة أن نعتدَّ ضبط النفس أصل كل فضيلة ، لأنه الواقى من الإنحراف إلى الرذيلة والخضوع للأهواء ، ومن تَجَاوُزِ الحد والظلم والغرور ، ولهذا لم يثن الإنجيل على القوىِّ الفاتح ، بل أثنى على القوى الذى يكبح جماح نفسه ، ويسيطر على فكره وقوله وعمله .

٢ ـ لكننا لانستطيع أن نتبين الحلم تبيناً دقيقاً من تعريف أرسطو ، لأن الوسط غير محدد ، وغير معلوم ، وصالح لأن يكون فى بعض الأحيان وفى نظر بعض الناس أقرب قليلا أو كثيرا إلى الغضب أو إلي البلادة .

---

(١) التحلم : تكلف الحلم .
(٢) الاحياء ١٥٤/٣
(٣) الاحياء ١٥٣/٢
(٤) الاخلاق ٨٩/٢ صمويل سميلز .

وخير من تعريف أرسطو تعريف الغزالى ، لأنه يؤسس الحلم على زوال الغضب ، وعلى سيطرة العقل .

أما تعريف سميلز فإنه مرن عام لا يُعيِّنُ الحلم ، ولا يُمَيِّزه ، ومثله فى هذا تسمية الحلم بضبط النفس .

على أن الحلم ليس تفريطاً فى الغضب ، ولا إفراطاً ولا اعتدالا ، وإن كان الحلم موصولا بغريزة الغضب ومتعلقاً بها واقتدارا عليها ، لأن الحلم ينافى الإفراط والتفريط والاعتدال ، فالإفراط هُياج ، والتفريط انكسار وهوان ، وهما رذيلتان ، أما الاعتدال فإنه غضب محمود ، ولكنه ليس حلما ، وليس الحلم منه .

٣ – فهل نستطيع أن نعرف الحلم بأنه تحمل الأذى مع القدرة على رده بمثله ؟

وذلك أن الذى لا يتحمل الأذى فيغضب سواء أتجاوز الحد أم اعتدل ، لا يسمى حليماً .

والذى يحتمل الأذى وهو غير قدير على مقابلته بالمثل ضعيف عاجز يسمى صابرا ولا يسمى حليماً .

والذى يحتمل ضروف القضاء ونكبات الدهر فى النفس أو فى المال صابر لا حليم ، لأنها مما يجب عليه أن يخضع له فى إذعان وتسليم .

بين الحلم والصبر :

١ – قد تتداخل هاتان الفضيلتان ، حتى لتلتبس كل منهما بالأخرى ، وتدل عليها .

وكثيرا ما نجد فى كتب الأخلاق هذا التعابُر والاشتباك ، سواء فى ذلك كتب القدماء وكتب المُحْدَثين ، فليس فى أحدها تمييز قاطع أو تفريق حاسم .

والحق أن الحلم والصبر متقاربان كما ذكر القاضى عِياض[1] ولهذا صلح أحدهما لأن يدل على الآخر فى قوله تعالى : « ولَتَسْمَعُنَّ من الذين أُوتُوا الكتابَ من قَبْلِكُم ومن الذينَ أَشْرَكُوا أَذًى كثيرا ، وإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا فإنَّ ذلك منْ عزمِ الأُمور[2] » .

فإن احتمال هذا الأذى صبر أو حلم .

وقوله تعالى : « وإنْ عاقبتُمْ فعاقِبُوا بِمِثْلِ ما عُوقبتُم به . ولئِنْ صبرْتُمْ لَهُو خيرٌ للصابرين[3] » .

فإن تركَ العقوبة هنا صبر أو حلم .

وقوله تعالى : « واصْبِرْ على ما يقولون ، واهْجُرْهُمْ هجرًا جميلا[4] » .

وهما متداخلان فى قول الرسول : ــ لما قسم ما لا فقال بعض الأعراب من المسلمين هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله ، فاحمرت وجنتا الرسول ــ يرحم الله أخى موسى ، لقد أُوذى بأكبر من هذا فصبر .

٢ ــ لكنهما مع هذا الالتباس يختلفان :

فالحلم كف النفس عن الثأْر أو مقابلة الأذى بمثله ، أما الصبر فهو احتمال المكروه . كفقد عزيز ، أو مرض عضال ، أو كارثة ، أو ضياع مال .

---

(١) الشفا ١/٨٠
(٢) سورة آل عمران ١٨٦
(٣) سورة النحل ١٢٦
(٤) سورة المزمل ١٠

والحلم منوط بالقدرة على العقوبة أو الانتقام ، على حين أن الصبر موصول بما لا طاقة به للإنسان .

والحلم نقيض الغضب ، والغضب مظهر من مظاهر الثورة وعدم الاحتمال المقرون بالتحدى ، أما الصبر فنقيض الجزع ، والجزع سمة دالة على الضعف وعدم الاحتمال المقرون بالاستسلام والعجز عن التحدى .

مظاهره

كان الرسول عليه الصلاة والسلام المثل الأعلى في الحلم ، لأن الله أدبه فأحسن تأديبه ، وأمره بقوله : «خُذِ العَفْوَ ، وأْمُرْ بالْعُرْفِ ، وأَعْرِضْ عنِ الجَاهِلينَ . وإما يَنْزَغنَّكَ مِنَ الشَّيْطَان نَزْغٌ فاسْتَعِذْ بالله ، إنه سميعٌ عليم إنَّ الذِينَ اتَّقَوا إذا مَسَّهُمْ طائِفٌ من الشيطان تَذَكَّرُوا ، فإذا همْ مُبْصِرونَ »[1] وبقوله : «وسارِعُوا إلى مَغْفِرةٍ من ربكم وجَنَّةٍ عَرْضُهَا السمواتُ والأَرْضُ أُعِدَّتْ للمتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فى السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ ، والكاظمينَ الغَيْظَ ، والعافِينَ عن الناسِ ، واللهُ يُحِبُّ المحسنِين[2] » .

ففى الأمر الأول أمرٌ بالحلم وبالاستعاذة بالله عند الغضب والنزوع إلى الانتقام .

وفي الأمر الثانى مساواة بين كظم الغيظ والبذل فى سبيل الله والعفو عن الناس .

فإذا علمنا أن كظم الغيظ أقل شأناً من الحلم تبينت فضيلة الحلم ، لأن كظم الغيظ تَحَلُّمٌ وتكلُّفٌ للحلم ، ولا يحتاج إلى كظم غيظه إلا من

(١) سورة الاعراف ١٩٩–٢٠١
(٢) سورة آل عمران ١٣٣–١٣٤

هاج غيظه ، فهو يجاهده ، فإذا تعود هذه المجاهدة صار الكظم عادة ، فلا يثور غيظه ، وإن ثار سهل عليه قمعه والسيطرة على جيشاته .

وكان عليه الصلاة والسلام القدوة فى سعة الصدر وسماحة النفس التى تليق بمكانته ورسالته ، فهو صاحب دعوة جديدة يعاندها أكثر الناس ، وفيهم الأقوياء والضعفاء ، والحمقى والعقلاء ، والأقارب والبعداء ، وفيهم الذين يسألون أو يجادلون ليتبينوا ، والذين لا يريدون من الجدال إلا اللجاج والعناد ، والحلم فى كل حال من هذه الحالات هو القوة النفسية التى لا تغنى قوة غناءها .

وهو عليه الصلاة والسلام المعلم الأول ، مبلغاً عن ربه ، ومفصلا وموضحاً ومطبقاً لما أوحى إليه ، يذهب إليه هذا فيسأله ، ويلقاه ذاك فيستزيده ، ويجلس إليه آخر فيستغنيه ، ويحار أناس فى حكم فيستوضحونه ويحزب الأمر آخرين فيسرعون إليه يلتمسون عنده الرأى الذى يجهلونه : ومن بين هؤلاء كبار وشباب ، ورجال ونساء ، وذوو كياسة ولباقة . وأصحاب غلظة وجفاء ، ومسلمون أشربت قلوبهم الإيمان ، ومسلمون حديثو عهد بالإسلام ، وأذكياء تكفيهم الوجازة ، وآخرون يعوزهم الذكاء ولا يغنيهم إلا التفصيل ، فلابد من صدر رحيب يتسع لهؤلاء . ولا بد من حلم يسع ما قد يبدر مقصودا أو غير مقصود ، ولا بد من ضبط النفس عند الضيق والغضب وما ينجم عنهما من آثار .

كان الحلم من شمائل المصطفى ، وكان من الوسائل التى جذبت إليه النفوس ، وألَّفَتْ حوله القلوب ، وصدق الله العظيم فى قوله : «فبما

رحمةٍ من اللهِ لِنْت لهمْ ، ولو كُنتَ فظًّا غَلِيظَ القلب لانفضُّوا من حَوْلِكَ(1) ».

أما مظاهر هذا الحلم فكثيرة ، منها :

١ - بعد أن انتصر النبي على بنِي المُصْطلِق تنازع بعض الأنصار وبعض المهاجرين ، فقال عبد الله بن أُبيٍّ الخزرجى : قد نافرنا المهاجرون وكاثرونا في بلادنا ، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجَنَّ الأَعزُّ منها الأَذلَّ ، فسمع بذلك رسول الله وعنده عمر بن الخطاب ، فقال له عمر : مر به عَبّاد بن بشر فليقتله ، فقال الرسول : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه ؟ لا ، ولكن أَذِّنْ بالرحيل ، وذلك في ساعة لم يكن الرسول يرتحل فيها ، فارتحل الناس فلما ساروا قال له أُسيدُ بن حُضَيْر : يا نبي الله ، والله لقد رُحْتَ فى ساعة منكرة ما كنت تروح فى مثلها ، فقال له الرسول : أو ما بلغك ما قال صاحبكم [قال : وأيُّ صاحب [قال : عبد الله بن أُبيّ . قال : وما قال [قال : زعم أنه إن رجع إلى المدينة ليخرجَنَّ الأَعزُّ منها الأَذلَّ . قال : فأَنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال : يا رسول الله ارفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك وإن قومه لينظمون له الخرز ليتوجوه ، فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكاً .

ثم مشى رسول الله بالناس يومهم حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصدر يومهم حتى آذتهم الشمس ، ثم نزل بهم ، فلم يلبثوا أن وجدوا مَسَّ الأَرض فوقعوا نياما .

---

(1) سورة آل عمران ١٥٩

وإنما فعل بهم ذلك ليشغلهم عن الحديث الذى كان بالأمس .

ثم عرض ابنه على النبى أنه إن كان لا بد من قتله فليقتله ابنه ، فقال له رسول الله : بل نترفق به ، ونحسن صحبته ما بقى معنا [1] .

لقد كان الرسول هنا فى حل من أن يغضب ، وكان فى حل من أن يعاقب عبد الله بن أُبَىّ على الفتنة التى يوقد نارها ، لكنه حَلُمَ عليه ، فأبى أن يرضى بقتله ، وأبى أن يتوعده بالطرد من المدينة ، ورفض أن يقتله ابنه ، وزاد على هذا كله أنه وعد بأن يترفق به ويحسن صحبته ، وبهذا ضرب المثل العظيم فى حلم العظيم .

على أنه عمد إلى أنجع وسيلة لإطفاء غضب القوم ، فشغلهم عن الفتنة التى بدَرَتْ بالسير المتصل يوماً وليلة وبعض يوم ، ثم آذنهم بالنزول ، فلم تكد جنوبهم تمس الأرض حتى استغرقوا فى النوم.

٢ ـ قتل وَحْشِيٌّ مولى جُبَيْر بن مُطْعِم حمزَة بن عبد المطلب فى موقعة أُحد ، فلما فتح رسول الله مكة هرب إلى الطائف ، فلما خرج وفد الطائف إلى رسول الله ليسلموا ضاقت عليه السبل ، قال : فقلت ألحق بالشام أو اليمن أو ببعض البلاد ، فوالله إنى لفى ذلك من هَمِّى إذ قال لى رجل : وَيحكَ ، إنه والله ما يقتل أحدا من الناس دخل فى دينه ، وتَشَهَّدَ بشهادته .

فلما قال لى ذلك خرجت حتى قَدِمتُ على رسول الله صلى الله عليه وسلم المدينة ، فلم يَرُعهُ إلا أنى قائم على رأسه أتشهد بشهادة الحق ، فلما رآنى قال : أَوَحشِىٌّ [قلت : نعم يا رسول الله ، قال اقعد فحدثنى كيف

---

(١) سيرة ابن هشام ٣٠٤/٣ .

قتلت حمزة ، فحدثته ، فلما فرغت من حديثى قال : ويحك ، غَيِّبْ عنى وجهك ، فلا أَرَينَّك ، فكنت أتنكب رسول الله حيث كان لئلا يرانى ، حتى قبضه الله تعالى [1] .

أى كظم للغيظ فريد ، بل أي حلم عظيم هذا الذى يلقى به رسول الله قاتل عمه الأثير ، وصديقه النصير ، وشريكه فى الجهاد ، وأخيه من الرضاع ، وإنه لمغيظ من قاتله ، وقدير على الثأر منه وإن يكن من الأحرار الأقوياء ، فكيف وهو عبد أعتقه سيده منذ قتل حمزة ، فصار بغير حام ولا نصير . .

وإن كل مسلم ليتلهف على قتله ، ويود لو أن الرسول أذن له فنال وحده هذا الشرف الذى يشفى به غيظ نبيه ، ويثأر لبطل من أبطال الإسلام .

٣ ـ جاءه أعرابى يطلب شيئاً ، فأعطاه ، ثم قال له : هل أحسنتُ إليك ؟ قال الأعرابى : لا ، ولا أجملْتَ .

فغضب المسلمون ، وقاموا إليه ، فأشار إليهم أن كُفوا .

ثم قام ودخل منزله ، وأرسل إلى الأعرابى ، وزاده شيئاً ، ثم قال له : أحسنت إليك ؟ قال : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .

فقال له النبى : إنك قلتَ ما قلتَ وفى نفس أصحابى شىءٌ من ذلك ، فإن أحببت فقل بين أيديهم ما قلتَ بين يدى ، حتى يذهب من صدورهم ما فيها عليك . قال الأعرابى : نعم .

---

(١) سيرة ابن هشام ٧٦/٣ .

فلما كان الغداة أو العشى جاء ، فقال النبى : إن هذا الأعرابى قال ما قال ، فزدناه ، فزعم أنه رضى ، أكذلك ؟

قال الأعرابى : نعم ، فجزاك الله من أهل وعشيرة خيرا .

فقال الرسول : إن مثلى ومثل هذا الأعرابى كمثل رجل كانت له ناقة فشردت عليه ، فاتَّبَعَها الناسُ ، فلم يزيدوها إلا نفورا ، فناداهم صاحب الناقة : خلوا بينى وبين ناقتى ، فإنى أرفق بها وأعلم ، فتوجه لها بين يديها ، فأخذ لها من قُمَام الأرض ، فردها هَوْناً هَوْناً حتى جاءت واستناخت ، وشد عليها رَحْلها ، واستوى عليها (١) .

أرأيت إلى رسول الله كيف يحلم على من أعطاه فجحد عطاءه .

أرأيت إليه كيف يعطيه ثانية فيسمع رضاه ودعاءه ؟

ثم أرأيت إليه وهو يحرص على أن يمحو من نفوس أصحابه غضبتهم على هذا الأعرابى ، حتى لا ينزل به أحدهم عقوبة على جلافته ونكرانه الجميل ؟

٤ ـ أتى شاب إلى النبى فقال : يا نبى الله أتأذن لى فى الزنا ؟ فصاح الناس به ، فقال النبى : قربوه ، ادْنُ ، فدنا حتى جلس بين يديه .

فقال له النبى : أتحبه لأُمك ؟ قال الشاب : لا ، جعلنى الله فداك ؟

قال النبى : كذلك الناس لا يحبونه لأُمهاتهم . أتحبه لابنتك ؟

قال الشاب : لا ، جعلنى الله فداك ، فقال النبى : كذلك الناس لا يحبونه لبناتهم . أتحبه لأُختك ؟ حتى ذكر العمة والخالة ، وهو يقول

---

(١) الاحياء ٢/٢٣٦

فى كل واحدة : لا ، جعلنى الله فداك ، والنبي يقول : كذلك الناس لا يحبونه .

ثم وضع رسول الله يده على صدر الشاب ، وقال : اللهم طهر قلبه ، واغفر ذنبه ، وحَصِّنْ فرجه ، فلم يكن شىءٌ أَبغض إليه من الزِّنا [1] .

ها هنا تتجلى حكمة المعلم الأَول والملاذ العظيم ، فإنه لم ينهر الشاب ، ولم يجْبَهْهُ بتسفيه أو تأْنيب ، بل فسح له صدره ، وجعل يضرب له الأَمثال ، ليتبصر قبح الزنا وشناعته ، ثم عطف عليه عطف الأَب الودود ، ودعا له بالبر من دائه الذى كان يظن أنه لا فكاك منه ولا شفاء .

٥ ــ طلب منه أَصحابه فى موقعة أُحد أَن يدعو على المشركين الذين شَجُّوا وجهه ، وكسروا رباعيته حتى سال الدم على وجهه ، فقال : إنى لم أُبعث لَعَّاناً ، ولكنى بعثت داعياً ورحمة ، اللهم اغفر لقومى فإنهم لا يعلمون [2] .

لقد كان ذلك اليوم عصيباً . فالمسلمون لم ينتصروا ، وكثير من عظمائهم قتلوا وجرحوا ، والنبى نفسه لم يسلم من الأَذى ، ولكنه لم يرتض أَن يدعو الله ليبيد قومه ، لأَنه صبور حليم ، ما زال عظيم الرجاء فى أَن تفىءَ إليهم عقولهم ، فيهتدوا إلى دين الله .

٦ ــ حَدَّثَ أَنسٌ قال : كان رسول الله يمشى يوماً وأَنا معه ، فأَدركه أَعرابى ، فجذبه جذباً شديدا ، وكان على النبى بُرْدٌ نَجْرانى غليظ الحاشية ،

---

(١) الاحياء ٢/٢٩٣

(٢) اللؤلؤ والمرجان ٢/٢٦٤ .

فنظرت إلى عنق رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أثرت فيه حاشية ادرابه من شدة جذبه .

وقال الأعرابي : يا محمد ، احمل لي على بَعِيرِى هذين من مال الله الذى عندك ، فإنك لا تحمل لي من مالك ولا من مال أبيك .

فسكت النبي ، ثم قال : المال مال الله وأنا عبده ، ثم قال : ويُقادُ منك يا أعرابي ما فعلت بي ؟

قال الأعرابي : لا . قال الرسول : ولم ؟ قال الأعرابي : لأنك لا تكافىء السيئة بالسيئة .

فضحك رسول الله ، ثم أمر أن يحمل للأعرابي على بعير شعير ،وعلى الآخر تمر [1] .

فقد حلم النبي على أعرابي تتطاول يده ويتطاول لسانه ، ويستجدى فى فظاظة لا تطاق . ثم أعطاه ما أراد ، ولعله أخذ أكثر مما أراد .

٧ ـ جاءه زيد بن سَعْنة قبل إسلامه يتقاضاه ديناً عليه ، فجذب ثوبه عن منكبه ، وأخذ بمجامع ثيابه ، وأغلظ له . فانتهره عمر ، وشدد له فى القول ، والنبيّ صلى الله عليه وسلم يبتسم ، وقال : أنا وهو كنا إلى غير هذا منك أحوج يا عمرُ ، تأمرني بحسن القضاء ، وتأمره بحسن التقاضى . ثم قال : لقد بقى من أجله ثلاث [2] . وأمر عمر أن يقضيه ماله ، ويزيده عشرين صاعاً ، لأنه روّعه .

فكان هذا سبب إسلام زيد [3] .

---

(١) فتح المبدى ٢/٣٣٩ ونور اليقين ٣٩٠ والاحياء ٣/٦١ .
(٢) أى ان موعد الاداء لم يحن ، فقد بقيت ثلاث ليال .
(٣) الشفا ١/٨٤ .

٨ ـ قسم رسول الله قسمة ، فقال بعض الأعراب من المسلمين : هذه قسمة ما أُريد بها وجه الله .

فلما أخبر النبي بذلك احمرت وجنتاه ، وقال : يرحم الله أخي موسى ، لقد أُوذي بأكثر من هذا فصبر [١] .

غضب الحليم :

لكن من الأحداث ما لا يسعه الصدر الرحيب ، ولا يطيقه الحليم ، فلابد من غضب ، غير أن هذا الغضب هو اللائق بالعظيم .

لقد كان الرسول صاحب رسالة ، ومبلغ دين ، وحامي حقيقة ، فمن حقه أن يحلم على ما يصيبه هو في سبيل دعوته ، ولكنه لا يستطيع أن يحلم على ما يصيب الدعوة نفسها .

وكيف يحلم على السفهاء الذين يتجرأون على الإسلام ، ويسخرون بالوحدانية والبعث ، ويعتدون على الخير والحق ؟

هنا كان رسول الله يغضب ، ولم يكن له بد من أن يغضب ، لأن غضبه ـ كما قال علي بن أبي طالب ـ لم يكن للدنيا ، فإذا أغضبه الحق لم يعرفه أحد ، ولم يقم لغضبه شيء ، حتى ينتصر الحق [٢] ، وكما قالت السيدة عائشة : ما انتقم رسول الله لنفسه إلا أن تنتهك حرمة الله ، فينتقم لله بها [٣] .

---

(١) الاحياء ٤/٦٢

(٢) الاحياء ٣/١٤٨

(٣) فتح المبدى ٣/٦٠ وصحيح مسلم ١٥/٨٤ ، ينتقم الله بها : اى بسبب حرمة الله .

لكن غضب الرسول لائق برسالته وبعظمته ، فهو غضب لا يتجاوز حد الاعتدال بحال من الأحوال .

قال عبد الله بن عمرو بن العاص : يا رسول الله أكتب عنك كل ما قلت فى الغضب والرضا ؟ فقال : اكتب ، فوالذى بعثنى بالحق نبياً ما يخرج منه إلا حق ، وأشار إلى لسانه .

فلم يقل إنى لا أغضب ، بل قال إن الغضب لا يخرجنى عن الحق [1] .

وكان إذا سمع ما يكرهه يغضب حتى تحمر وجنتاه ، ولكنه لا يقول إلا حقاً [2] .

وكان مع غضبه للحق وبالحق يحاول ما استطاع أن يخفف من حدته ، وأن يُقَصِّر من مدته ، وأن يجعل السيطرة لعزيمته ، وذلك بأن يغير من الوضع الذى هو فيه ، لينقل نفسه من حال إلى حال . قال أبو هريرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا غضب وهو قائم جلس ، وإذا غضب وهو جالس اضطجع ، فيذهب غضبه [3] .

وكان شديد الخشية من أن يكون غضبه قد أغراه مرة بمجاوزة الحد ، وهذا بين فى قوله : اللهم أنا بشر أغضب كما يغضب البشر ، فأيما مسلم سببتُه أو لعنتُه أو ضربتُه ، فاجعلها منى صلاة عليه وزكاة تقربه بها إليك يوم القيامة [4] .

---

(١) الاحياء ١٤٨/٣
(٢) الاحياء ٤٦/٣
(٣) الاحياء ١٥١/٣
(٤) الاحياء ١٤٨/٣

الاشادة بحلمه

حسب رسول الله من كمال الشيم وعلاء الأخلاق أن الله تعالى وصفه بقوله : «وإنَّكَ لعَلى خُلُقٍ عظيم [1] » .

وحسبه قوله تعالى : «فبمَا رحمة من اللهِ لِنْتَ لهمْ ، ولَو كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ القَلْبِ لانْفَضوا من حَوْلِكَ [2] » .

لهذا قال على بن أبي طالب : كان رسول الله أوسع الناس صدرا [3] .

وجاء فى قصة إسلام زيد بن سَعْنة – من أحبار اليهود – قوله لعمر ابن الخطاب : كل علامات النبوة قد عرفتها فى وجه رسول الله صلى الله عليه وسلم حين نظرت إليه إلا اثنتين لم أخْبُرْهما فيه : يسبق حلمه جهله ، ولا تزيده شدة الجهل عليه إلا حلماً ، فقد اختبرتهما [4] .

حضه على الحلم

كانت أحاديث رسول الله التى تحض على الحلم مظهرا قولياً من حلمه العملى .

١ – فكان إذا غضبت السيدة عائشة أخذ بأنفها ، وقال : يا عُوَيْشُ ، قولى : اللهم رب النبى محمد اغفر لى ذنبى ، وأذهب غيظ قلبى ، وأجِرْنى من مُضِلَّات الفِتن [5] .

---

(١) سورة القلم ٤
(٢) سورة آل عمران ١٥٩
(٣) الاحياء ٢/٣٣٧
(٤) هامش الاحياء ٢/٣١٥
(٥) الاحياء ٣/١٥١

٢ ـ وقال : إن الغضب جمرة توقد فى القلب ، ألم تروا إلى انتفاخ أوداج الغضبان وحمرة عينيه (١) ؟

فإذا وجد أحدكم من ذلك شيئاً ، فإن كان قائماً فليجلس ، وإن كان جالساً فليقم ، فإن لم يَزُلْ ذلك فليتوضأ بالماء البارد أو يغتسل ، فإن النار لا يطفئها إلا الماء (٢) .

٣ ـ إن الرجل ليدرك بالحلم درجة الصائم القائم .(٣) .

٤ ـ ما تجرع عبد جرعة أفضل عند الله من جرعة غيظ يكظمها ابتغاء وجه الله (٤) .

٥ ـ ليس أحد أصبر على أذى سمعه من الله ، إنهم ليدعون له ولدا ، ويجعلون له أندادا ، وهو مع ذلك يعافيهم ويرزقهم (٥) . !

٦ ـ من كف غضبه كف الله عنه عذابه (٦) .

٧ ـ قال رجل لرسول الله : يارسول الله مُرْنى بعمل وأقلل : قال : لا تغضب ، ثم أعاد عليه فقال : لا تغضب (٧) .

٨ ـ قال لأصحابه : ما تعدون الصُّرَعة فيكم ؟ قلنا : الذى يصرع الرجال ؟

قال : ليس ذلك ، ولكن الذى يملك نفسه عند الغضب (٨) .

٩ ـ ثلاث من كن فيه استوجب الثواب ، واستكمل الإيمان : خلق

---

(١) الى (٢) الاحياء ١٥١/٣

(٣) الى (٥) كنز العمال ٢٨/٢

(٦) الاحياء ١٥٢/٢ ٠

(٧) فتح المبدى ٣١٠/٣ والاحياء ١٤٣/٣

(٨) فتح المبدى ٣١٠/٣ والاحياء ١٤٣/٣ وكنز العمال ١٠٦/٢

يعيش به فى الناس ، ووِرْعٌ يحجزه عن محارم الله ، وحِلْمٌ يرد به جهل الجاهل (١) .

١٠ – إن امرؤٌ عَيَّرك بما فيك فلا تعيره بما فيه (٢) .

١١ – إن بنى آدم خُلقوا على طبقات شتى ، فمنهم بطىءُ الغضب سريع الفىء ، ومنهم سريع الغضب سريع الفىء ، فتلك بتلك ، ومنهم سريع الغضب بطىءُ الفىء ، ألا وإن خيرهم البطىءُ الغضب السريع الفىء ، وشرهم السريع الغضب البطىءُ الفىء (٣) .

١٢ – ابتغوا الرفعة عند الله . قالوا : وما هى يا رسول الله ؟

قال : تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتَحْلُمُ عمن جهل عليك (٤) .

١٣ – ثلاث من لم تكن فيه واحدة منهن فلا تعتدوا بشىء من عمله : تقوى تحجزه عن معاصى الله عز وجل ، وحلم يكف به السفيه ، وخلق يعيش به فى الناس (٥) .

١٤ – من كظم غيظاً وهو يقدر على إنفاذه ملأً الله قلبه أَمناً وإيماناً (٦) .

---

(١) الى (٣) الاحياء ١٥٦/٣

(٤) ، (٥) الاحياء ١٥٤/٣

(٦) الجامع الصغير ٣٩٥/٢

الفصل الحادى عشر

العفو

حقيقته

العفو الصفح والمغفرة والتجاوز عن الإساءة ، فى غير كراهية للمسىء أو حقد عليه أو إصرار على الانتقام فيما بعد ، مع القدرة على العقوبة أو الثأر .

فليس من العفو التسامح الموقوت الذى يَحتَجِنُ صاحبه السيئة فى نفسه لينتقم فى وقت آخر .

وليس من العفو المغفرة المدخولة التى تخفى وراءها بِغْضَةً للمسىء .

وليس من العفو الصفح الناشىء عن عجز أو ضعف .

وقد سمى الله تعالى نفسه عَفُوًّا فى آيات كثيرة من كتابه الكريم.

قال تعالى : «إنْ تُبدُوا خيرا أو تُخْفُوه أو تعفوا عن سُوءٍ فإن اللهَ كان عَفُوًّا قديرا [1] » .

وقال سبحانه : «ألا تُحبون أن يغْفِرَ اللهُ لكم ، واللهُ غفورٌ رحيم [2] » .

---

(١) سورة النساء ١٤٩
(٢) سورة النور ٢٢

وقال تعالى : «وإنَّ ربك لذو مغفرةٍ للناس على ظلمهم ، وإن ربك لشديدُ العِقابِ[1] » .

وأمر الله تعالى بالعفو وأثنى عليه في كثير من الآيات .

قال تعالى : «ودَّ كثيرٌ منْ أهْلِ الكِتاب لو يَرُدونكم من بَعْدِ إيمانِكُمْ كُفَّارًا ، حَسَدًا مِنْ عِنْدِ أنفسِهم من بَعْدِ مَا تبَيَّنَ لهم الحق ، فاعْفُوا ، واصْفَحُوا حتىَّ يأْتِىَ اللهُ بأَمْرِهِ ، إن الله على كلِّ شىءٍ قدير[2] » .

وقال سبحانه : «ولَا يَأْتَلِ أُولوا الفضل منكم والسَّعةِ أن يُؤْتُوا أُولى القُرْبى والمساكِينَ والمهاجرينَ فى سَبِيلِ الله ، ولْيَعْفُوا ، ولْيَصْفَحُوا ، ألا تُحِبونَ أن يَغْفِرِ الله لكم ، والله غفور رحيم[3] » .

وقال تعالى : «وسارِعوا إلى مَغْفِرَةٍ منْ رَبِّكُم وَجنَّة عرضُها السَّمٰواتُ والأرْضُ أُعِدَّتْ للمتَّقِينَ ، الَّذِينَ يُنْفِقُونَ فى السَّرَّاءِ والضَّرَّاءِ ، والكاظمين الغيظَ ، والعافينَ عن الناسِ ، واللهُ يُحِب المحسنين[4] » .

وقال تعالى : «ولَمَنْ صَبَرَ وغَفَرَ إنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمور[5] »

مظاهره

كان القرآن الكريم ينبوع الأدب النبوى ، فكان عليه الصلاة والسلام قريب الصفح ، كثير العفو ، وكان عفوه عن مقدرة وعن سماحة نفس .

---

(١) سورة الرعد ٦
(٢) سورة البقرة ١٠٩
(٣) سورة النور ٢٢ لا يأتل : لا يقسم
(٤) سورة آل عمران ١٣٣–١٣٤
(٥) سورة الشورى ٤٣ .

قالت السيدة عائشة : ما رأيت رسول الله منتصرا من مَظْلمة ظُلِمها قَط ، ما لم تُنْتَهَك محارم الله ، فإذا انتهك شيء من محارم الله كان أشدهم فى ذلك غضباً(١) .

فهو يعفو عما يصيبه هو ، لأن العفو هنا فضيلة ، ولكنه لا يعفو عما يمس الدين ويتصل بحقوق الله ، لأن هذا تهاون فى رعاية حق الله .

ولهذا العفو مصادر عدة ، منها .

١ - فى موقعة أحد وَعَدَ جُبيْر بن مطعم عبده وحشياً أن يطلقه حرا إن قتل حمزة بن عبد المطلب عم النبي ثأرا بعمه طُعيمة بن عدىّ الذى قتل يوم بدر .

وكان وحشى مشهورا بإصابة الهدف ، وكانت هند بنت عتبة زوجة أبي سفيان قد خرجت مع مشركى قريش لتحرضهم ، وكان حمزة وعلىّ وعبيدة بن الحارث قد قتلوا أعزاءها يوم بدر (٢) ، فجعلت تشعل حفيظة وحشى ، واستطاع أن يصيب حمزة .

كان مقتل حمزة فاجعة ، فحزن عليه رسول الله أشد الحزن ، فهو عمه ، وهو ظهيره الذى ناصره منذ كان فى مكة ، وهو أخوه من الرضاع ، وهو إلى هذا بطل من أبطال المسلمين الأفذاذ ، ولهذا قال رسول الله وهو واقف أمام جثة عمه الحبيب : ما وقفت موقفاً قط أغيظ إلى من هذا .

وقد أطلق جبير عبده حرا ، فأقام بمكة ، فلما فتحها رسول الله هرب وحشى إلى الطائف ، ثم أسلم أهل الطائف فضاقت الأرض بوحشى ،

---

(١) الاحياء ١٥٨/٣ وصحيح مسلم ٨٣/١٥

(٢) أبوها عتبة بن ربيعة وأخوها الوليد وعمها شيبه (تاريخ الطبرى ٢٧٠/٢)

فأشار عليه بعضهم أن يتجه إلى رسول الله فيعلن إسلامه ، فإنه لا يقتل أحدا دخل فى دينه .

قدم وحشى على رسول الله ، وأعلن إسلامه ، فنظر إليه الرسول وقال : وحشى] قال : نعم يا رسول الله ، قال : اقعد فحدثنى كيف قتلت حمزة ، فحدثه ، فلم يزد بعد أن سمع الحديث على أن قال : ويحك ، غَيِّبْ عنى وجهك ، فلا أَرَيَنَّك (١) .

أرأيت إلى هذا العفو العظيم عن الجرم الأليم بعد أن أمكن القصاص ؟

لكن وحشياً وقد أسلم وحسن إسلامه لم يستطع أن يتخلص من الفزع الذى يلاحقه من أطياف جريمته ، فلما كانت حروب المرتدين أيام أبى بكر خرج لقتال مسيلمة ، وقص خبره فى قوله : أخذت حربتى التى قتلت بها حمزة ، فلما التقى الناس رأيت مسيلمة قائماً فى يده السيف ، فتهيأت له ، وتهيأ له من الناحية الأخرى رجل من الأنصار ، فهززت حربتى ، ودفعتها فوقعت فيه ، وشد عليه الأنصارى فضربه بالسيف ، فما أعلم أينا قتله ، فإذا كنت قد قتلته فقد قتلت خير الناس بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم — يريد حمزة — وقد قتلت شر الناس ، يعنى مسيلمة .

٢ — فى غزوة خيبر أهدت زينب بنت الحارث زوجة سَلام ابن مِشْكم أحد زعماء اليهود شاة مشوية إلى الرسول ، وقد سألت : أى عضو من الشاة أحب إليه ؟ فقيل لها : الذراع ، فأكثرت فيها من السم ، ثم سمت سائر الشاة ، وجاءت بها ، فلما وضعتها بين يديه تناول الذراع ، فلاك منها مُضْغة ، فلم يُسِغْها ، ومعه بشر بن البَراء بن مَعْرور قد أخذ منها

(١) سيرة ابن هشام ١٠٢/٣ .

كما أخذ رسول الله ، فأما بشر فأساغها ، وأما رسول الله فلفظها ، وقال : إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم ، ثم دعا بها ، فاعترفت ، فقال : ما حملك على ذلك ؟ قالت : بلغتَ من قومى ما لم يَخْفَ عليك ، فقلت : إن كان ملكاً استرحت منه ، وإن كان نبياً فسيخبر . فتجاوز عنها رسول الله ، ومات بشرٌ من أكلته(١) .

وما من شك في أن المرأة كاذبة في تعليلها ، فقد كانت تريد بالنبى سوءًا ، ولكنه تجاوز عن جريمتها الدنيئة عفوا منه وسماحة نفس .

٣ ـ كان سُهَيْل بن عمرو من أشد خطباء قريش معاندة للإسلام ودعاية ضد النبي ، وكان من أفحشهم لساناً وأبلغهم بياناً ، فلما وقع أسيرا فى بدر قال عمر بن الخطاب لرسول الله : دعنى أنزع ثَنِيَّتَيْهِ ليدلَعَ لسانه ، فلا يقوم خطيباً أبدا .

فقال عليه الصلاة والسلام : لا أُمثل به ، فيمثل الله بى وإن كنت نبياً .

٤ ـ قال له بعض المسلمين بعد غزوة أُحد ـ وقد شُجَّ وجهه وكسرت رباعيته ـ لو دعوت عليهم ؟ فقال : إنى لم أُبعث لعَّاناً ، ولكن بعثت داعياً ورحمة ، اللهم اهد قومى فإنهم لا يعلمون(٢) .

فلم يقتصر على السكوت ، بل عفا عنهم ، ثم أشفق عليهم ورحمهم ، ودعا لهم بالهداية ، لأنهم قومه ، ولأنهم لا يعلمون .

٥ ـ لما أجمع الرسول المسير إلى مكة كتب حاطب بن أبى بَلْتَعَة

---

(١) سيرة ابن هشام ٣٥٢/٣ والشفا ٨٣/١ .
(٢) اللؤلؤ والمرجان ٢٦٤/٢ والشفا ٨٢/١ .

كتاباً إلى قريش يخبرهم بعزم الرسول على المسير إليهم ، ثم أعطاه امرأة ، وجعل لها جُعْلا على أن تبلغه قريشاً ، ولكن حيلتها أخفقت ، فاسْتُخْرِجَ الكتابُ منها ، فدعا الرسول حاطباً وسأله : ما حملك على هذا ؟ فقال : يا رسول الله ، أمَا إنى لمؤمن بالله ورسوله ، ما غيرتُ ولا بدلتُ ، ولكنى كنت امرأً ليس لى فى القوم من أصل ولا عشيرة ، ولى بين أظهرهم ولد وأهل ، فصانعتهم عليه .

فقال عمر : دعنى فلأضرب عنقه ، فإنه قد نافق .

فقال رسول الله : وما يدريك يا عمر ؟ لعل الله قد اطلع إلى أصحاب بدر يوم بدر ، فقال : اعملوا ما شئتم ، فقد غفرت لكم (١) .

٦ ـ دخل مكة فاتحاً بعد أن آذاه أهلها ، ونكلوا بالمسلمين ، وقتلوا فى المعارك أحبابه وأولياءه وأنصاره ، وبعد أن حاصروهم فى الشِّعابِ ، فلما قال لأهل مكة : ما تقولون وما تظنون ؟ قالوا : نقول : أخ كريم وابن عم رحيم ، فقال صلى الله عليه وسلم : أقول كما قال أخى يوسف : «لَا تَثْرِيبَ عليكمْ اليومَ يغفرُ الله لكمْ وهو أرحمُ الرَّاحمين (٢) » ، فتفرقوا كأنما نشروا من القبور ، فدخلوا فى الإسلام (٣) .

٧ ـ لم يؤاخذ عبد الله بن أُبَيٍّ وأشباهه من المنافقين بأعمالهم وأقوالهم ، بل قال لمن أشار بقتل بعضهم : لا ، لئلا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه (٤) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤٠/٤

(٢) سورة يوسف ٩٢

(٣) الاحياء ١٥٨/٢

(٤) الشفا ٨٣/١

٨ ـ قال أنس : هبط ثمانون رجلا من التنعيم وقت صلاة الصبح ليقتلوا رسول الله ، فأُخِذُوا فأَعتقهم (١) ، فأَنزل الله تعالى «وَهُوَ الذِي كَفَّ أَيدِيَهُمْ عنكم وأَيدِيَكُمْ عنهم ببَطْنِ مكة من بَعدِ أن أظفركمْ عليهم وكَانَ اللهُ بما تَعْمَلُونَ بصيراً (٢)» .

٩ ـ قال سَلَمَة بن الأَكْوع : خرجت من المدينة قبيل الفجر ، وكانت لِقاح رسول الله (٣) ـ عشرون لقحة أي ناقة ـ تَرْعَى بذى قَرَد (٤) ، فلقينى غلام ، فقال لى : أُخِذت لقاح رسول الله ، فصرختُ ثلاث صرخات لأَسمع ما بين لابَتَىْ المدينة . (٥)

ثم ذهبت أثر العدو ، واستنفذت منهم اللقاح ، وأَخذت ثلاثين بردة .

ثم لحقنى النبي فى خمس مئة أو سبع مئة ، فقلت : يا نبى الله ، قد منعت القوم الماءَ وهم عطاش ، فابعث إليهم الساعة .

فقال : يا ابن الأَكوع ملكتَ فأَسْجِعْ (٦) .

١٠ ـ بعث النبي فرساناً قِبَل نجد ، فجاءُوا برجل من حنيفة اسمه ثمامة بن أثَال ، فربطوه بسارية من سوارى المسجد ، فخرج إليه النبي فقال : ما عندك يا ثمامة [فقال : عندى خير يا محمد ، إن تقتلنى تقتل رجلا ذا دم (٧) وإن تُنْعِمْ تنعم على شاكر ، وإن كنت تريد المال فسل منه ما شئت .

(١) الشفا ١/٨٥
(٢) سورة الفتح ٢٤
(٣) اللقاح : جمع لقحة وهى الناقة ، وكان عددها عشرين .
(٤) ماء على نحو بريد مما يلى غطفان
(٥) مابين حريتها المحيطتين بهما .
(٦) فتح المبدى ٣/١٣٠ ، اسجح : احسن وتسامح .
(٧) مطالب بدم فلا عيب فى قتله .

فتركه النبي حتى كان بعد الغد ، فقال : ما عندك يا ثمامة [قال : عندى ما قلت لك .

فقال : أطلقوا ثمامة ، فانطلق إلى ماء قريب من المسجد ، فاغتسل ، ثم دخل المسجد فقال : أشهد أن لا إله إلا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله . يا محمد والله ما كان على الأرض وجه أبغض إلىّ منْ وجهك ، أصبح وجهك أحب الوجوه إلى .

والله ما كان من دين أبغض إلى من دينك ، فأصبح دينك أحب الدين إلى .

والله ما كان من بلد أبغض إلى من بلدك ، فأصبح بلدك أحب البلادإلى .

وإن خيلك أخذتنى وأنا أريد العمرة ، فماذا ترى ؟

فبشره رسول الله ، وأمره أن يعتمر .

فلما قدم مكة قال قائل : صَبَوْتَ ، قال : لا والله ولكن أسلمت مع محمد رسول الله ، ولن تأتيكم من اليمامة حبة حِنطة حتى يأذن فيها رسول الله (١) .

١١ ـ كان الرسول عائدا من غزوة ذات الرِّقاع ، فنام ، فانسل رجل والمسلمون فى غِرَّة ، حتى قام على رأس رسول الله بالسيوف ، وقال : من يمنعك منى ؟ فقال الرسول : الله . فسقط السيف من يد الرجل ، فأخذه رسول الله وقال : من يمنعك منى ؟ فقال الرجل : كن خير آخذ . فقال الرسول : قل أشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسول الله ، فقال الرجل : لا ، غير أنى لا أقاتلك ، ولا أكون معك ، ولا أكون مع قوم يقاتلونك .

---

(١) فتح البدى ٣/١٥٠

فخلى الرسول سبيله .

فجاء الرجل أهله فقال : جئتكم من عند خير الناس (١) .

١٢ ــ كان يعطى الناس يوم خيبر فضة ، فقال له رجل : يا رسول الله ، اعدل . فقال له : ويحك ، فمن يعدل إذا لم أعدل [فقد خبتُ إذًا وخسرتُ إن كنت لا أعدل . فقام عمر فقال : ألا أضرب عنقه فإنه منافق .

فقال الرسول : معاذ الله أن يتحدث الناس أنى أقتل أصحابى(٢) .

١٣ ــ قدم وفد هَوازن على رسول الله وقد أسلموا ــ وكان معه من سبيهم ستة آلاف من الذرارى والنساء ، ومن الإبل والشاء عدد كثير . فقالوا : يا رسول الله ، إنا أهل وعشيرة ، وقد أصابنا من البلاد ما لم يخْفَ عليك ، فامنُنْ علينا منَّ الله عليك .

وقام رجل من هوازن من بنى سعد بن بكر فقال : يا رسول الله إنما فى الحظائر ــ الأماكن التى كان السبى بها ــ عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يكفلنك ــ يريد أن حاضنته من بنى سعد بن بكر من هوازن ، وكانت مرضعاً له ــ ولو أنا أرضعنا الحارث بن أبى شِمْر أو النعمان بن المنذر ، ثم نزل منا بمثل الذى نزلت به ، رجونا عطفه وفضله ، وأنت خير المكفولين .

فقال رسول الله : أبناؤكم ونساؤكم أحبُّ إليكم أم أموالكم ؟

فقالوا : يا رسول الله ، خيرتنا بين أموالنا وأحسابنا ، بل ترد إلينا نساءنا وأبناءنا ، فهو أحب إلينا .

---

(١) الاحياء ٣٣٥/٢ وفتح البارى ١٢٧/٣

(٢) الاحياء ٣٣٥/٢

فقال لهم : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم ، وإذا ما أنا صليت الظهر بالناس فقولوا : إنا نستشفع برسول الله إلى المسلمين ، وبالمسلمين إلى رسول الله فى أبنائنا ونسائنا فسأعطيكم عند ذلك وأسأل لكم .

فلما صلى الظهر بالمسلمين قام وفد هوازن فتكلموا بالذى أمرهم به ، فقال الرسول : أما ما كان لى ولبنى عبد المطلب فهو لكم .

فقال المهاجرون : وما كان لنا فهو لرسول الله ، وقالت الأنصار : وما كان لنا فهو لرسول الله (١) .

حضه على العفو

للنبى عليه الصلاة والسلام حض كثير متنوع على العفو ، كقوله :

١ ــ إن الله عَفُوٌّ يحب العفو (٢) .

٢ ــ من عفا عند القدرة عفا الله عنه يوم العُسْرة (٣) .

٣ ــ ما عفا رجل عن مظْلمة يبتغى بها وجه الله إلا زاده الله بها عزا يوم القيامة (٤) .

٤ ــ قال لعقبة بن عامر : ألا أُخبرك بأفضل أخلاق أهل الدنيا والآخرة؟ تصل من قطعك ، وتعطى من حرمك ، وتعفو عمن ظلمك (٥) .

٥ ــ ثلاث من كن فيه آواه الله فى كَنَفه ، ونشر عليه رحمته ، وأدخله جنته : من إذا أُعْطِى شكر ، وإذا قدَرَ غفر ، وإذا غضب فَتر (٦) .

---

(١) سيرة ابن هشام ١٣١/٤
(٢) الجامع الصغير ١٧٦/١ وكنز العمال ٧٧/٢
(٣) كنز العمال ٧٧/٢
(٤) و (٥) الاحياء ١٥٨/٣
(٦) الجامع الصغير ٢٣٧/١

الـــرحـــمـــة

ما الرحمة

الرحمة مشتقة من الرُّحْم أو الرِّحْم وهو القرابة وأسبابها ، وأصلها جميعاً الرَّحِم وهو بيت الولد .

وهى والعطف والحنان والرفق والشفقة واللين كلمات متحدة المعانى أو متقاربة جد التقارب ، ونقيضها القسوة والشدة والفظاظة والحدة .

والرحمة من صفات الله سبحانه ، فهو القائل : « إنَّ رحمت الله قريبٌ من المحسنين[1] » و « ومَنْ يَقْنَطُ من رحمت ربه إلا الضالون[2] » و « فلولا فضلُ الله عليكم ورحمته لكنتم من الخاسرين[3] » . و « وربُّك الغفورُ ذو الرَّحْمة[4] »

والرحيم من أسمائه الحسنى ، قال تعالى : « فتلقَّى آدمُ من ربه كلماتٍ فتاب عليه ، إنه هو التوَّابُ الرَّحيم[5] » وقال سبحانه : « وما كان اللهُ ليُضِيعَ إيمانكم ، إن اللهَ بالنَّاسِ لرءُوف رحيم[6] » وقال تعالى :

(١) سورة الاعراف ٥٦
(٢) سورة الحجر ٥٦ يقنط : ييئس
(٣) سورة البقرة ٦٤
(٤) سورة الكهف ٥٨
(٥) سورة البقرة ٣٧
(٦) سورة البقرة ١٤٣

«اعلمُوا أَن اللهَ شديدُ العقابِ وأَنَّ اللهَ غفورٌ رحيم [1]» وقال تعالى : «أَلَا تُحِبُّونَ أَن يغْفِرِ اللهُ لكم واللهُ غفورٌ رحِيم [2]» .

وهى من أَخلاق النبى فطرة وتربية إِلهية وتوجيهاً من القرآن الكريم ، قال تعا لى : «واخْفِضْ جنَاحكَ للمُؤْمِنِين [3]» .

وقد تردد وصف النبي بالرحمة فى كتاب الله ، مثل قوله تعالى «فبما رحمةٍ من اللهِ لِنْتَ لهم . ولو كُنْتَ فظًّا غليظ القلبِ لا نفضُّوا من حولك [4]» ، وقوله سبحانه : «لقدْ جاءكم رسُولٌ منْ أَنْفسِكُم ، عزيزٌ عليه ما عَنِتُّمْ ، حريص عليكم ، بالمؤْمِنِينَ رءُوفٌ رحيم [5]» ، وقوله تعالى : «ومَا أَرْسلْنَاكَ إِلَّا رحمةً للعالَمِينَ [6]» .

لهذا أَنس المسلمون إلى رسول الله من رجال ونساءٍ كما يأْنس الأَطفال إلي الأُمهات والآباء ، وكان أُنسهم منبعثاً عن حب وإجلال واطمئنان إلى سماحة نفسه ورحمته .

فقد استأْذن عمر بن الخطاب على النبي ، وعنده نساءٌ من قريش يكلمنه ويستكثرنه وأَصواتهن عالية ، فلما استأْذن عمر أَسرعت كل منهن إلى حِجابها ، فدخل عمر ورسول الله يضحك ، فقال عمر : مم تضحك يا رسول الله؟ قال عجبتُ لهؤُلاءِ لما سمعن صوتك تبادَرْنَ الحجابَ ، فقال عمر : أَنت كنت أَحق أَن يهبْنك يا رسول الله ، ثم أَقبل عليهن عمر فقال : يا عدوات أَنفسهن أَتهبنني ولا تهبْنَ رسول الله؟ قلن : نعم ، أَنت

(1) سورة المائدة ٩٨
(2) سورة النور ٢٢
(3) سورة الحجر ٨٨
(4) سورة آل عمران ١٥٩
(5) سورة التوبة ١٢٨
(6) سورة الانبياء ١٠٧

أغلظ وأفظ من رسول الله. فقال صلى الله عليه وسلم : إيهاً يا بن الخطاب ، والذى نفسى بيده ما لقيك الشيطان قط سالكاً فجًا إلا سلك فجًا غير فجِّكَ (١) .

مظاهره

تعددت مظاهر رحمته صلى الله عليه وسلم وتنوعت . فوسعت المسلمين ، وغير المسلمين ، واتسعت للأصدقاء والأعداء ، وشملت الأحرار والأرقاء ، وامتدت إلى الكبار وإلى الصغار ، واستوعبت الأناسىَّ والحيوان .

(١) بالمسلمين

١ ـ أتاه سبْىٌ ، فشكت إليه فاطمة ما تلقى من مشقة فى خدمة بيتها . وطلبت منه خادماً من السَّبْى يكفيها مُؤْنَةَ بيتها ، فأمرها أن تستعين بالتسبيح والتكبير والتحميد ، وقال : لا أُعطيكِ خادماً ، وأدع أهل الصُّفَّة تُطْوَى بطونهم من الجوع لا أجد ما أُنفق عليهم ، ولكن أبيعهم ـ السبى ـ وأُنفق عليهم ـ على أهل الصفة ـ أثمانهم (٢) .

فاقتضت رحمته بفقراء المهاجرين المنقطعين للعبادة وتعلم القرآن فى الصُّفة (٣). أن يؤْثرهم على ابنته ، فلا يستجيب لرغبتها أن يعطيها خادماً من السبى يعاونها على العمل الشاق بدارها ، وأعلمها فى صراحة أن بيع واحد من السبى لإنفاق ثمنه على فقراء الصفة خير من إعطائها إياه ، ونصح لها أن تستعين على جهد العمل بالتكبير والتسبيح والتحميد .

---

(١) الاحياء ٣/٤٥

(٢) شرح الزرقانى ٤/٣٠٢

(٣) الصفه : سقيفة المسجد ، وكان عددهم نحو اربع مائه ، وكانوا يخرجون فى كل سرية يبعثها رسول الله .

٢ ـ هاجر رجل إلى رسول الله من اليمن ، وأراد الجهاد ، فقال له الرسول : هل باليمن أبواك ؟ قال : نعم . قال : هل أذنا لك ؟ قال الرجل : لا ، فقال الرسول : فارجع إلى أبويك فاستأذنهما ، فإن فعلا فجاهدْ ، وإلا فبرَّهُما ما استطعت ، فإن ذلك خير ما تلقى الله به بعد التوحيد .

٣ ـ جاء آخر إليه ليستشيره فى الجهاد ، فقال : ألك والدة ؟ قال : نعم ، قال فالزمها ، فإن الجنة عند رجليها .

٤ ـ وقدم عليه رجل يطلب البيعة على الهجرة ، وقال : ما جئتك حتى أبكيت والدىَّ ، فقال ارجع إليهما ، فأضحكهما كما أبكيتهما(١) .

إن هذه الرحمة لتسمو إلى أعلى درجات الحنان والشفقة بالآباء والأمهات ، لأن الرسول لم يأذن بالجهاد فى سبيل الله إلا بعد أن يستأذن الإبن والديه ، ولم يبايع على الهجرة من أبكى والديه بالعزم على الهجرة ، وأمره أن يعود إليهما فيضحكهما كما أبكاهما .

٥ ـ شكا إليه رجل أنه يتأخر عن صلاة الصبح مع الجماعة ، لأن فلاناً يطيل بالناس ، فغضب رسول الله ، وقال : إنَّ منكُمْ مُنَفِّرِينَ ، فأيكم ما صلىَّ بالناس فليَتَجَوَّزْ ـ فليخفف ـ فإن فيهم الضعيف والكبير وذا الحاجة(٢) .

٦ ـ وقال صلى الله عليه وسلم : إنى لأقوم فى الصلاة أُريد أن أطول

---

(١) مسند احمد ٤٦/١٠ و ٧٢ والاحياء ١٩٥/٢
(٢) فتح المبدى ٢٥٥/١

فيها ، فأسمع بكاء الصبي ، فأتجوز - أخفف - في صلاتي ، كراهية أن أشق على أمه[١] .

٧ - لم يكن النبي يكثر دخول بيت بالمدينة غير بيت أم سُلَيْم إلا على أزواجه ، فقيل له : لم تخص أم سليم ؟ فقال : إني أرحمها ، قتل أخوها معي[٢] .

٨ - قال عبد الله بن مسعود : إني لأذكر أول رجل قطع النبي يده ، أُتِيَ بسارق فقطعه ، فكأنما أُسِفَ وجهه[٣] ، فقالوا : يا رسول الله ، كأنك كرهت قطعه ، فقال ، : وما يمنعني ، لا تكونوا عوناً للشياطين على أخيكم .

فقالوا : ألا عفوت عنه ؟ فقال : إنه ينبغي للسلطان إذا انتهى إليه حَدٌّ أن يقيمه ، إن الله عَفُوٌّ يحب العفو ، وقرأ قوله تعالى[٤] : « ولْيَعْفُوا ولْيَصْفَحُوا ، ألا تُحِبون أن يَغْفِر الله لكم ؟ والله غفور رحيم[٥] . »

٩ - كانت بَرَكَةُ بنت ثَعْلبة - وهي أم أَيْمن - مولاة لعبد الله ابن عبد المطلب ، أو لآمنة بنت وهب ، فصارت للنبيّ ميراثاً ، وكانت تَحْضُنه وتخدمه .

أعتقها النبيّ فتزوجها عُبَيْدٌ الحبشي ، فولدت له أَيْمَن ، ثم تزوجها زيد بن حارثة ، فولدت له أسامة .

---

(١) فتح المبدى ١/١٠٢ ، ٢٥٦

(٢) فتح المبدى ٢/٣٠٣ كانت ام سليم خالته من الرضاع او النسب . اما اخوها فهو حرام بن ملحان قتل يوم بئر معونة في عسكر النبي ولم يشهد النبي بئر معونة .

(٣) سفى عليه رماد لشدة تغيره

(٤) الاحياء ٢/١٧٧

(٥) سورة النور ٢٢

كان رسول الله يزورها . ثم كان يزورها أبو بكر وعمر فى منزلها كما كان رسول الله يفعل . وكان رسول الله يقول : أُم أَيمن أُمى بعد أُمى . [1]

وكان يقول : أُم أَيمن بقية من أَهل بيتى :

ولما مات عنها زوجها عُبيْد قال النبي : «من سره أن يتزوج امرأة من أَهل الجنة فليتزوج أُم أَيمن» فأَسرع زيد بن حارثة فاتخذها زوجة له .

١٠ – رأَى شيخا يُهادى بين ابنيه . فقال : ما بال هذا ؟ قالوا : نذر أَن يمشى إلى الكعبة . قال : إِن الله عن تعذيب هذا نفسه لغنى ؛ وأَمره أَن يركب. [2] .

١١ – لما علم أَن بعض المسلمين يصوم الدهر كله . ويقوم الليل كله ، نهاه. [3]

(٢) بالمشركين

١ – لما أَسلم ثُمامة بن أَثال أَقسم لأَهل مكة أَنه ان يرسل إِليهم حبة حِنْطة من اليمامة حتى يأْذن رسول الله .

ثم عاد إِلى اليمامة ، فمنع قومه أَن يحملوا إِلى مكة شيئاً ، فكتبوا إِلى النبي يقولون إِنك تأْمر بصلة الرحم . فكتب إِلى ثمامة أَن يخلى بين قومه وبين الحمل إِلى أَهل مكة [4] .

يا للخلق العظيم الذى يجب أَن يقتدى به البشر ؟

أَهذا حلم على حماقة قريش ؟

---

(١) الاستيعاب ١٧٩٣ ، ١٩٢٥ وزاد المعاد ٢٦/١

(٢) اللؤلؤ والمرجان ١٩٥/٢

(٣) الاحياء ٨٣/٣

(٤) فتح المبدى ١٥١/٣

أهذا عفو القادر على الانتقام ؟

أهذا صبر على أذى الأعداء ؟

أهذه رحمة بالمشركين الذين آذوا النبي ومن معه ، وأخرجوهم من وطنهم مكة ؟ !!

إن عمل النبي هنا يجمع هذه الفضائل كلها ، فهو لم يأمر ثمامة بأن يمنع القمح عن مشركى مكة ، لكن إسلام ثمامة هو الذى دفعه إلي أن يعاقب قريشاً بما يستطيع أن يعاقبها به ، جزاء لها على بَغْيها ومحاربتها للمسلمين وتحرشها الدائم بهم .

وقد كان من حق ثمامة أن يفعل ذلك ، لأن قريشاً مع المسلمين فى حرب متصلة ، ولأن قريشاً استباحت لنفسها من قبل أن تقاطع المسلمين ، وأن تحصرهم فى شِعْب بنى هاشم بمكة ، وأن تتعاهد على تجويعهم ومقاطعتهم ، وهى ما تزال جادة فى إنزال الأضرار بهم ما وجدت للأضرار سبيلا .

لكن رحمة النبي كانت أعلى من الخصومة ، وأرفع من العداوة ، وأعظم من مقابلة التجويع بمثله ، فإنه لم يكد يقرأ كتاب قريش حتى أرسل إلى ثمامة أن يخلى بينها وبين حِنْطة اليمامة ، وهو يعلم أن تجويع قريش يضعفها أشد الضعف ، ويقيه شرورها ، ولعله أن يعجل بسعيها إلي اعتناق الإسلام

فهل لبعض الدول المعاصرة التى تدعى العلم والتقدم والحضارة آذان تسمع ؟

هل لها عقول تعى ؟

هل لها بقايا من الضمائر تتقبل التربية والعلاج ؟

أما آن لها أن تعلم أن علمها زائف ، وأن تقدمها تأخر ، وأن حضارتها همجية

إنها تتخذ القمح والمال والدواء والسلاح وغيرها حبائل لاقتناص المحتاجين ، وأغلالا فى رقاب الطالبين ، ووسائل لإغراء المتطلعين .

ثم تقترف أحط أنواع الخسة ، فتضاعف الجريمة ، إذ تحتجز قمحها وغيره لا عن خصومها فحسب ، بل عن الذين يتأبون على الخضوع الذليل ، والتبعية المهنية .

٢ ـ حينما اتجه الرسول إلى مكة فاتحاً لقيه أبو سفيان بن الحارث ابن عبد المطلب ، وعبد الله بن أبى أمية بن المغيرة ، فالتمسا الدخول عليه ، فكلمته فيهما أم سَلَمة قائلة : ابن عمك وابن عمتك وصهرك ، فقال : لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى فهتك عرضى ، وأما ابن عمتى وصهري فهو الذى قال بمكة ما قال .

فلما علما بذلك وكان مع أبى سفيان ابن صغير له قال : والله ليأْذَنَنَّ لى أو لآخذنَّ ابنَى هذا ثم لنذهبنَّ فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً .

فلم يلبث رسول الله حين سمع بذلك أن رَقَّ لهما ، ثم أذن ، فدخلا عليه ، فأسلما (١) .

٣ ـ لما رحل عن ثقيف قال له رجل من أصحابه : يا رسول الله ادع عليهمْ ، فقال : اللهم اهد ثقيفاً وأت بهم (٢) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٤٣/٤

(٢) سيرة ابن هشام ١٣٠/٤

٤ ـ مَرَّ فى غزوة حُنَيْن بامرأة قتلها خالد بن الوليد ، والناس مزدحمون حولها ، فقال : ما هذا ؟ قالوا : امرأة قتلها خالد بن الوليد ، فقال رسول الله لبعض معه : أدرك خالدا ، فقل له إن رسول الله ينهاك أن تقتل وليدا أو امرأة أو عَسِيفاً [١] .

وكان فيهم سُهَيْل بن عمرو ، وكان فيمن يحرض على النبي ، فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله دعنى أنزع ثَنِيَّتَيْه ، ليخرج لسانه ، فلا يقوم عليك خطيباً في موطن أبدا . فقال رسول الله : لا أمثل به فيمثل الله بي ، وإن كنت نبياً ، عسى أن يقوم مقاماً لا تذمه [٢] .

٥ ـ قال لأصحابه عند توزيع الأسرى فى غزوة بدر : استوصوا بالأسارى خيرا [٣] .

٦ ـ وقال بعد الغزوة : إنى قد عرفت أن رجالا أخرجوا كرها لا حاجة لهم بقتالنا ، فمن لقى منكم أحدا منهم فلا يقتله .

٧ ـ وكان الأسير من مشركى قريش يُطْلَقُ بفِدْية يقدمها من المال ، ولكن النبي أعفى منها الفقراء مثل أبى عَزَّة عمر بن عبد الله ، إذ كان فقيرا وأبا لبنات ، فاعتذر عن الفدية بفقره ، فأطلقه رسول الله .

وقبل من الفقراء الذين يعرفون القراءة والكتابة أن يعلم كل واحد منهم عشرة من صبيان المدينة [٤] .

---

(١) سيرة ابن هشام ١٠٠/٤ العسيف : العبد أو الاجير المحتقر
(٢) السيرة ٣٠٤/٢ وتاريخ الطبرى ٢٨٩/٢
(٣) تاريخ الطبرى ٢٨٧/٢ وسيرة ابن هشام ٢٩٩/٢
(٤) الكامل للمبرد ٢١٣/١ والسيرة الحلبية ٢٥٤/٢ ومسند الامام أحمد ٢٤٧/١ وامتاع الاسماع ١٠١/١

٨ – كلمت الرسول جارية من السبايا ، فقال لها : من أنت ؟ قالت : أنا بنت حاتم الجواد .

فقال : ارحموا عزيز قوم ذَلَّ ، ارحموا عالماً ضاع بين جُهَّال[1] .

٩ – قالت أسماءُ بنت أبي بكر : قَدِمتْ عليَّ أُمي – وكان أبو بكر طلقها في الجاهلية ، فهي مشركة – بهدية من سمن وزبيب وقَرظ ، فأبيت أن أُدخلها إلى بيتي ، وأن أقبل هديتها ، وأرسلتُ إلي أُختي عائشة لتسأل رسول الله ، فقال عليه الصلاة والسلام : لِتُدْخِلَها ، ولتقبلْ هديتها ، وأنزل الله سبحانه «لا ينهاكم اللهُ عن الذِينَ لم يقاتِلُوكُمْ في الدين ولمْ يُخْرِجُوكم من دِيارِكم أن تَبَرُّوهم وتُقْسِطُوا إليهم إن الله يُحِبُّ المُقسِطِين . إنَّما ينْهَاكُمُ اللهُ عن الذِينَ قاتلوكمْ في الدِّين ، وأخرَجُوكُمْ من دِيارِكم ، وظاهرُوا على إخراجِكُمْ أن تَوَلَّوْهُمْ ، ومنْ يَتَولَّهُمْ فأُولئِكَ هُم الظالمون[2] » .

الحق أن هذه الرحمة بالآباء والأُمهات لتسمو إلى أعلى درجات الحنان والشفقة ، لأن رسول الله لم يشأْ أن يحرم الأُم المشركة عطف ابنتها عليها ، ولم يأْذن بالجهاد في سبيل الله إلا لمن أذن له أبواه .

١٠ – في غزوة حُنيْن ساق بعض المسلمين الشَّيْماء بنت الحارث بن عبد العزى – أخت رسول الله من الرضاعة إلى الرسول ، فعَنُفُوا عليها في السِّياق ، فقالت لهم : اعلموا أني أُخت صاحبكم من الرضاعة ، فلم يصدقوها ، حتى أتوا بها إلى رسول الله ، فقالت يا رسول الله ، إني .

---

(١) البيان والتبيين ٢/٢٨ .

(٢) طبقات ابن سعد ٨/١٨٢ وسير أعلام النبلاء ٢/٢٠٨ والاستيعاب ٩٠٥ ، ١٧٨١ وفتح المبدى ٢/٢٥٩ والاحياء ٢/١٩٢ .

أُختك من الرضاعة . قال : وما علامة ذلك ؟ قالت : عَضَّةٌ منك في ظهري ، فعرف رسول الله العلامة : فبسط لها رداءه ، فأَجلسها عليه وخيرها ، وقال : إن أَحببت فعندي مُحَبَّةٌ مكرمة . وإن أَحببت أَن أُمتعك وترجعي إلى قومك فعلت . فقالت : بل تمتعني وتردني إلى قومي . فأَعطاها ثلاثة أَعبد وجارية ، وردها إلى قومها .

فلما عادت إلى أَهلها كلمتها النسوة في بجاد[1] ، فرجعت إلى النبي وطلبت منه أَن يهب لها بجادا ويعفو عنه . فاستجاب لها . وأَمر لها ببعير أَو بعيرين . وسأَلها عمن بقي من أَهلها .

ثم قابلها بعد ذلك : ومنحها نَعَما وشاء لها ولمن بقي من أَهلها[2] .

١١ – قيل له وهو يقاتل أَعداءه : لو لعنتهم يا رسول الله ؟ فقال : إنما بعثت رحمة . ولم أُبعث لعَّاناً .

وكان إذا سئل أَن يدعو على أَحد مسلم أَو كافر عَدَلَ عن الدعاء عليه إلى الدعاء له .

قالوا له : يا رسول الله إن دَوْساً عصت وأَبت فادعُ عليهم ، فقال : اللهم اهد دوساً وائت بهم[3] .

وما ضرب أَحدا بيده قط إلا أَن يضرب في سبيل الله .

وما انتقم من شيءٍ صنع إليه قط إلا أَن تنتهك حرمة الله .

---

(١) هو من بني سعد ، وكان قد ارتكب جريمة شنيعة اذ أتاه رجل مسلم فأخذه بجاد فقطعه عضوا عضوا ثم احرقه بالنار ، فلما كانت غزوة حنين هرب ، فقبض عليه المسلمون .

(٢) سيرة ابن هشام ٤/١٠٠ وكتاب المغازي ٩١٤

(٣) فتح المبدي ٢/٣١٥ والاحياء ٢/٣٢١

وما خُيِّرَ بين أمرين قط إلا اختار أيسرهما ، إلا أن يكون فيه إثم أو قطيعة رحم[1] .

(٣) بالأطفال

١ ـ كان يداعب الأطفال ، ويجلسهم فى حِجْره ، وكان يَصُفُّ عبد الله وعبيد الله وغيرهما من أولاد عمه العباس ، ويقول : من سبق إلىَّ فله كذا ، فيستبقون إليه ، فيقعدون على صدره ، فيقبلهم ، ويلتزمهم[2]

٢ ـ لما قتل جعفر بن أبى طالب فى غزوة مُؤْتَةَ حزن النبى ، وأسرع إلى دار جعفر ، فدخل على زوجته أسماء بنت عُمَيْس ، فوجدها قد عجنت عجينها ، وغسلت بنيها ، ونظفتهم ودهنتهم ، فقال لها : ائتينى ببنى جعفر .

فلما أتته بهم تشممهم وذَرَفَتْ عيناه ، فقالت أسماءُ فى لهفة وقد أدركت ما أصابها : يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى ، ما يبكيك؟ أبلغك عن جعفر وأصحابه شىء ؟ قال : نعم ، أُصيبوا هذا اليوم ، وانهمر الدمع من عينيه .

فجعلت أسماءُ تصيح ، حتى اجتمع النساءُ إليها .

وخرج النبى إلى أهله ، فقال : لا تغفلوا عن آل جعفر ، واصنعوا لهم طعاماً ، فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم[3] .

٣ ـ رأى ابنة مولاه زيد مقبلة ، فربَتَ على كتفيها ، وبكى ،

---

(١) الاحياء ٢/٣٢١

(٢) السيرة الحلبية ٣/٣٧٧

(٣) سيرة ابن هشام ٤/٢٢

فدهش بعض الصحابة من بكاء رسول الله على شهداء مُؤْتَة ، فكان رده على دهشتهم : إن هذه عبرات الصديق على صديقه الذى فقده .

٤ ــ أبصرَه الأقرع بن حابس يقبل الحسن ، فقال إن لى عشرة من الولد ما قبلت واحدا منهم . فقال رسول الله : أو أملكُ لك أن نزع الله من قلبك الرحمة ، من لا يَرْحَمْ لا يُرْحَم (١) .

٥ ــ كان يُؤْتَى بالصبى الصغير ، ليدعو له بالبركة ، وليسميه ، فيأخذه فيضعه فى حِجْره ، فربما بال الصبى فيصيح به بعض من يراه ، فيقول النبي : لا تَزْرَمُوا (٢) الصبي بوله ، فيدعه حتى يقضى بوله ، ثم يفرغ من دعائه له وتسميته ، ويسر أهله به ، لئلا يروا أنه تأذى ببوله فإذا انصرفوا غسل ثوبه بيده (٣) .

٦ ــ عن أم خالد بنت خالد بن سعيد الأموية قالت : أتيت رسول الله مع أبي وعلى قميص أصفر ، فقال رسول الله سَنَهْ سَنَهْ (٤) فذهبت ألعب بخاتم النبوة ، فنهرنى أبي ، فقال رسول الله : دعها ، ثم قال : أبْلِى وأخْلِقِى ثم أبلى وأخلقى (٥) .

٧ ــ عن أنس : كان رسول الله يخالطنا ، حتى كان يقول لأخ لى صغير : يا أبا عُمير ما فعل النُّغَيْر (٦) .

---

(١) فتح المبدى ٣٠٢/٣ وتيسير الوصول ٥٠/١ وصحيح مسلم ٧٦/١٥

(٢) لاتزرموا : لاتقطعوا

(٣) الاحياء ١٧٣/٢

(٤) سنه سنه : حسن حسن بالحبشية

(٥) فتح المبدى ٣٢٢/٢

(٦) فتح المبدى ٣١١/٢ يخالطنا بالملاطفة وطلاقة الوجه والمزح . واخوه كان من أمه وهو ابن أبى طلحة زيد بن سويل الانصارى كان له طائر مات فحزن عليه . النغير : مصغر نغر وهو طائر كالعصفور محمر المنقار يسميه أهل المدينة البلبل .

٨ – كان يصلى وهو يحمل على عنقه أو على عاتقه أُمامة بنت زينب ابنته ، وهى لأبى العاص بن الربيع بن عبد شمس ، فإذا سجد وضعها ، وإذا قام حملها[١] .

٩ – أطال رسول الله سجدة فى صلاته ، فقال له أحد الصحابة :

يا رسول الله ، إنك سجدت سجدة أطلتها ، حتى ظننا أنه قد حدث أمر ، أو أنه يوحى إليك .

فقال : كل ذلك لم يكن ، ولكن ابنى ارتحلنى ، فكرهت أن أعْجلَهُ حتى يقضى حاجته .

وكان هذا الإبن هو الحسن أو الحسين[٢] .

١٠ – مر ببيت فاطمة فسمع حسيناً يبكى ، فقال لفاطمة : ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى .

١١ – كان يحمل الحسين على عاتقه ويقول : اللهم إنى أُحبُّه فأَحبَّه .

١٢ – تعثر الحسن والنبى على المنبر ، فنزل فحمله ، وقرأ قوله تعالى : « إنَّما أَموالُكُمْ وأَولادُكُمْ فِتْنَةٌ » .

١٣ – كان يلاعب زينب بنت أم سلمة ويقول : يا زوينب يا زوينب مرارا[٣] .

١٤ – كان يزور الأنصار ، ويسلم على صبيانهم ، ويمسح على رءوسهم[٤]

---

(١) فتح المبدى ٢١٩/١

(٢) تيسير الوصول الى جامع الاصول ٨٥/٣ والاحياء ١٩٤/٢ .

(٣) كنز العمال ٢٧/٤

(٤) كنز العمال ٣٠/٤

(٤) بالأرقاء

١ – بعث أنس بن مالك لقضاء حاجة فأبطأ عليه . فتبعه فوجده فى فتية يلعبون فقال له : يا أُنَيْس اذهب إلى حيث أمرتك[١] .

٢ – أرسل وصيفة فى قضاء عمل . فأبطأت عليه . فقال لها : لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك .

٣ – عن أبي ذرٍّ : سابيت رجلا فعيرته بأُمه . فقال لى النبى صلى الله عليه وسلم يا أبا ذر أعيرته بأُمه ؟ إنك امرؤٌ فيك جاهلية . إخوانكم خوَلكم جعلهم الله تحت أيديكم . فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ، وليلبسه مما يلبس ، ولا تكلفوهم ما يغلبهم . فإن كلفتموهم فأعينوهم[٢] .

٤ – خرج أبو ذر الغفارى إلى الناس يوماً ومعه غلامه يرتدى حلة مثل حلته ، فسئل فى ذلك . فقال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : هم إخوانكم وخولكم ، جعلهم الله تحت أيديكم ، فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل . وليلبسه مما يلبس . ولا تكلفوهم من العمل ما يغلبهم ، فإن كلفتموهم فأعينوهم .

٥ – أوصى بهم فى آخر خطبة له . وجاء فى وصيته قوله : فما أحببتم فأمسكوا . وما كرهتم فبيعوا . ولا تعذبوا خلق الله فإن الله ملككم إياهم ، ولو شاء لملكهم إياكم[٣] .

---

(١) صحيح مسلم ٧١/١٥
(٢) فتح المبدى ٦٢/١
(٣) الاحيــــاء ١٩٥/٢

(٥) بالحيوان

١ ـ أكل يوماً رطباً فى يمينه ، فحفظ النوى فى يساره ، فمرت شاة ، فأشار إليها بالنوى ، فجعلت تأكل من كفه اليسرى ، وهو يأكل بيمينه ، حتى فرغ ، وانصرفت الشاة .

وكان يأكل لحم الطير الذى يصاد ، ولكنه لم يكن يتبعه ولا يصيده ، بل يحب أن يصاد له ، ويؤتى به فيأكله[١] .

٢ ـ خرج ذات يوم فإذا هو بأبى بكر وعمر ، فقال : ما أخرجكما هذه الساعة ؟ قال كل منهما : أخرجنا الجوع ، قال : وأنا والذى نفسى بيده أخرجنى الذى أخرجكما .

ثم أتى بهما رجلا من الأنصار ، فإذا هو ليس فى بيته ، فلما رأته المرأة قالت : مرحباً وأهلا ، فقال لها رسول الله : أين فلان ؟ قالت : ذهب يستعذب لنا الماء .

ولم يلبث الأنصارى أن جاء ، فنظر إلى رسول الله وصاحبيه فقال الحمد لله ، ما أحد اليوم أكرم أضيافاً منى ، فانطلق بهم إلى بستانه فجاءهم بعِذْقٍ فيه بُسْرٌ[٢] وتمر ورُطَبٌ ، فقال كلوا . وأخذ المُدْيَةَ ، فقال له رسول الله : إياكَ والحَلُوب .

فذبح لهم ، فأكلوا من الشاة ومن العِذْق ، وشربوا[٣] .

فلماذا نهاه عن ذبح الشاة الحلوب ؟

---

(١) الاحياء ٣٢٨/٢

(٢) العذق : الكباسة (السباطة) . البسر : التمر قبل ارطابه .

(٣) شرح الزرقانى ٣١٧/٤ وكنز العمال ٣٠/٤

أشفق على أهله ، لأنهم ينتفعون بلبنها ، أو لأن صغارها فى حاجة إلى هذا اللبن ، على حين أن كرم الضيافة من الممكن أن يتحقق بذبح غيرها .

٣ ـ فى مسيره من المدينة إلى مكة عام الفتح رأى على ماء فى الطريق كلبة تَهِرُّ على أولادها وهن حولها يرضعنها ، فأمر رجلا من أصحابه أن يقوم حذاءها حتى لا يعرض أحد من الجيش لها ولا لجرائها[1] .

وقد كان من المتوقع فى حالة الزحف ألا يعبأ بالكلبة ولا بجرائها ، وكان من المتوقع ألا يكلف أحدا بحراستها وحمايتها وإبعاد الفزع عنها .

لكن رحمة الرسول كانت فوق المتوقع ، لأن أخلاقه الكريمة فوق ما يتوقع الناس .

٤ ـ رأى حمارا قد وُسِم فى وجهه ، فأنكر ذلك ، ونهى عن وسم الحيوان فى وجهه ، وعن ضربه على وجهه[2] .

٥ ـ قال جُنادة بن جراد العيلانى الأسدى : بعثت ارسول الله صلى الله عليه وسلم . بإبل قد وسَمْتُها فى أنفها ، فقال : ما وجدتَ فيها عضوا تسمهُ إلا فى الوجه ؟ أما إن أمامك القصاص . فقلت : أمرها إليك يا رسول الله ، فقال : ائتنى بشىء ليس عليه وسم ، فأتيته ، فوضعت الميسم فى العنق ، فلم يزل يقول : أَخِّر أَخِّر ، حتى بلغت الفخذ ، فقال : سِمْ على بركة الله ، فوسمتها فى أفخاذها[3] .

٦ ـ كانت السيدة عائشة مع رسول الله فى سفر على بعير صَعْب ،

---

(١) كتاب المغازى ٨٠٤

(٢) تيسير الوصول ٣/٣٩٠

(٣) كنز العمال ٥/٤٦ والاستيعاب ١/٢٥١

فجعلت تُصَرِّفه يميناً وشمالا ، فقال لها : يا عائشة عليك بالرفق ، فإنه لا يدخل فى شيء إلا زانه . ولا يُنْزَع من شيء إلا شانه[1] .

٧ - سافر معه بعض أصحابه . فرأوا حُمَّرة معها فرخان لها . فأخذوهما فجاءت تُعَرِّش ، فلما رآها رسول الله قال : من فجع هذه بولدها ؟ ردوا إليها ولدها[2]

٨ - كثيرا ما أوصى برحمة الحيوان والإشفاق عليه ، كقوله :

(ا) إذا ركبتم هذه الدواب فأعطوها حقها من المنازل . ولا تكونوا عليها شياطين[3] .

(ب) لعن الله من مَثَّل بالحيوان[4] .

(حـ) أما بلغكم أنى لعنت من وسم البهيمة في وجهها أو ضربها فى وجهها ؟[5] .

(د) نهى عن التحريش بين البهائم[6] .

(هـ) نهى عن خصاء الخيل والبهائم[7] .

(و) اتقوا الله فى هذه البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة[8] .

(ز) إن امرأة بَغِيًّا رأت كلباً فى يوم حار يُطيف ببئر قد أَدْلَعَ لسانه من العطش ، فنزعت له مُوقها : فغُفر لها به[9] .

(ح) دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الأرض[10] .

---

(١) الاحياء ١٦١/٣

(٢) تيسير الوصول ٥٢/٢ حمرة بضم الحاء وتشديد الميم نوع من الطير كالعصفور تعرش : ترفرف وترخى جناحيها وتدنو من الارض .

(٣) الى (٨) كنز العمال ١٥/٥

(٩) و (١٠) تيسير الوصول ٥٢/٢ أدلع لسانه : اخرجه من شدة العطش . الموق : الخف . خشاش الارض : هوامها وحشراتها

(ط) بينما رجل يمشى فاشتد عليه العطش . فنزل بئرا ، فشرب منها . ثم خرج فإذا هو بكلب يلهث يأكل الثرى من العطش ، فقال : لقد بلغ هذا مثل الذى بلغ بى . فملأ خفه ، ثم أمسكه بفيه ، ثم رَقِيَ فسقى الكلب ؛ فشكر الله له ، فغفر له . قالوا : يا رسول الله وإن لنا فى البهائم أجرا ؟ قال : فى كل كبد رطبة أجر[1] .

حضه على الرحمة

كثيرا ما أمر رسول الله بالرحمة . وكثيرا ما نهى عن القسوة ، وهو فى أمره وفى نهيه يضرب الأمثال للناس لعلهم يعقلون .

وقد سبقت عدة أحاديث فى الرحمة بالحيوان . وهذه طائفة أخرى :

١ ـ من لا يَرْحَم لا يُرْحَمْ[2] .

٢ ـ من لم يرحم صغيرنا ولم يعرف حق كبيرنا فليس منا[3] .

٣ ـ خاب عبد وخسر لم يجعل الله تعالى فى قلبه رحمة للبشر[4] .

٤ ـ خير بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يُحْسَنُ إليه . وشر بيت فى المسلمين بيت فيه يتيم يُساءُ إليه . أنا وكافلُ اليتيم فى الجنة هكذا . وأشار بإصبعيه[5] .

---

(١) فتح المبدى ٢/٢٢٤ الكبد الرطبة : المراد كل ذى روح .

(٢) فتح المبدى ٣٠٢/٣

(٣) كنز العمال ٢٤/٢ والجامع الصغير ٢٩٧/٢

(٤) كنز العمال ٣٤/٢

(٥) كنز العمال ٣٥/٢

٥ ـ إن الله يحب الرفق فى الأمر كله[١] .

٦ ـ من سره أن يُنْسأَ له فى أثره ، ويوسَّع عليه فى رزقه فليصِلْ رحمه[٢] .

٧ ـ أفضل الصدقة على ذي الرحم الكاشح[٣] .

٨ ـ إن الرحم معلقة بالعرش ، وليس الواصل بالمكافىء ، ولكن الواصل الذى إذا انقطعت رَحِمُهُ وصلها[٤] .

٩ ـ كان آخر ما أوصى به رسول الله أن قال : اتقوا الله فيما ملكت أيمانكم ، أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، ولا تكلفوهم من العمل ما لا يطيقون ، فما أحببتم فأمسكوا ، وما كرهتم فبيعوا ، ولا تعذبوا خلق الله ، فإن الله ملَّككم إياهم ، ولو شاء لملَّكهم إياكم .

١٠ ـ جاء رجل إلى رسول الله فقال : يا رسول الله كم تعفو عن الخادم ؟ فصمت عنه رسول الله ، ثم قال : اعف عنه فى كل يوم سبعين مرة[٥] .

١١ ـ إذا أتى أحدكم خادمُهُ بطعامه فيلجلسه ، وليأكل معه ، فإن لم يفعل فليناوله لقمة[٦] .

١٢ ـ اتقوا الله فى الضعيفين : المملوك والمرأة[٧] .

١٣ ـ إن الله كتب عليكم الإحسان على كل شىء ، فإذا قتلتم فأحسنوا القِتلة ، وإذا ذبحتم فأحسنوا الذِّبْحة ، وليُحِدَّ أحدكم شفرته ، وليُرِحْ ذبيحته[٨] .

---

(١) فتح المبدى ٣/٣٠٥
(٢) الى (٤) الاحياء ٢/١٨٤ ـ ١٩٢ الكاشح : المعادى
(٥) و (٦) الاحياء ٢/١٩٦.
(٧) البيان والتبيين ٢/٣٠
(٨) الجامع الصغير ١/١٧٧

١٤ – من ضرب مملوكه ظالماً أُقِيدَ منه يوم القيامة[١] .

١٥ – من ضرب غلاماً له حدًّا لم يأْته ، أو لطمه ، فإن كفارته أن يُعتِقه[٢] .

١٦ – من رحم ولو ذبيحة عصفور رحمه الله يوم القيامة[٣] .

١٧ – كان إذا أَمَّر أَميرا على جيش أو سريَّةٍ أوصاه ، ومن وصيته قوله : اغزوا ولا تَغُلُّوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدا .

وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال ، فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ثم ادعهم إلى الاسلام فإن أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين ، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذلك فلهم ما للمهاجرين ، وعليهم ما على المهاجرين ، فإن أبو أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونون كأعراب المسلمين ، يجرى عليهم حكم الله الذى يجرى على المؤمنين ولا يكونَ لهم فى الغنيمة والفىء شىءٌ ، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن أبوا فسلهم الجزية ، فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم ، فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم .

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ، ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك ، فإنكم إن تُخْفِروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله .

---

(١) و (٢) الجامع الصغير ٣٨١/٢

(٣) الجامع الصغير ٣٧١/٢

وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم لله فلا تنزلهم على حكم الله ، ولكن أنزلهم على حكمك ، فإنك لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا[1] .

---

(١) صحيح مسلم ٣٧/١٢

الفصل الثالث عشر

إيثار السلام

النبي بصبره وحلمه ورحمته وعفوه وحيائه وكرمه داعية إلى السلام ، ومؤثر للوئام على الخصام .

وهو بتربيته القرآنية رسول سلام ومحبة ما وجد سبيلا إلى سلام ومحبة ، فإن لم تكن من الحرب مندوحة فليقابل القوة بالقوة .

فما حكم القرآن الكريم في هذا وذاك ؟

(١) السلام فى القرآن

يؤثر القرآن الكريم السلم على الحرب ما كان فى الطاقة إيثار ، فإذا لم يكن بد من الحرب لسلامة العقيدة والحياة والوطن فالحرب شر لا مندوحة عنها :

١ – ذلك بأن القرآن يدعو إلى المثل الأعلى فى جميع الصلات والمعاملات ، فإن لم ينجح المثل الأعلى كان من الحتم التمشى مع الواقع ومجاراة الأحداث .

وقد دعا القرآن الكريم إلى السلام فلم يستجب خصوم الإسلام ، وأبوا إلا الحرب . وصبر النبي على أذاهم ، فلم يزدادوا إلا عتوا وفسادا

فى الأرض ، فلم يبق للنبي إلا أن يلجأ إلى القوة المادية والنفسية ، لأن القرآن كما يدعو إلى المسالمة والأناة يدعو إلى إعداد القوى لحماية النفس والدين من بغى الأعداء .

٢ – والقرآن يسمى الجنة دار السلام « لهم دارُ السَّلام عند ربهم[١] » ويجعل التحية فيه سلاماً « تحيَّتُهمْ يَوْمَ يَلْقَوْنَهُ سلامٌ وأعدَّ لهم أجْراً كَريماً »[٢] « الَّذينَ تَتَوفَّاهُمُ الملائِكَة طيِّبينَ يقولُونَ سلامٌ عليْكُمُ ادْخُلوا الجنَّة بما كُنْتُمْ تعْمَلُونَ »[٣] ، ويصف المؤمنين المتقين بالمسالمة « وعبادُ الرحْمنِ الذِينَ يَمْشُونَ على الأرْضِ هَوْنًا ، وإذا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلُونَ قَالُوا سَلامًا »[٤] على أن السلام من أسماء الله : « هُوَ اللهُ الذِى لاَ إلهَ إلَّا هُوَ الملِكُ القُدُّوسُ السّلام[٥] » .

والسلام تحية المسلمين كلما التقوا فرادى وجماعات ، وهم يقواون فى تشهدهم فى كل يوم مرات : السلام عليك أيها النبىّ ورحمة الله وبركاته ، السلام علينا وعلى عباد الله الصالحين ، ويختتمون كل صلاة بالسلام .

٣ – وإذا كانت الحرب فى طبائع البشر فإن غاية ما تطمح إليه الإنسانية الراقية أن تضيق نطاقها ، وأن ترعى فيها حرمات الناس رعاية كاملة .

والإسلام هو الذى يكفل ذلك ويرعاه ، فإن النبى لم يحارب إلا ليصد الاعتداء ، ولم يَسْتَلّ سيفه إلا عند اليأس من مسالمة الأعداء .

---

(١) سورة الانعام ١٢٧
(٢) سورة الأحزاب ٤٤
(٣) سورة النحل ٣٢
(٤) سورة الفرقان ٦٣.
(٥) سورة الحشر ٢٣

والنبي لم يحارب إلا من حاربوه « وقاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ الذِينَ يُقاتلونَكُم ، ولا تَعتدُوا إنَّ اللهَ لا يُحِبُّ المُعْتَدِينَ »[1] و « أُذِنَ للَّذِينَ يقَاتلُونَ بأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وإنَّ اللهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِير[2] » .

ولم يعاد إلا من عادوه « لَا يَنْهَاكُمُ اللهُ عن الذِينَ لم يُقاتلوكم فى الدِّين ولم يُخْرِجوكمْ مِنْ دِياركمْ أن تَبَرُّوهمْ وتُقْسِطُوا إليْهِم ، إنَّ اللهَ يُحِبُّ المُقْسِطِين . إنما ينْهَاكُمُ اللهُ عن الذِينَ قاتلوكُمْ فى الدِّين وأخرجوكُمْ من دياركم ، وظَاهَرُوا على إخْراجكُمْ أن تَوَلَّوْهم ، ومن يَتولَّهم فأُولئك هم الظَّالِمُونَ[3] » .

ولم يتجاوز النبي فى حروبه حد الدفاع المشروع والإرهاب الوازع إلى الانتقام الحانق المبيد «فمن اعْتَدَى عليكُمْ فاعتدُوا عليهِ بمِثْلِ مَا اعتَدَى عَلَيكُمْ ، واتَّقُوا اللهَ ، واعلَمُوا أنَّ اللهَ مَعَ المتَّقِينَ[4] » .

وكان النبي يرحب بالسلم إذا ما جنح الأعداءُ إلى سلم قال تعالى : « فإنْ اعْتَزَلُوكُمْ فَلَمْ يُقَاتِلُوكُمْ وأَلْقوا إليْكُمُ السَّلَمَ فما جَعَلَ اللهُ لكُمْ علَيْهِمْ سَبِيلاً[5] » وقال سبحانه : «وإنْ جنَحُوا للسَّلْمِ فاجْنَحْ لها ، وتوكَّل على اللهِ إنه هُوَ السميعُ العليم . وإنْ يُريدوا أن يَخْدَعُوكَ فإنَّ حَسْبَكَ اللهُ ، هو الذِى أيَّدكَ بنَصْرِهِ وبالمؤْمنِين ، وألَّفَ بَيْنَ قُلوبهم ، لوْ أنْفَقْتَ ما فى الأَرْضِ جميعاً ما أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلوبهم ، ولكنَّ اللهَ أَلَّفَ بينَهُمْ ، إنَّه عزيزٌ حَكِيمٌ[6] » .

---

(١) سورة البقرة ١٩٠
(٢) سورة الحج ٣٩
(٣) سورة الممتحنة ٨-٩ تقسطوا اليهم : تعاملوهم بالحسنى والعدل
(٤) سورة البقرة ١٩٤
(٥) سورة النساء ٩٠
(٦) سورة الانفال ٦١-٦٣

ثم إنه كان رحيما بأعدائه ، لم يمثل بقتلاهم ، ولم يخرب عمرانهم ، ولم يجبر أحدا منهم على نبذ دينه واعتناق الإسلام .

(٢) القوة الحربية فى القرآن

من السهل على من يتبصر فى القوانين التى سنها القرآن الكريم للحرب ، ويدرس الحروب الإسلامية فى عهد النبى وخلفائه الراشدين ، أن يعلم أن الحرب شر لا مفر منه ، لأنها فى طبائع الناس ، وأن يوقن بأن القرآن شرع للحرب أسمى النظم وأعظمها سماحة ، فى بواعث الحرب ومقدماتها ، وفى سيرها والتحامها ، وفى الغاية منها ، وفى نتائجها وآثارها[1] .

وإذا كان القرآن الكريم قد حض على السلم ، فإنه حض على القوة ، لأن الحق الذى لا تسنده القوة مضيع مهضوم .

١ – حض على الاستعداد الحربى لصد الأعداء وإرهابهم ، قال تعالى : « وَأَعِدُّوا لَهُم مَا استَطَعتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِباطِ الخيلِ ، تُرْهِبُونَ به عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوكُمْ »[2] .

وهذه الدعوة على صراحتها ووضوحها بعيدة عن التحرش بالآخرين ، لأن الآية فى معرض الأمر بالتقوى والاستعداد للدفاع تعلن أن الغرض من إعداد القوة هو تخويف الخصوم حتى لا يطمعوا فى المسلمين ؛ والمراد بالأعداء هم الذين يقاومون الإسلام ، ويعوقون نشره ، ويعذبون أهله ،

---

(١) راجع سماحة الاسلام ١٦٩–١٨٨ احمد الحوفى

(٢) سورة الانفال ٦٠ رباط الخيل : اعدادها وتجهيزها للجهاد

ويعادون المسلمين ، ويتطلعون إلى القضاء عليهم أو الاستيلاء على بلادهم ، كما كان يحدث من قريش ومن اليهود .

٢ ـ والقرآن يحرض على قتال المشركين في شجاعة وصبر واستهانة بالحياة ، لكنه لا يأمر المسلمين أن يبدأوهم بحرب ؛ لأن القرآن طالما نفّر من الظلم والبغي والعدوان ، قال تعالى : «يَأَيُّهَا النبيُّ جَاهِدِ الكُفَّارَ والمُنَافِقِينَ واغْلُظْ عليهِمْ[1] » وقال «وقاتِلُوا المُشْرِكِينَ كافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً[2] » وقال « فقَاتِلُوا أَئِمَّةَ الكُفْرِ ، إِنَّهُمْ لا أَيمَانَ لهمْ : لعلَّهُمْ ينتَهُونَ . أَلَا تُقَاتِلُونَ قَومًا نَكَثُوا أَيمَانَهُمْ وهَمُّوا بإخراجِ الرَّسُولِ وهُمْ بدءُوكمْ أوَّلَ مَرَّةٍ ، أَتَخْشَوْنَهُمْ ؟ فاللهُ أَحقُّ أَن تَخْشَوْهُ إن كنتُمْ مُؤْمِنِينَ[3] » .

وقال تعالى : « كُتِبَ عليْكُم القِتالُ وهوَ كرهٌ لكمْ ، وعَسَى أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وهو خيرٌ لكم ، وعَسَى أن تُحِبُّوا شيئاً وهو شرٌّ لكم ، واللهُ يعْلَمُ وأَنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ[4] » .

وقال سبحانه : « إِنَّمَا المؤْمِنُونَ الذِينَ آمَنُوا باللهِ ورَسُولِهِ ، ثُمَّ لمْ يَرْتَابُوا ، وجاهَدُوا بأَمْوَالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ فى سبِيلِ اللهِ ، أُولئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ »[5]

٣ ـ وعد القرآن الكريم المجاهدين الذين يُسْتَشْهَدُونَ فى الحرب دارَ الخلد مثوبةً لهم على الاستشهاد فى الدفاع عن الدين والأرواح والأموال ، قال تعالى : « إِنَّ اللهَ اشْتَرَى من المؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وأَمْوالَهُمْ بأَنَّ لهُمُ الجنَّةَ

(١) سورة التوبة ٧٣
(٢) سورة التوبة ٣٦
(٣) سورة التوبة ١٢ـ١٣
(٤) سورة البقرة ٢١٦
(٥) سورة الحجرات ١٥

يُقاتِلُونَ فى سبِيلِ اللهِ فيَقْتُلُونَ ويُقْتَلُونَ ، وعداً عليْهِ حقًّا فِي التَّوْراةِ والإنجيلِ والقُرآن[1] » .

ووعد المجاهدين ثواباً عظيما فى قوله : « ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لا يُصِيبهم ظَمَأٌ ولا نَصَبٌ ولَا مخْمَصَةٌ فى سَبِيلِ اللهِ ، ولا يَطأُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الكفَّارَ ، ولا ينالون من عَدُوٍّ نَيْلا ، إلا كُتِبَ لهم به عملٌ صالح ، إنَّ اللهَ لا يُضِيعُ أَجْر المحْسِنِينَ ، ولا يُنْفقون نفقةً صغيرةً ولا كبيرةً ، ولا يَقْطَعون وادِياً إلَّا كُتِبَ لهُمْ ، ليَجْزِيهُمُ اللهُ أَحسَنَ ما كَانُوا يَعْمَلُونَ[2] » .

٤ – حض على الثبات فى وجه العدو ، وحض على الثقة بالنفس وبالله ، وأمر بالاتحاد وطاعة القائد ، قال تعالى : « يأَيها الذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الذِينَ كَفَرُوا زَحفًا فلا تُوَلُّوهُمُ الأَدْبَارَ ، ومَنْ يُوَلِّهِمْ يَومَئِذٍ دُبُرَهُ إلا مُتَحرِّفاً لِقِتال أَو مُتَحيِّزًا إلى فِئةٍ فقدْ باءَ بغضبٍ من اللهِ ، ومأْواهُ جهنَّم وبِئْس المصيرُ[3] » .

٦ – قَرَّع الجبناء المتخلفين عن الجهاد ، لأنهم ضعاف النفوس يؤْثرون سلامتهم على سلامة الدين والمسلمين ، قال تعالى فِي المنافقين الذين تخلوا عن غزوة تَبُوك وثَبَّطوا غيرهم : « فَرِحَ المُخَلَّفون بمَقْعدِهِمْ خِلافَ رسول الله ، وكَرِهُوا أَنْ يُجاهدوا بأَمْوالِهم وأَنفُسِهِمْ فى سَبِيلِ الله ، وقالوا لَا تَنْفِرُوا فى الحَرِّ . قُلْ نارُ جهنَّمَ أَشدُّ حَرًّا لو كانوا يَفْقَهُونَ[4] » .

٧ – نَفَّر القرآن الكريم من الاستخذاء وقبول الضيم والإقامة على

---

(١) سورة التوبة ١١١

(٢) سورة التوبة ١٢٠–١٢١ نصب : جهد وتعب ، مخمصة : جوع . نيلا : قتلا او أسرا أو غنيمة .

(٣) سورة الانفال ١٥–١٦ متحرفا لقتال : مدارا فى الحرب . متحيزا : منضما

(٤) سورة التوبة ٨١

الخسف ، قال تعالى : « إنَّ الذِينَ تَوَفَّاهُم الملائِكَةُ ظالِمِى أَنْفُسِهِمْ : قالُوا فِيم كنتمْ ؟ قالُوا : كنَّا مُستَضْعَفِينَ فى الأَرضِ ، قالوا : أَلمْ تكُنْ أَرضُ اللهِ واسعة فتهاجِرُوا فيهَا ؟ فأُولئكَ مأْواهُمْ جَهَنَّمُ وساءتْ مَصيرا . إِلَّا المُسْتَضْعفينَ من الرِّجالِ والنِّساءِ والوِلْدَانِ لا يَستَطِيعُونَ حِيلةً ولا يهتَدُونَ سَبِيلاً . فأُولئكَ عَسَى اللهُ أَن يَعفُوَ عنهم ، وكانَ اللهُ عَفُوًّا غَفُورًا [1] » .

فالمسلمون الذين يرضون بالذل حطب جهنم ، أَما الضعفاءُ الذين لا يقدرون على الجهاد أَو الهجرة من رجال ونساءٍ وولدان ، فقد استثناهم اللهُ سبحانه من الوعيد .

مظاهره

كان النبي محباً للسلام مؤثرًا له ، لأَن هذا الإِيثار هو الذى رباه عليه القرآن الكريم ، ولأَنه يتفق وشمائل النبي كلها .

وهذه بعض المظاهر الدالة على إِيثار السلام .

(أولا) فى الأسماء

كان يحب الأَسماءَ التى تدل على السلام أَو تشير إِليه ، ويتفاءَلُ بها ، ويؤْثرها على الأَسماء المتصلةِ بالحرب أَو بالظلم .

وقد غيَّر بعض الأَسماءِ التى توحى بالقطيعة والحرب والجفاءِ ، فقد أَراد على بن أَبى طالب أَن يسمى ابنه الأَول من السيدة فاطمة حرباً ، فلما سأَله النبي عن الاسم الذى اختاره قال : حرب ، فقال النبي : بل هو

(١) سورة النساء ٩٧-٩٩

حسن . ثم ولد له ابنه الثاني فسماه عليٌّ حرباً ، ولكن النبي سماه حسيناً [١] .

وسأل مرة : من يحلب هذه اللِّقْحة ؟ فقام رجل ، فقال له الرسول : ما اسمك ؟ فقال : مُرَّة ، قال له : اجلس . ثم قال : من يحلب هذه ؟ فقام رجل آخر ، فقال له الرسول : ما اسمك ؟ فقال : حرب ، قال له : اجلس . ثم قال : من يحلب هذه ؟ فقام رجل ، فقال له الرسول : ما اسمك ؟ فقال : يعيش ، قال له : احلب .

وسأل رجلا عن اسمه : فقال : أَصْرم ، فقال : بل أنت زُرْعة ، وسأل آخر عن اسمه ، فقال : حَزْن ، قال : بل أنت سَهْل [٢] .

وغَيَّر اسم غاوى بن ظالم إلى راشد بن عبد ربه .

ومرَّ فى غزوة ذى قَرَد على ماء ، فسأل عنه ، فقيل له : هذا اسمهُ بئسان ، وهو مالح ، فقال : لا ، بل اسمه نُعمان ، وهو طيب ، فوجدوه طيباً عذباً ، واشتراه طلحة بن عبيد الله ثم تصدق به ، فلما جاء إلى رسول الله وأخبره بذلك قال له : ما أنت يا طلحة إلا فَيَّاض ، فسمى طلحة بالفياض [٣] .

وأتى قوم إليه فقال لهم : من أنتم ، [فقالوا : نحن بنو غيَّان . فقال : بل أنتم بنو رَشْدان [٤] .

---

(١) منهاج السنة النبوية . ابن تيمية

(٢) تيسير الوصول ١/٣٨ ، ٤٠ اللقحة : الناقة الحلوب الغزيرة اللبن . الحزن : ماغلظ من الارض . الأصرم : الفقير الكثير العيال أو المجذوذ المقطوع . زرعة : بذر أو موضع يزرع فيه .

(٣) السيرة الحلبية ٢/٣٧٧

(٤) الخصائص ١/٢٦٠

وكان يقول لأصحابه : إذا أبردتم إليّ بريدا فابعثوه حسن الوجه حسن الإسم[1] .

وكان يحب الفأل الحسن ، ويستبشر بالاسم الجميل ، فقد كان فيمن سفر بينه وبين قريش فى صلح الحديبية سُهَيْل بن عمرو ، فقال النبى : قد سُهِّلَ لكم من أمركم[2] .

وهو القائل : يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا [3] .

(ثانيا) الحض على السلام

قال عليه الصلاة والسلام :

١ ـ إياكم وسوء ذات البيْنِ ، فإنها الحالقة[4] .

٢ ـ أفضل الصدقة إصلاح ذات البين [5] .

٣ ـ ألا أدلكم على صدقة يحبها الله ورسوله : إصلاح ذات البين إذا تفاسدوا[6] .

٤ ـ ليس الكذاب الذى يصلح بين الناس فينمى خيرا[7] .

٥ ـ اقتتل أهل قُباء حتى تراموا بالحجارة ، فأخبر رسول الله بذلك ، فقال : اذهبوا بنا نصلح بينهم[8] .

(ثالثا) مع قريش

لقد سالم النبى قريشاً وهو فى مكة ضعيف القوة قليل العدد ، وسالمها وهو فى المدينة عظيم القوة كثير العدد ، وآثر السلام حتى بعد أن انتصر

---

(١) الجامع الصغير ١/١٠

(٢) فتح المبدى ١/١٣٤ و ٢/٢٨٣ والاحياء ٤/٤٦٣

(٣) فتح المبدى ١/٩٢

(٤) الى (٦) كنز العمال ٢/١٤

(٧) و (٨) فتح المبدى ٢/٢٧٢

عليها مرات ، ثم كانت خاتمة هذا الإيثار يوم أن فتح مكة وخضعت قريش بعد طول عناء وعداء .

ونستطيع أن نوجز علاقات النبي بقريش فى مرحلتين : الأُولى المقاومة السلبية ، والثانية المقاومة الفعلية ، وأن نكشف فى كلتيهما عن سماحته وإيثاره للسلام .

(١) المقاومة السلبية

جاء محمد عليه الصلاة والسلام بدين جديد ، لينشىء مجتمعاً مثالياً فى عقيدته وعبادته ونظمه وأخلاقه ، وليلغى كثيرا مما ألفه العرب فى عقائدهم ونظمهم وأخلاقهم وعاداتهم ، وبدأ الدعوة سرا ، فآمن به بعض المقربين إليه ، ثم أمره اللهُ أن يجهر بالدعوة « فاصْدعْ بما تُؤْمرُ ، وأعْرِضْ عنِ المُشْرِكِينَ[1] » ، فماذا فعلت قريش ؟

١ - تصدوا له يكذبونه ويؤْذونه ، وهو يصبر على الأذى والتكذيب ، ويبين لهم ما فى دعوته من حق وخير ، ويدلل على صدقه ، وتحداهم بالقرآن أن يأتوا بسورة من مثله ، فإذا عجزوا كان عجزهم برهاناً على أنه من عند الله ، وأن محمدا رسول إليهم بهذا الدين الجديد .

فهل قدروا أن يأتوا بسورة أو بعض سورة ؟ لا . وهل صدقوه ؟ لا ، بل تمادوا فى استكبارهم وعنادهم ، فرموه بالكذب وبالجنون وبالكهانة وبالسحر ، وجعلوا يسخرون منه .

ثم طالبوه بمعجزات تدل على تعنتهم وإصرارهم على الكفر ، قال

(١) سورة الحجر ٩٤

تعالى : « وقَالُوا لنْ نُؤْمِنَ لك حتى تَفْجُرَ لنا من الأَرْضِ يَنْبُوعًا ، أو تَكُونَ لَكَ جنَّةٌ من نخيلٍ وعِنبٍ فتُفَجِّرَ الأَنْهارَ خِلالها تفجيرا ، أو تُسْقِطَ السماءَ كما زَعَمْتَ علينَا كِسَفًا ، أو تأْتِىَ باللهِ والملائكَةِ قبيلا ، أو يكونَ لك بيتٌ من زُخْرُفٍ ، أو تَرْقَى فى السماءِ ، ولن نُؤْمِنَ لرُقِيِّكَ حتى تُنَزِّلَ علينَا كِتاباً نقرؤُه . قل : سبحان ربِّى ، هلْ كنتُ إلا بَشَرًا رَسُولًا ؟[1] » .

وعجبوا من أن يكون الرسول رجلا منهم يأكل كما يأكلون ، ويمشى كما يمشون ، لا يصاحبه ملك من السماء يؤيده فى دعوته ، وليس له كنز من المال يغنيه ويدل على رسالته ، وليست له حديقة مثلهم تدر عليه الخير وقالوا : « مال هذا الرسول يأْكُلُ الطَّعامَ ، ويمْشِى فى الأَسْواقِ ؟ لولا أُنْزِلَ اليه مَلَكٌ فيكونَ معه نذيرا ، أو يُلْقَى إليه كَنزٌ ، أو تكُونُ له جنةٌ يأْكُلُ منْها . وقالَ الظَّالِمُونَ إنْ تَتَّبِعُونَ إلَّا رجُلا مسْحُورًا »[2] .

لكن النبى صبر على تكذيبهم ، وسوء إتهامهم ، وآلام إعناتهم ، وأمره الله أن يقول لهم : « إنْ أنا إلا نذيرٌ وبشيرٌ لقومٍ يُؤْمِنُون »[3] .

كانت الدعوة حينئذ تشق طريقها إلى القلوب بقوتها الذاتية ، وبسموها الروحى والاجتماعى ، وكلما ازدادت ذيوعاً اشتعلت قريش حنَقاً على النبى وعلى من أسلموا .

فما الذى أحنق قريشاً ؟

لم يكن من سبب لحنقهم إلا الأنفة من أن يتبعوا رجلا منهم يُبَلِّغُ عن ربه ، والخشية على مكانتهم السياسية والاجتماعية والاقتصادية ،

(١) سورة الاسراء ٩٠–٩٣ كسفا : قطعا . قبيلا : مؤيدا وكفيلا . زخرف : ذهب
(٢) سورة الفرقان ٧–٨
(٣) سورة الأعراف ١٨٨ .

أن يذهب بها الدين الجديد الذى يدعو إلى الحرية والمساواة والعدل ، وإلى نظم سامية لم يألفوها ، ومُثُل عالية لم يطبقوها ، وعقيدة نقية لا سلطان فيها للأصنام ولا لسَدنة الأصنام .

٢ ـ فلما أعيتهم الحيلة فى مناهضة النبى لجأوا إلى أحط أنواع الخصومة .

والأمثلة على هذا كثيرة ، يكفى أن نمثل لها بأن كل رجل أخذ يعذب من أسلم من عبيده عذاباً أليما ، وبأن كل قبيلة جعلت تنكل بمن أسلموا من أهلها تنكيلا .

ولم يسلم النبى من هذا العدوان ، كما تقدم فى (الصبر) .

٣ ـ فلما ضاق النبى بما ينزل بالمسلمين من تعذيب ، وعز عليهم أنهم ضعفاء لا يقوون على رد العذاب عن أنفسهم ، أمرهم بالهجرة إلى الحبشة ، حتى يجعل الله لهم فرجاً مما هم فيه ، فخرج فريق منهم إليها ، نجاة بحياتهم ، وخوفاً على دينهم .

فهل تركتهم قريش؟ لا ، بل جَدَّتْ فى أن تستردهم ، فبعثت مندوبين عنها إلى الحبشة ، ومعهما هدايا للنجاشى وبطارقته ، وطلبا منه أن يرد هؤلاء القوم الذين ابتدعوا ديناً لا هو دين العرب ولا دين النجاشى ، لكن النجاشى لم يوافق على إرجاعهم ، ورفض الهدايا ، فعاد المندوبان خائبين ، وبطل تدبير قريش .

٤ ـ فى هذا الوقت كان قد أسلم عظيمان من قريش هما حمزة بن عبد المطلب ، وعمر بن الخطاب ، فازدادت قريش حنقًا ، فتعاهدت على مقاطعة بنى هاشم وبنى عبد المطلب ، فلا يزوجونهم ولا يتزوجون منهم ،

ولا يبيعونهم ولا يشترون منهم ، وكتبوا هذه المعاهدة ، فى صحيفة ، وعلقوها فى الكعبة ، توكيدا لها وحضاً على اتباعها .

وكان الغرض من المقاطعة الحصار الاقتصادى والاجتماعى والمدنى ، وتعويق سبل الحياة أمام المسلمين، وجعلهم سجناء منبوذين حتى يموتوا هَمًّا وجوعاً .

وصبر بنو هاشم وبنو عبد المطلب سنتين أو ثلاثاً أنفق فيها أبو طالب ماله ، وأنفقت السيدة خديجة مالها .

ثم دعا بعض عقلاء قريش إلى نقض المعاهدة فنقضت .

٥ – انتهز النبي موسم الحج ، فعرض الدعوة على جماعة من المدينة، فأسلموا ، وبايعوه على أن ينصروه إذا هاجر إليهم .

وحينئذ بدأ الإسلام يجد بيئة حرة ، لكن مشركى قريش طار صوابهم لما علموا بمحالفة الأوس والخزرج للرسول ، فاجتمعوا فى دار النَّدْوة ، وتشاوروا ، فأشار بعضهم بحبسه ، وأشار آخرون بنفيه ، وأوعز بعضهم بقتله ، وانتهى بهم الرأى إلى أن يجمعوا من كل قبيلة شجاعاً يُعْطَى سيفاً صارما ، ليضربوا محمدا ضربة رجل واحد ، فيتفرق دمه فى القبائل ، فلا يستطيع بنو عبد مناف أن يحاربوا العرب جميعاً ، فأوحى الله إلى نبيه ، فهاجر إلى المدينة ، ونجا ، وأخفق تدبير قريش وضاع أملها هباءً .

٦ – لا شك إذًا فى أن الدعوة شقت طريقها فى مكة وفى المدينة ، معتمدة على الصبر والمقاومة السلبية ، لأنها ضعيفة لا تقوى على المقاومة ، وليس لها سلاح إلا ما تبشر به من حق وخير وسعادة .

(٢) المقاومة العملية

هاجر النبي إلى المدينة ، وهاجر بعض المسلمين إليها قبله وبعده ، فهل سَلِمُوا من أذى قريش ؟

لقد ازدادت بغضاً لهم ، وعزماً على القضاء عليهم فى دارهم الجديدة ، وحرضت العرب ليشاركوها فى هذا العدوان .

فيا للعجب ، المسلمون يدعون إلى الحق والخير فى غير استعلاء ولا طمع فى مال أو رياسة أو جاه ، ولكن المشركين يضيقون عليهم ، ويصدون الناس عن سبيلهم ، وينكرون عليهم حق الحرية فى العقيدة والعبادة والعمل وحق الحياة .

فهل يسلك المسلمون سبيلا غير النضال عن أنفسهم ، بعد أن ناضلوا بحقهم باطل خصومهم ، وبعد أن كافحوا بخيرهم شرور أعدائهم ؟ لا ، إن المسلمين مضطرون إلى الدفاع عن عقيدتهم وعن وجودهم ، ولهذا تتابعت بين النبي وقريش موجات من الهجوم والدفاع .

وإنه ليتبين لمن ينعم النظر المنصف أن النبي كان فى كل هذه الحروب مؤثرا للسلام على الخصام ، ويكفى أن نذكر بعضها على سبيل المثال .

١ — غزوة بدر .

كانت لقريش قوافل تجارية تتردد بين مكة والشام ، بلغت فى بعض الأحيان ألْفَىْ بعير ، إذ كانت مكة المركز المختار لتجارة الجنوب القادمة من الهند والحبشة واليمن ولتجارة الشمال القادمة من الشام وما والاه .

وإذا كان النبي لا يستطيع أن يحتبس الدعوة فى صدره ، ولا يطيق

أن يُعوِّقها معوق عن الذيوع والاستقرار ، فإن قريشاً لا تستطيع أن تكف عن رحلتها إلى الشام ، ولا تطيق أن تقيم في مكة بغير غدوٍ ورواح .

وقد كانت قريش منذ قاومت الدعوة ، ومنذ اضطرت النبي والمسلمين إلى الهجرة في حرب متصلة مع النبي ، لم يخفف من حدتها أنه سالمها ما اتسع جهده للسلام .

فلم يكن بد للنبي من أن يرهب قريشاً بقوته بعد أن عجزت وسائل السلم عن اجتذابها إلى التفاهم والوئام ، فخرج إلى القافلة القادمة من الشام ليرغم قريشاً على أن تتخذ لقوافلها طريقاً آخر ، حتى يطمئن المسلمون إلى أن قريشاً لن تفاجئهم بهجوم غادر ، أو ليضطرها إلى الكف عن مقاومته ، ويَقْرعَ أسماعها ، ويفتح عيونها ، لتوادعه موادعة تقيه وتقيها شرور العداوة المستمرة ، وتكفل له أن يدعو إلى الإسلام ما وجد إلى الدعوة سبيلا ، وتكفل لقريش أمن طريقها إلى الشام .

وذلك أن قريشاً إذا ما أيقنت أن المسلمين بالمدينة يترصّدون لها في ثنايا الطريق المار بالقرب من بلدهم ، اضطرت إلى مصالحتهم أو موادعتهم ، فكسبت اطمئنانها على مورد ثروتها ، واطمأن المسلمون إلى سلامتهم وإلى نشر عقيدتهم بين الناس ، واستطاعوا أن يدخلوا مكة زوارا لأهليهم وحجاجاً لبيت الله .

خرج النبي إلى بدر ، وعلم رئيس القافلة أبو سفيان بخروجه ، فعدل عن الطريق المعتاد ، وسار على ساحل البحر مسرعاً ، فنجت القافلة ولكنه قبل أن يستوثق من نجاتها خشي أن يتعقبه المسلمون ؛ لأنه يعلم أنهم موتورون من قريش ، إذ عذبتهم ، وطردتهم من وطنهم ، واستولت على

أملاكهم وأموالهم ، فبعث إلى قريش يخبرها أن محمدا وأصحابه تصدوا للقافلة ، وأراد مبعوثه أن يثير قريشاً فقطع أنف بعيره ، وشق قميصه ، وصاح ، فاستجابت له قريش ، وتجهزت للرحيل .

كانت القافلة قد نجت ، ولم يتعرض لها المسلمون بسوءٍ ، وكان أبو سفيانِ قد وثق بنجاتها ، وخاف سوءَ العاقبة من صدام قريش والمسلمين ، فأرسل إلى قريش يقول : إنكم قد خرجتم لتحموا قافلتكم ورجالكم وأموالكم ، ثم نجت ونجوا ، فارجعوا .

ووافقه على رأيه كثير منهم ، ولكن أبا جهل أصر على ألا يرجعوا ، وصاح : والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرا(١) ، فنقيم ثلاث ليالٍ ننحر الجُزُرَ ، ونطعم الطعام ، ونَسْقِى الخمر ، وتَعْزِف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، فلا يزالون يهابوننا أبدا .

فلما سمعه القوم ترددوا بين الإقدام والرجوع ، وخشوا أن يتهموا بالجبن إذا رجعوا ، فلم يرجع إلا بنو زُهْرَة ، وسار الباقون ليختاروا منزلا للقتال .

لقد كان المنطق السليم يوجب على قريش أن تستجيب لدعوة أبي سفيان فتعود إلى مكة فرحة بأموالها التى نجت ، وبرجالها الذين سلموا .

لكنها قريش ، أبى عليها عداؤها لمحمد وأصحابه إلا أن تشتبك معهم فى حرب حيث لا مجال لحرب أو صدام .

وما زال النبي حريصاً على حقن الدماء ، فأوصى المسلمين ألا يقاتلوا

---

(١) بدر : مكان كان من مواسم اجتماعهم وأسواقهم فى كل عام .

حتى يأْذن لهم ، وأوصاهم أَلا يقتلوا أُناساً سماهم لهم ، لأَنهم أُخرجوا مع قريش كرها ولو أَنهم خُيِّرُوا لآثروا البقاءَ .

ثم لم يكن بدٌّ من القتال ، فقاتل النبى مضطرا ، ليحمى دينه ونفسه وأتباعه ، وشاءَ الله أَن ينتصر المسلمون ، وأَن تكون غزوة بدر بشيرا للمسلمين ونذيرا للكفار «أُذِنَ للذين يُقَاتَلُونَ بأَنهم ظُلِمُوا وإِنَّ الله على نَصْرِهِمْ لقدِيرٌ . الذينَ أُخْرِجوا منْ دِيَارِهِمْ بغير حقٍّ إلا أَن يَقولوا ربُّنا الله» (١) .

٢ ـ غزوة أُحد .

لم يكد يمضى على موقعة بدر عام وبعض عام حتى استنفرت قريش العرب ، وزحف على المدينة جيش ضخم ، ليثأَر من المسلمين ، وسخا أَغنياؤُهم بالمال لتجهيز المحاربين ، «إِنَّ الَّذِينَ كفرُوا يُنفِقُون أَموالَهُمْ ، لِيَصُدُّوا عن سبيل اللهِ ، فسينفقونها ثُمَّ تكونُ عليهم حَسْرَةً ، ثُمَّ يُغْلَبون(٢)» .

فماذا يفعل النبى ؟

أَليس مضطرا إِلى الدفاع عن المدينة وعن مسلميها ؟ إن الأَعداءَ يهاجمونها ليقضوا على المجتمع المثالى الذى بها ، فليس لديه إلا عمل واحد يجب عليه أَن يسارع إلى القيام به ، وهو الدفاع .

وقد انتصر المسلمون فى أَول الموقعة ، ولكن الرماة خالفوا أَمر الرسول فانهزموا .

(١) سورة الحج ٣٩ـ٤٠

(٢) سورة الأنفال ٣٦

على أن انتصار قريش لم يشفِ حنقها وحَنَقَ حلفائها ، فتوعدت النبي بحرب أخرى ، بل فكرت فى أن تَكُرَّ على المدينة عقب النصر ، لولا أن النبي أوهمهم أنه جمع جموعه ليتعقبهم ، فخشوا أن يسترد النصر ، فاتجهوا إلى مكة سِراعاً .

٣ ـ غزوة الخندق .

تقدم فى عفو النبي أن اليهود حرضوا قريشاً وغيرها من القبائل على محاربة النبي ، وأن الحلفاء من القبائل العربية ومن اليهود تجمعوا ليقضوا على النبي ، وليضربوا المدينة الضربة القاضية .

فلما علم المسلمون تحصنوا بمدينتهم ، واكتفوا بأن حفروا حولها خندقاً يعوق المهاجمين عن دخولها ، ولم يبادئوا أحدا بقتال .

ومكث الحصار شهرا ، كانت فيه قريش وغيرها يتحرشون بالمسلمين ، ويستفزونهم .

ثم يئست الأحزاب من دخول المدينة ، وانقسموا على أنفسهم ، فرجعوا بغير قتال ، فضلا من الله على المسلمين ونعمة « يـأيها الذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعمَةَ اللهِ عَلَيْكُمْ إذْ جاءَتْكُمْ جنودٌ ، فأرسلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وجنُودًا لمْ تَروهَا ، وكَانَ اللهُ بما تَعمَلُونَ بصِيرًا . إذْ جَاءُوكُم مِنْ فَوْقِكُمْ ومِنْ أسفَل مِنْكُمْ ، وإذْ زَاغتِ الأبصارُ ، وبلغتِ القلوبُ الحَناجِر ، وتَظُنُّونَ باللهِ الظُنونَا . هُنالِكَ ابتلى المؤْمِنونَ ، وزُلْزِلُوا زِلزالا شديدا [1] » .

(١) سورة الاحزاب ٩ـ١١ من فوقكم ومن أسفل منكم : من أعلى الوادى ومن أسفله

٤ ـ صلح الحُديبية .

خرج رسول الله فى جماعة من المسلمين سنة ست من الهجرة ، ليعتَمِرَ ، وليُعْلِم العرب جميعاً أن الإسلام يجل البيت الحرام أكثر مما يجلونه ، ويبقى على الصحيح من الشعائر التى يمارسونها ، فيكسب الإسلام عطف بعض خصومه ، ويمحو ما ألصقته به الدعاية المغرضة الحاقدة .

ومن الذى يحول بين المسلمين والبيت الحرام ؟

إنه بيت العرب جميعاً ، بل إن حق المسلمين فيه أعظم ، فليس لقريش أن تصد عنه فريقاً من أبنائها شرح الله صدورهم للإسلام ؛ ما دام هذا الفريق لا يبغى بقريش أى عدوان ، ولا يستذلها فى الوصول إلى البيت الحرام .

ولقد اجتهد النبىّ فى أن يمحو ما قد يتسرب إلى نفوس قريش من سوء الظن ، فأعلمهم منذ خروجه أنه خرج معتمرا يريدَ السلام لا الخصام ، وأنه لا يبتغى إلا أن يزور البيت الحرام .

ثم حقق فعله قوله ، فخرج هو وأصحابه لا يحملون من السلاح إلا ما يحمل المسافر ، وساقوا الْهَدْى أمامهم إلى فقراء مكة .

لكن قريشاً الضالة الحاقدة لم تشأ أن تسالم من سالمها ، ولم ترد أن تترك للمسلمين الحرية فى زيارة بيت الله ، فعبأت قواها لحرب النبى .

وكان نذيرها إلى الحرب أن أرسلت مائتى فارس طليعة لها : ليصدوا المسلمين عند عسْفان[1] ، فلما علم النبى بهذا قال : يا ويح قريش ،

---

(١) عسفان : على مرحلتين من مكة .

لقد أكلتهم الحرب ، ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين العرب ؟ فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ، فو الله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهر ذلك أو تنفرد هذه السالفة (١) .

وحرص النبي على السلام ، فأمر أصحابه أن يعدلوا عن طريق فرسان قريش حتى لايلتحموا بهم ، فساروا إلى أن بلغوا الحُدَيْبية (٢) ، فنزلوا بها .

وحينئذ كرر النبي رغبته فى حقن الدماء بقوله : والذى نفس محمد بيده لا تدعونى قريش إلى خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها .

ثم سَفَرَ الرسل بينه وبين قريش ، ونقلوا عنه أنه لا يريد إلا زيارة البيت ، وأنه يؤثر أن تكون بينه وبين قريش هدنة لا حرب فيها ، ولكن قريشاً رفضت وسخرت من بعض السفراء .

لم ييأس النبي من المسالمة ، فبعث سفيرا رابعاً هو عثمان بن عفان ، فأبت قريش أن تجيبه إلى ما عرض عليها من سلام ، واشتطّت فى حنقها فحبسته عندها . وهى تعلم أن النبي لم يحتجز سفيرا من سفرائها الذين أوفدتهم إليه .

وفى هذا الوقت أرسلت قريش خمسين رجلا ليطوفوا بالمسلمين ، لعلهم أن يصيبوا منهم غِرَّةً ، فلما رموا بالنّبْل والحجارة فى معسكر المسلمين أسرهم الحراس ، وجاءوا بهم إلى رسول الله ، فعفا عنهم ، وخلى سبيلهم .

وبهذا كله أعلن النبي مرات بقوله وعمله أنه مؤثر للسلام ، وسرعان

---

(١) تنفرد هذه السالفة : يبتر عنقى

(٢) [illegible]حلة من مكة

ما ذاع بين المسلمين أن عثمان قد قتل ، فلم يجد النبي بدا من الاستعداد لمحاربة قريش ، بعد أن يئس من مسالمتها ، ويئس من جدوى التسامح معها ، فكانت بيعة الرضوان .

فلما علمت قريش أن المسلمين قد اعتزموا على الحرب لانت بعض اللين ، وأرسلت بشروطها للموادعة (١) ، وهى شروط متعسفة تظهر المسلمين فى مظهر الضعف والانهزام .

ومع هذا قبلها النبي ، فدهش بعض الصحابة من قبوله ، وعجبوا من أن يرد المسلمون إلى قريش من جاءهم مسلماً ، وألا ترد قريش إلى المسلمين من جاءها من المسلمين .

لكن النبي كان أبعد نظرا ، لأن الذين حجزتهم قريش بمكة فروا ، فتجمعوا حول رجل منهم ، وكان عددهم نحو سبعين رجلا ، وتربصوا بقريش بالعيص ، وقطعوا طريقها إلى الشام ، فلم يظفروا بأحد منها إلا قتلوه ، ولم تمر بهم عير إلا سلبوها ، فطلبت قريش من النبي أن يلغى هذا الشرط ، واستحلفته أن يضم إليه هؤلاء ، لأنها لا حاجة لها بهم ، فآواهم رسول الله .

٥ ـ فتح مكة .

لم تقنع قريش بما فى صلح الحديبية من سماحة النبي وإيثاره

---

(١) الشروط هى : (١) بين قريش ومحمد هدنة لا حرب فيها مدتها عشر سنوات يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض (٢) من جاء الى محمد من قريش بغير اذن وليه رده ، ومن جاء قريشا من محمد لم ترده (٣) يرجع المسلمون فى هذا العام من غير عمرة ، فلا يدخلون مكة ، وفى العام القادم يدخلونها بغير سلاح معهم الا السيوف فى أغمادها ولا يبقون بمكة أكثر من ثلاثة أيام (٤) من أراد أن يدخل فى عهد محمد من غير قريش دخل ، ومن أراد أن يدخل فى عهد قريش دخل . وحينئذ تواثبت خزاعة فقالوا نحن فى عقد محمد وعهده وتواثبت بنو بكر فقالوا نحن فى عقد قريش وعهدهم (٥) بين قريش ومحمد صدور منطوية على ما فيها ولكن لا اسلال ـ سرقة خفية ـ ولا خيانة (سيرة ابن هشام ٣/٣٢١)

السلام ، فنقضت العهد بعد سنتين ، إذ ساعدت حلفاءها من بنى بكر ابن عبد مناة من كنانة على حلفاء النبي من خُزاعة ، مع أنها فى شروط الصلح تعاهدت على أن العرب أحرار فى انضمامهم إلى النبي أو إلى قريش .

وتمثلت مساعدتها لبنى بكر فيما قدمت إليهم من سلاح ومن رجال .

فأرسلت خزاعة إلى النبي تخبره وتستنجد به ، وفاء بمحالفته لها ، كما ساعدت قريش حلفاءها غادرة .

حينئذ كان النبيّ مضطرا إلى مناصرة حلفائه ، وفاءً بالعهد ، وانتصافاً للمظلوم ، وصيانة لكرامة المسلمين ، وإنجازا لوعدهم ، فتجهز النبي لفتح مكة سنة ثمان ، ومضى فافتتحها سلماً لا عنوة ، إذ كان كثير من زعمائها قد أسلموا من قبل كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص ، وأسلم أبو سفيان زعيم المشركين والمسلمون على مشارف مكة .

وفى هذا اليوم قال سعد بن عُبادة أحد قواد جيش الرسول وحامل راية الأنصار : يا أبا سفيان اليوم يوم المَلْحَمَة ، اليوم تُسْتَحلُّ الحُرْمة (١) ، يريد أن من أهدر دمه سيقتل ولو تعلق بأستار الكعبة ، وسيمحو المسلمون الأصنام والصور التى تزعم قريش أنها تعظيم للكعبة .

فنقل ذلك إلى رسول الله ، فقال لعلى بن أبى طالب : أدرك سعدا ، فخذ الراية منه ، فكن أنت الداخل بها .

وروى أن أبا سفيان قال للنبي لما حاذاه : أمرت بقتل قومك ؟ قال : لا ، فذكر له ما قال سعد ، ثم ناشده الله تعالى والرحم ، فقال النبي :

---

(١) الحرمة : مالا يحل انتهاكه والمراد الكعبة

اليوم يوم المرحمة ، اليوم يعز الله قريشاً . وأرسل إلى سعد فأخذ الراية منه ، فدفعها إلى ابنه قيس [1] .

وقد كان المشركون يتخوفون أن ينكل النبي بهم ، وأن يثأر منهم ، لكنه لم يفعل بل عفا عنهم ، وهو قادر عليهم .

٦ - ألم يكن النبي فى علاقته بقريش مؤثرا للسلام ما وسعه الإيثار ؟ ألم يكن داعية إلى السلام ما وجد سبيلا إلى الدعوة ؟ بلى .

فإن لم يجد بدا من الحرب عمد إلى تخفيف ويلاتها ، وتقصير أيامها ، وتقليل ضحاياها ، وذلك بأن يعبىء جنوده ويذكى حماستهم ليقدموا وأمامهم هدفان اثنان : النصر أو الاستشهاد ، ثم يفاجىء أعداءه ، ويبادرهم بالهجوم ، مجتهدا فى إخفاء خطته ، وفى التهويل من قوته ، ليملأ الرعب من جيشه نفوس أعدائه فلا يثبتون طويلا أمامه ، فيواتيه النصر الذى أراد .

هكذا كانت حروب النبى مع قريش ومع اليهود ، وهكذا كانت حروب الخلفاء الراشدين حروب اضطرار ودفاع ليس فيها استعلاء ولا عدوان [2] .

(رابعاً) مع اليهود

قد يسأل سائل : كيف عامل النبي يهود المدينة ؟

وهل آثر فى معاملته لهم السلام على الخصومة ، والعفو على العقوبة ؟

نعم ، فقد صبر النبي على أذى اليهود وخياناتهم حتى ضج الصبر ،

(١) شرح الزرقانى ٣٠٦/٢
(٢) سماحة الاسلام ١٣٠-٢٠٤ وفتح المبدى ٢٧٣/٢ و ٢٨٠ وشرح الزرقانى ١٨٥/٢ وسيرة ابن هشام ٣٢١/٣ .

وعفا عنهم حتى ضاق بهم العفو ، وسالمهم ما وسعته المسالمة ، ثم يئس من صلاحهم ، وأيقن أن سلامة الإسلام والمسلمين وسلامة المدينة ، وحياة الدعوة التى كلف أن يبلغها ، تحتم عليه ألا يصبر أكثر مما صبر ، وألا يعفو أعظم مما عفا ، وتوجب عليه أن يلقى الشر بما ينبغى أن يلقاه به ، فلم يكن بد من النهوض بهذا الواجب ، كما يتبين من هذه الأحداث (١).

١ ـ مقتل كعب بن الأشرف .

كان قد عاهد النبي هو وقومه بنو النضير على ألا يحاربوا النبي أو يحاربهم ، وعلى أن يكون كل منهم حليف الآخر يُكِنٌّ له المودة والوفاء ، ويقدم له المعونة إن احتاج إلى معونة .

لكنه نقض العهد ، وجعل يؤلب قريشاً وغيرها على النبي ، بدافع من عداوته للإسلام التى كانت تطمس على قلبه ، فيؤثر وثنية قريش على توحيد محمد عليه الصلاة والسلام ، حتى إنه لما قتل بعض زعماء قريش فى غزوة بدر قال : أولئك أشراف العرب وملوك الناس ، والله لئن كان محمد أصاب هؤلاء القوم لَبَطْنُ الأرض خير من ظهرها .

ثم أسرع إلى مكة يحرض قريشاً على النبي ويتباكى بشعره على قتلاها ويحض على الثأر لهم .

ولم يشف هذا حقده ، بل عاد إلى المدينة ، فجعل يُشَبِّبُ بنساء المسلمين ، وهو يعلم أن بهتانه يؤذى المسلمين ، وَيَنْفِر منه الخلق العربى .

(١) كتاب المغازى للواقدى وسيرة ابن هشام والسيرة الحلبية وتاريخ الطبرى فى مواضع شتى وسماحة الاسلام ١٤٨ .

فماذا يفعل النبي برجل يأكل الحقد قلبه وعقله فلا يفتأ يشعل نار الفتنة ؟

هل يعفو عنه ؟

لا ، فإنه قد نقض العهد ، وأشعل الفتنة ، وجرّح أعراض المحْصنَاتِ ، وتَبَجَّحَ بالعداوة ، ولن يكون العفو عنه إلا تمكينا له ، وترويجاً لغَيِّه ، وتجريئاً لغيره .

هل ينتقم منه ؟

نعم ، فإن سلامة الإسلام والمسلمين تقتضى هذا ، لأنه الجزاء العادل . والعقاب الرادع .

٢ – بنو قينُقَاع .

لم يزدجر بنو قينقاع بمقتل كعب بن الأشرف ، بل جعلوا يتحرشون بالمسلمين ، واعتدوا على امرأة مسلمة ؛ كانت قد قدمت إلى صائغ يهودى بسوقهم ، فأرادوا منها أن تكشف عن وجهها فأبت ، فتسلل أحدهم إلى خلفها فعلق طرف ثوبها بشوكة إلى ظهرها فلما قامت انكشفت عورتها ، فسخروا منها وضحكوا ، فصرخت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، ووثب اليهود على المسلم فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم إخوانهم ، فوقع الشر بين المسلمين وبين بنى قينقاع .

حينئذ طلب النبي من اليهود أن يكفوا عن أذاهم ، وأن يفوا بعهدهم الذى عاهدوه ، وهددهم إن لم يفعلوا أن ينزل بهم مثل ما أنزل بقريش فى بدر ، فاستَخَفُّوا بوعيده ، وقالوا : لا يغرّنك أنك لقيت قوماً لا علم لهم

بالحرب فأصبت منهم فرصة ، إنا والله إن حاربناك لتعلمن أننا نحن الناس .

فهل يعفو النبي عن هؤلاء ، وهم يزعمون أنهم أقدر منه ، ويهزأون بوعيده؟

أليس العفو إذًا عجزا ، وإضعافاً لرهبة المسلمين ، وإملاء للمعتدين ، وتشجيعاً لغيرهم من المشركين الذين يتربصون بالمسلمين الدوائر ؟

لقد جنى بنو قينقاع على أنفسهم ، فاستحقوا العقاب على جناياتهم ، حتى إن حليفهم عُبادة بن الصامت برىء منهم وأعلن براءته .

وكان العقاب العادل أن خرج المسلمون فحاصروهم خمس عشرة ليلة ، لم يبيحوا فيها لأحد من بنى قينقاع أن يخرج من داره ، ولم يسمحوا لأحد أن يدخل عليهم بطعام ، فلم يبق لهم إلا الخضوع لحكم النبي .

فماذا كان حكمه ؟

لقد استشار كبار المسلمين ،فأجمعوا على قتلهم ،فقام إليه عبد الله ابن أُبَيّ بن سَلُول – وكان حليفاً لبنى قينقاع وللمسلمين – فشفع فيهم عند النبي ، وجاء عُبادة بن الصامت يشفع كما شفع عبد الله ، فقضى النبي بإجلائهم عن المدينة ، فارتحلوا إلى وادى القُرَى ، ثم إلى أَذْرِعات بحدود الشام .

٣ – بنو النَّضِير .

كان بعض المسلمين قد قتلوا غدرا بعد غزوة أُحد ، فى يوم الرَّجيع (١) وفي يوم بئر معُونة (٢) ، ففرح بنو النضير الذين بالمدينة ، وودوا أن

(١) ماء لهذيل بالحجاز بناحية اسمها الرجيع .
(٢) اسم بئر بين أرض بنى عامر وحرة بنى سليم بنجد .

يكون حزن النبي والمسلمين على قتلاهم مقدمة لأحزان أخرى ، فأراد النبي أن يكشف عن نوايا بني النضير ، فمضى إليهم فى عشرة من كبار الصحابه فيهم أبو بكر وعمر وعلى ، فتظاهروا بالغبطة بمقدمه ، وجعل بعضهم يتبسط في الحديث معه ،ولكنه رأى آخرين يتناجون ويتآمرون ، فغادر مكانه مسرعاً وترك أصحابه وهم يظنون أنه قام لبعض أمره ، ولم يعلموا أن النبي أوحى إليه بما كان اليهود يدبرون من غدر به ، وان عمرو ابن جحاش بن كعب دخل البيت الذى كان النبيّ مستندا إلى جداره ، فصعد إلى سطح البيت ليلقى حَجَرا على رأس النبي .

ولما أخفقت مؤامرة اليهود حاروا في أمرهم ، وعجزوا عن تلفيق الأعذار ، وكان أصحاب النبي قد استبطأوه فنهضوا فى طلبه : فذكر لهم ما كان اليهود يريدونه به .

حينئذ أرسل إليهم النبي محمد بن مَسْلَمة يقول : إن رسول الله أرسلنى إليكم أن اخرجوا من بلادى ، لقد نقضتمّ العهد الذى جعلت لكم بما هممتم به من الغدر بى ، ولقد أجلتكم عشرا ، فمن رُئى بعد ذلك ضربت عنقه .

وبينما هم يتأهبون للرحيل أرسل إليهم عبد الله بن أُبى يأمرهم بألا يخرجوا ، وأن يبقوا فى حصونهم ، ويعدهم أن يحميهم بألفين من قومه ومن العرب .

فلما انقضى الأجل ولم يرحل بنو النضير ، سار إليهم المسلمون بسلاحهم ، فقاتلوهمّ عشرين ليلة ، ولم يتقدم عبد الله بن أُبى لنصرتهم ، ولم يجدوا أملا فى قتالهم المسلمين ، فسألوا النبي أن يؤمنهم على أموالهم

ودمائهم وذراريهم حتى يخرجوا من المدينة ، فوافقهم النبي ، فاتجه بعضهم إلى خيبر ، وشخص آخرون إلى أذرعات بالشام .

لقد كان هذا الإجلاءُ أهون عقاب لبنى النضير ، لأنهم أعداءُ النبي والإسلام ، يُسِرُّون العداوة ويتربصون بالمسلمين الدوائر ، وهم يساكنون المسلمين بالمدينة . ويعرفون من أحوالهم ما لا يصح أن يعرفه عدو مخالط .

ولقد ابتهجوا بمقتل جماعة من المسلمين غدرا ، وتوقعوا أن تتكرر مأساة أُحُد .

ثم إنهم دبروا الوسيلة لاغتيال النبي وهو فى دارهم .

وهم إلى هذا كله لم ينفذوا الجلاء بعد أن رضوا به واعتزموا عليه ، لأنهم اطمأنوا إلى نجدة عبد الله بن أُبى . وأرسل زعيمهم حُيىٌّ بن أَخْطَب إلى النبي إنا لا نخرج من ديارنا وأموالنا ،فاصنع ما بدالك. وقال لبنى النضير : ما علينا إلا أن نَرُمَّ حصوننا ، وندخل إليها ما شئنا ، وننقل الحجارة إلى أزقتنا . وعندنا من الطعام ما يكفينا سنة ، وماؤنا لا ينقطع ، ولن يستطيع محمد حصارنا سنة كاملة .

فهل لهؤلاء جزاءٌ أهون من الطرد ؟

أليس بقاؤهم فى المدينة بعد هذا كله مثارا للفتنة ، ومهبأً للشرور ، ومعاول للتقويض ؟

ألم يغدروا بعهدهم . وإنهم لمتأهبون للغدر ما واتتهم الفرصة ؟

أليسوا جرثومة خبيثة يعتمد عليها مشركو العرب الذين لا يفتأُون يعدون العدة لمحاربة المسلمين ؟

لقد أجلاهم النبي ، فكان عَفُوًّا معهم ، سمحاً فى مؤاخذتهم ، ولم يكن ليستطيع أن يصطنع عفوا أعظم من هذا العفو .

٤ ــ بنو قُرَيْظة .

جلا بنو النضير عن المدينة ، فلم يَشْتَفُوا من النبي ، لكن الحقد لم ييأس ، وهم يعلمون أن قريشاً وعرب غَطَفان وهُذَيْل وغيرها ويهود بنى قَيْنُقاع وبنى النَّضير ، كلها تشتعل مَوْجِدَةً على النبي فما الذى يمنع زعماء بنى النضير أن يؤلبوا هولاء جميعاً على النبي ؟

لقد خرج حُيَيٌّ بن أَخْطَب وَسَلَّام بن أَبى الحُقَيْق وأخوه كِنانة وغيرهم إلى مكة ، وأعلموا قريشاً أن بنى النضير مقيمون بين المدينة وخيبر حتى تأْتيهم قريش فيسيروا جميعاً إلى قتال محمد وأصحابه ، وأن بنى قريظة ما زالوا بالمدينة وهم أشد الناس بِغْضَةً لمحمد ، فإذا ما سرتم إليهم كانوا عليه معكم .

وأبى الخلق الوضيع إلا أن يعلن عن نفسه ، فإن قريشاً قالت لهؤلاء اليهود : إنكم أهل الكتاب الأول ، وأصحاب العلم بما نختلف فيه نحن ومحمد ، فخبرونا أديننا خير أم دينه ؟

فقالت اليهود : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه ، وهذا هو معنى قوله : تعالى : «أَلَمْ تَرَ إلى الَّذينَ أُوتُوا نصيبًا من الكتابِ يُؤْمِنُونَ بالجِبْتِ والطَّاغُوتِ ويقولون للذين كفروا هولاءِ أَهْدَى من الذين ءَامنُوا سبيلا . أُولئك الذِينَ لعَنَهُمُ اللهُ ، ومن يَلْعَنِ اللهُ فلن تَجِدَ له نصيرا (١) »

---

(١) سورة النساء ٥١ــ٥٢ . الجبت والطاغوت : صنمان لقريش أو الجبت : الاصنام وكل ما عبد من دون الله . والطاغوت ــ الشيطان

ثم خرج حُيَيٌّ وصحبه إلى غَطفان وغيرها ، وحرضوهم على محاربة محمد والثأر منه ، وذكروا لهم أن قريشاً تُعِدُّ للحرب عدتها .

وكانت غزوة الخندق ، وكان يأس الأحزاب من اجتيازه ، وترددهم فى البقاء والجو عاصف بارد .

ولكن حُيىٌّ بن أخطب أراد أن يباعد اليأس ، فأخبر الأحزاب أنه سيحمل بنى قريظة على نقض موادعتهم لمحمد ، وأنهم سينضمون إلى الأحزاب المهاجمة ، وسرعان ما بدأ ينفذ خطته ، فذهب إلى كعب بن أسد زعيم بنى قريظة ، وما زال به يثير حفيظته على محمد ، ويطمئنه إلى قوة الأحزاب وما معها من سلاح ، فقبل كعب ، ونقض عهده .

فلما علم النبىّ أرسل جماعة من المسلمين ليعلموا حقيقة الخبر ، فوجدوا بنى قريظة لم ينقضوا عهدهم فحسب ، بل جعلوا يسبون النبى ، ويجحدون أنه كان بينهم وبينه عهد .

وما لبثوا أن قطعوا الطعام على المسلمين ، فنشطت الأحزاب بعد ضعف ، وأمَّلَتْ بعد يأس ، وجرؤ بعض بنى قريظة على النزول من حصونهم إلى منازل المدينة القريبة منهم .

وحينئذ فزع المسلمون أشد الفزع ، وخشوا أن يفتح بنو قريظة طريقهم للأحزاب المغيرة فيدخلوا المدينة ، ويفتكوا بالمسلمين ، وقد صور القرآن الكريم هذا الفزع فى قوله تعالى : «إِذْ جَاءُوكُمْ مِنْ فَوْقِكُمْ وِمِنْ أَسْفَلَ منكُمْ ، وإِذْ زاغَت الأَبْصارُ ، وبَلَغَت القُلوبُ الحَنَاجِر ، وتَظُنُّونَ باللهِ الظُّنُونَا . هُنَالِكَ ابْتُلَى المؤْمِنُونَ ، وزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيدًا . وإِذْ يقولُ المُنافِقُونَ والذِّينَ فى قلوبهم مرضٌ ما وعَدَنا اللهُ ورسُولُهُ إلا غُرورا ، وإذْ

قالَتْ طائفة منْهُمْ يا أَهْلَ يثْرِبَ لا مُقَامَ لَكُمْ ، فارْجِعُوا ، ويستأْذِنُ فريقٌ منهمْ النبي يقولونَ إنَّ بيوتَنا عوْرةٌ ، وما هي بعوْرَةٍ ، إنْ يُريدون إلا فِراراً[1] » .

ثم اختلفت الأَحزاب ، ونزل المطر مدرارا ، وقصف الرعد ، ولمع البرق ، وثارت العاصفة ، فاقتلعت الخيام وكَفَأَت القدور ، وأَدخلتْ الرُّعْب إلى القُلُوب ، فسارعُوا إلى الفَرارِ ، ونَجَّى اللهُ المدِينَةَ مِنْ خَطَرٍ داهِمٍ لمْ تَشْهَد مثْلَهُ .

فماذا يفعل النبي ببني قُرَيْظَةَ ؟

لقد غدروا به في أَشد محنة حاقت بالمدينة ، ولقد ناصروا الأَحزاب المغيرة عليه في الوقت الذي كان يقتضيهم الوفاء .

ولم يكن يريد منهم موأَزرته في الحرب ، بل كان يريد منهم الحفاظ على حَيْدتهم ، ليأْمن غدرهم ، وهم الذين يساكنونه في المدينة المعرضة للغزو المدمِّر .

وقد كشفوا عن حقدهم الدفين إذ عرضوا للنبي بالسب على ملإٍ من أَصحابه .

أَما العفو عنهم فإنه لا يخطر على بال أَلين الناس عريكة ، وأَكثرهم رحمة ، وأَعظمهم شفقة فقد عفا النبي من قبل عن بني قينقاع وبني النضير ، فكانوا دعاة الانقضاض على المدينة ومثيرى العرب عليه .

ولن يكون العفو عن بني قريظة إلا تجميعاً لليهود ، وتقوية لهم ،

(١) سورة الاحزاب ١٠-١٣ .

وإتاحة لفرص شتى يحرضون فيها على النبي ، ويؤلبون قريشاً وغيرهالحربه وللاستيلاء على المدينة .

فليكن العقاب عادلا وجزاءً وفاقاً ، حاصرهم النبي خمساً وعشرين ليلة : ثم اختار اليهود سعد بن مُعَاذ ليقضي بينهم وبين محمد ، واستوثق سعد من النبي ومن بني قريظة أن يرضوا بقضائه .

فماذا كان قضاء سعد ؟

حكم بأن تُقْتَل المقاتِلة ، وتُقَسَّم الأموال ، وتُسْبى النساءُ والذُّرية .

وهذا الحكم يتفق وقول التوراة التي يدينون بها «حين تقرب من مدينة لتحاربها استدعها إلى الصلح ، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك فكل الشعب الذي فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك . وإن لم تسالمك بل حاربتك فحاصرها .

وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف :

وأما النساءُ والأطفال والبهائم وكل ما في المدينة فغنيمة تغنمها لنفسك ، وتأكل غنيمة أعدائك التي أعطاك الرب إلهك» وهكذا تفعل بجميع المدن البعيدة منك حدا التي ليست من مدن هذه الأمم التي هنا . وأما مدن هذه الشعوب التي يعطيك الرب إياها فلا تستبق منها نسمة ما بل أهلكها إهلاكًا (١) .

وهم يعتقدون أن موسى عليه السلام أرسل اثني عشر ألف رجل لمحاربة أهل مدين ، فحاربوهم وانتصروا عليهم ، وقتلوا كل ذكر منهم وخمسة ملوك ، وسبوا نساءهم وأولادهم ، ولما رجعوا غضب عليهم موسى

(١) سفر التثنية اصحاح ٢٠–١٠–١٥

كما زعموا ، لأنهم استبقوا النساء والأطفال ، ثم أمر بقتل كل طفل ذكر وكل امرأة ثيب ، وأبقى الأبكار ، وكان عددهن اثنتين وثلاثين ألفاً (١).

ويزعمون أن داود عليه السلام كان يقاتل أعداءه ، ولا يبقى ذكرا ولا أنثى ولا طفلا (٢) ، وكان يمثل أحياناً بمن يقتلهم أشنع تمثيل (٣).

وإذا كان القانون الدولى يبيح قتل الأسير الذى عاود القتال بعد أن أقسم بشرفه ألا يعاوده ، فإن قتل بنى قريظة أولى بالإباحة ، لأن جرمهم أشنع ، وشرهم أضخم ، ولأنه لا أمل فى صلاحهم واتقاء غدرهم .

(خامسا) مع النصارى

(١)

كانت النصرانية أكثر من اليهودية انتشارا فى جزيرة العرب ، إذ دان بها كثير من القبائل العربية فى أطراف الجزيرة وفى قلبها .

ولم يكن غريباً أن يبذل النصارى جهودهم فى تعويق الإسلام والقضاء عليه كما فعل اليهود ، لأنه يبطل دينهم ، ويدعو إلى اعتناق دين جديد مبرإ مما أصاب المسيحية الأصيلة من بلبلة واضطراب وفساد ، وينشىء مجتمعاً جديدا يدين بالوحدانية الخالصة وبالحرية والمساواة ، ويسن نظماً سامية تقضى على النظم الفاسدة الشائعة .

ولقد بلغ من ضلال النصارى وزيفهم أن زعموا أن المسيح بن الله أرسله ليفتدى به البشر من كفارة عن خطيئة آدم وحواء. لأنهما أكلا من

(١) سفر العدد ٣١
(٢) صموئيل الأول ٢٧ — ٩
(٣) صموئيل الثانى ٣١/١٢

الشجرة المحرمة فعصيا الله ، قال تعالى : «وقالت اليهُودُ عُزَيْرٌ ابنُ الله ، وقالت النصارى المسيحُ ابنُ الله ، ذلكَ قولُهُمْ بأَفْوَاهِهِمْ يُضاهِئونَ قولَ الذينَ كَفَرُوا مِنْ قَبْلُ ، قَاتَلَهُمُ اللهُ أَنَّى يُؤْفَكُونَ[1] » .

ولهم فى ذلك ضروب من الأباطيل ، فالمسيح عليه السلام واحد من ثلاثة أقانيم : الأب ، والإبن ، والروح القُدُس .

وهو ذو طبيعة إلهية واحدة فى مذهب فريق ، وذو طبيعتين إلهية وبشرية فى مذهب فريق آخر .

واليعاقبة يزعمون أنه هو الله نفسه ، نزل إلى الأرض وصلب ليفدى الناس ، قال تعالى : « لقد كفرَ الذِينَ قَالُوا إنَّ اللهَ هُو المسيحُ ابنُ مريَم[2] » ؟ .

وهم فى مزاعمهم هذه يشبهون البراهمة فى ادعائهم أن برهما ثالث ثلاثة ، وأنه الموجود الخالق ، وأن كريشنا ابنه من العذراء ديفاكى التى اختارها والدة لابنه بسبب طهرها وعفتها ، وأن كريشناهو المخلص والفادي . والسيدة مريم عند بعض المسيحيين إلهة معبودة تقرب لها الأقراص التى يسمونها كليرس ، ويسمى أصحابها كليريين .

على أنهم حرفوا الإنجيل وغيروا فيه ، وحذفوا منه ما يبشر بنبوة محمد ، حفاظاً على منافعهم العاجلة ، ومراكزهم الدينية ، قال تعالى : «وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسْرائِيلَ إنِّى رسُولُ الله إليْكُم مُصَدِّقًا لما بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التوْرَاةِ ، ومُبَشِّرًا بِرسُولٍ يأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ ، فلمَّا جَاءهُمْ بالْبَيِّنَاتِ قَالُوا : هَذَا سحرٌ مُبِينٌ[3] » ،

---

(١) سورة التوبة ٣٠
(٢) سورة المائدة ٧٢
(٣) سورة الصف ٦

(٢)

وإذا كان اليهود قد كادوا للإسلام فقد كاد النصارى له ، لأن البواعث والغايات متشابهة عند الفريقين .

وقد صدق الله العظيم في قوله : «وَلَن تَرْضَى عنك اليهودُ ولا النصارَى حتى تَتَّبعَ مِلَّتَهم . قل إنَّ هُدَى الله هوَ الهُدَى . ولئِن اتَّبعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الذِى جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ ما لَكَ مِنَ اللهِ مِن وَلِىٍّ ولا نَصِيرٍ[1] » ؟ .

ولم يكن هناك أمل فى هدوء مقاومتهم أو استجابتهم للحق «ولَئِنْ أَتَيْتَ الذِينَ أُوتُوا الكِتَابَ بكُلِّ آيةٍ مَا تَبِعُوا قِبْلَتك ، ومَا أَنْتَ بِتَابعٍ قِبْلَتهُمْ ، وما بعضُهُمْ بِتابعٍ قبلةَ بعض ، ولئِن اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ العِلْمِ إنَّكَ إذًا لمِنَ الظَّالمينَ[2] » .

وهمْ واليهود يتخذون الحرب وسيلة لإطفاء نور الإسلام ما وجدوا إلى الحرب سبيلا «ولا يزالون يقاتلونكم حتّى يَرُدُّوكُمْ عَنْ دِينِكُمْ إن اسْتَطَاعُوا[3] » .

(٣)

كان الغساسنة ملوك الشام يمثلون النصرانيين فى الشرق منذ عين الإمبراطور جستنيان الحارث بن جبلة (حوالى ٥٢٩ - ٥٦٩م) أميرا على جميع القبائل العربية فى سورية ، ومنحه لقب فيلارك - أمير - ثم منحه لقب بطريق ، وكان لقب الأشراف ، وأرفع لقب فى الدولة بعد الإمبراطور .

---

(١) سورة البقرة ١٢٠
(٢) سورة البقرة ١٤٥
(٣) سورة البقرة ٢١٧

وكان الحارث نصرانياً يعقوبياً حامياً للكنيسة الشرقية .

فلما توفى سنة ٥٦٩ م خلفه ابنه المنذر ، وأعان الروم فى مواقع كثيرة. وشخص سنة ٥٨٠ م إلى القسطنطينية عاصمة الدولة الرومانية الشرقية فاحتفى به القيصر طيباروس ، وألبسه التاج .

فمن الطبيعى أن يناوئ الغساسنة الإسلام والدعوة إلى الإسلام ، لا لأنه يغاير عقيدتهم فحسب ، بل لأنه يقضى على سلطانهم السياسى ونفوذهم الدينى . ومن الطبيعى أيضاً أن تحارب الدولة البيزنطية الإسلام ، لأنه يقوض قوتها الاستبدادية ، ويطرح بما كسبه رجال الدين والسياسة من سلطان ونفوذ ومال .

وهل كان من المعقول أن تطيق الكنيسة الملكانية (١) – وهى تحارب كل رأى مسيحى يخالفها – ديناً ينكر عقيدة التثليث والفداء ، ويذيع فى الناس أن الله واحد أحد لمْ يَلِدْ ولمْ يُولَدْ ولمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَد ، ولا يعترف بما لرجال الدين من سلطان على النفوس ، ووساطة بين العباد وخالقهم ؟

(٤)

لهذا لم يلبث النصارى أن كشفوا عن شرهم وعزمهم على محاربة الإسلام :

١ – ففى سنة ٦ هـ (٦٢٧–٦٢٨م) صلب البيزنطيون عاملهم على عمان وهو فَرْوة بن عمرو الجُذامى ، لأنه اعتنق الإسلام ، وأرسل إلى النبى فرساً

(١) هذه هى الكنيسة الارثوذكسية التى مقرها القسطنطينية ، وتعرف باسم الكنيسة الشرقية ورئيسها الأعلى الامبراطور ، تقابلها الكنيسة الكاثوليكية التى تعرف باسم الكنيسة الغربية ومقرها روما ورئيسها البابا

وبغلا وحمارا وعباءة وأقمصة ، وحاول الروم أن يجبروه على الارتداد عن إسلامه ، فأبى ، فسجنوه ثم صلبوه (١) .

٢ - وفى سنة ٨ هـ (٦٢٩م) بعث النبي كتيبة من خمسة عشر رجلا إلى شرقى الأردن ليدعوا الناس إلى الإسلام ، فخرج عليهم جمع كبير من مكان يقال له (طلة) وقتلوهم إلا واحدا لاذ بالفرار (٢) .

٣ - وفى السنة نفسها أرسل النبي كتاباً إلى الحارث بن أبى شِمْر الغسانى يدعوه إلى الإسلام ، كما دعا غيره من الملوك والأمراء ، فرد عليه رد المغرور الذى يتوعد بالعدوان (٣) .

ولما بعث النبي الحارث بن عمرو الأَزْدِى إلى هرقل يدعوه إلى الإسلام تصدى له شَرَحْبِيل بن عمرو الغسانى فى مُؤتة وقتله ، فكان هذا سبباً فى غزوة موتة .

٤ - وفى السنة التاسعة للهجرة أمر هرقل بعد انتصاره على الفرس بجمع جيش لغزو بلاد العرب وقتال رسول الله ، للقضاء عليه قبل أن يستفحل أمره. وبلغ النبي أن هرقل ومن يتبعه من نصارى العرب قد عزموا على قصده (٤) .

(٥)

وإذًا فلا مفر من حملة لتأديب هؤلاء المعتدين الذين يصدون عن سبيل الله ، ويقتلون دعاة رسول الله ، ويتأهبون للهجوم المفاجىء .

---

(١) الكامل لابن الاثير ١١٤/٢ وسيرة ابن هشام ٦١/٤
(٢) تاريخ شرقى الاردن وقبائلها ٨٥ الكولونيل فردريك بيك
(٣) الكامل لابن الاثير ٨١/٢
(٤) الكامل ١٠٦/٢

ولو لم يفعل رسول الله ذلك لأغلق الجزء الشمالى من الجزيرة في وجه الدعوة التي تشق طريقها بسلام .

وكيف يرضى بهذا الذى يفعله الغساسنة والروم ، وهو يعلم أن واجبه يحتم عليه حماية دعوته من هؤلاء الطغاة ؟

ثم إن الحكمة تقتضيه أن يختبر قوة أعدائه ، ويتعرف السبب فى تجمعهم .

لهذا سار النبي بجيشه إلى تَبُوكَ ، ولكن لم يحدث بينه وبين خصومه صدام ، لأن الروم اختفوا وراء حدود الشام ، ولم يفكر النبي فى اختراقها ، واكتفى بما عقد من صلح بينه وبين بعض العرب مثل يوحنا بن رُؤبة ، وعاد إلى المدينة (١) .

لكن الأفاعى خرجت من أجحارها بعد عودة النبي ، وبدأ نصارى العرب والروم يعتدون على المسلمين ، فصلب هرقل أمير أَيْلة يوحنا بن رُؤبة ، لأنه عقد مع النبي صلحاً ، كما صلب من قبل فروة بن عمرو الجذامى ، لأنه أسلم وأصر على الإسلام .

فبعث النبي بقيادة زيد بن حارثه إلى الشام فى السنة الثامنة (٦٢٩م) وتصدى الروم والعرب للقاء هذا الجيش الصغير الذى لم يتجاوز ثلاثة آلاف رجل ، وكان جيش الروم من مائة ألف أو مائتين ، يقوده هرقل نفسه أو أخوه ، والتحم الجيشان التحاماً لم يكتب فيه نصر حاسم لأيهما ، فآثر المسلمون العودة إلى المدينة .

ثم أراد النبي أن يتدارك ما عساه أن يحدث من هذا الإنسحاب ،

(١) الكامل ٢/١٠٦

وأراد أن يسترد هيبة المسلمين فى الشمال ، فأمر بتجهيز جيش أسامة ابن زيد لمحاربة الروم ، لكن الرسول لحق بالرفيق الأعلى قبل أن يتحرك الجيش من المدينة ، فأنفذه أبو بكر .

ومن هذا يتبين أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان حريصاً فى صلته بالنصارى كما كان حريصاً فى علاقته باليهود على إيثار السلام ، وإن لم يشهر سيفه إلا للدفاع ورد العدوان .

الفصل الرابع عشر

الزهد

حقيقته

الزهد هو العزوف عن المباح مع القدرة عليه ، تهذيباً للنفس ، وإيثارا لنفع الآخرين .

فإن كان العزوف عن معْجزَة وضيق فإنه لا يسمى زهدا ، لأنه اضطرار لا مندوحة عنه .

وإن كان العزوف لإذلال النفس وتعذيبها فحسب بدون قصد إلى نفع يتحقق للأُمة أو لطائفة منها ، فإنه ليس من الزهد فى شيء ، بل هو رهبانية حرمها الإسلام ، قال تعالى : «يَا بنى آدمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كلِّ مَسْجِدٍ ، وكُلُو واشربُوا ولا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ المْسرِفِينَ. قُلْ من حرَّمَ زينةَ اللهِ التى أَخرجَ لعبادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِن الرزْقِ؟ قُلْ هِيَ للذِينَ آمَنُوا فى الحياةِ الدنْيَا خالصةً يومَ القِيامَةِ ،كَذَلِك نُفَصِّلُ الآياتِ لقوم يعْلَمُونَ (١) »

والزهد بهذا المعنى السامى فضيلة موصولة بفضائل أُخرى مثل القناعة والعفة والصبر والتواضع والإيثار .

وهو مظهر للاقتدار على حرمان النفس مما تجد ، وتقوية للعزيمة وتغليب

---

(١) سورة الأعراف ٣١-٣٢

لها على الرغبات والحاجات ، لأن الاستمتاع الدائم يعود النفس طلب المزيد ، فإذا حُرِمَتْ شيئاً مما تريده ضاقت ألماً و حسرة .

وما من شك فى أن الرجل الفاضل الحكيم يتجافى عن اللذات التى تستهوى غيره ، ويتعالى على الاستمتاع بما لا ينبغى الاستمتاع به ، بل إنه يبغض الاستهتار باللذات ، ولا يشعر بألم من الحرمان ، لأنه قليل المآرب ، يرضى من حياته بما لا ضرر فيه ، وبما يلائم ضبطه لرغباته ، وإيثاره غيره على نفسه .

مظاهره

كان زهد رسول الله المثل الأعلى فى الزهد ، لأنه كان زهد المختار ، القادر ، المؤمن بأن الاستمتاع المباح حلال ، المؤثر على نفسه فقراء الأمة ومصالح الإسلام.

وهو بزهده ربىّ كثيرا من الرجال فتخلقوا بمثل خلقه ، فانصرفوا عن الخضوع للذات ومآرب النفوس ، وآثروا غيرهم على أنفسهم ، كأبى بكر وعمر وعلى وغيرهم من كبار الصحابة وولاة الأقاليم ، فصار زهدهم تربية وتنمية ، أما التربية فللنفوس ، وأما التنمية فلإسعاد الناس ولتقوية الأمة .

قالت حفصة لأبيها عمر بن الخطاب حينما فُتِحتْ عليه الفتوح : البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، ومُرْ بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر . فقال عمر : يا حفصة ألست تعلمين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته ؟ فقالت : بلى . قال قد ناشدتك الله هل تعلمين

أن رسول الله لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غُدْوةً إلا جاعوا عَشِيَّةً ، ولا شبعوا عَشِيَّة إلا جاعوا غُدْوة ؟

وناشدتك الله هل تعلمين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث فى النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خَيبر ؟

وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله قربتم إليه يوماً طعاماً على مائدة فيها ارتفاع ، فشقّ ذلك عليه حتى تغير لونه ، ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض ؟

وناشدتك الله هل تعلمين أن رسول الله كان ينام على عباءة مثْنِيَّة فثنيت له ليلة أربع طاقات فنام عليها ، فلما استيقظ قال : منعتمونى قيام الليل بهذه العباءة ، اثنوها باثنتين كما كنتم تثنونها ؟

فما زال يقول حتى أبكاها وبكى عمر وانتحب [1] .

مال الرسول :

ويجدر بنا قبل أن نعرض مظاهر من زهد رسول الله أن نجيب على هذا السؤال :

هل كان الرسول ذا ثراء ومال حتى يثبت أن زهده عن وُجد واقتدار ؟

نعم كان للرسول مال ، وكان ماله كثيرا فى بعض الأحيان

١ ـ كان له خمس الغنائم التى يصيبها المسلمون من محاربيهم . وقد كانت الحروب كثيرة وكانت الغنائم موفورة منذ غزوة بدر حتى

(١) الاحياء ١٩٢/٤ .

تم فتح الحجاز واليمن وجميع جزيرة العرب . فتوافدت الغنائم والجزية والصدقات .

قال تعالى : «واعْلَمُوا أنَّما غَنِمْتُمْ مِنْ شَىءٍ فَأَنَّ للهِ خُمُسَهُ ولِلرَّسُولِ ولِذِى القُرْبى واليَتَامى والمَسَاكِينِ وابنِ السبيلِ[1]» .

فللمجاهدين أربعة أخماس الغنيمة ، وللرسول خمسها يختص به نفسه وأقاربه واليتامى والمساكين وأبناء السبيل .

٢ ـ وكان له نصيب من الفَىء . وهو الذى ناله المسلمون من أموال المشركين بغير حرب كالجزية وماتركوه فى حروبهم خوفا من المسلمين وما صالحوا المسلمين عليه ، قال تعالى : «ومَا أَفَاءَ اللهُ على رَسُولِهِ مِنْهُمْ فَمَا أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ ولا ركابٍ ، ولكنَّ اللهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُ على مَنْ يشاءُ ، واللهُ على كلِّ شَىءٍ قدير . ما أَفَاءَ اللهُ عَلى رسُولِهِ مِنْ أَهْلِ القُرَى فللهِ وللرسُولِ ولذِى القُرْبى واليتامَى والمَسَاكِينِ وابنِ السبيلِ ، كىْ لا يكونَ دُولَةً بَيْنَ الأَغنياء مِنكم . وما آتاكمُ الرسولُ فخذوه ، وما نَهَاكُمْ عَنْهُ فانْتَهُوا ، واتَّقُوا اللهَ إنَّ اللهَ شديدُ العِقَاب[2]» .

وكان رسول الله ينفق من هذا الفىء على أهله نفقة سنتهم . ثم يأخذ ما بَقى فيجعله مَجْعَلَ مال الله فى السلاح والخيل ومصالح المسلمين . وهذا مذهب الجمهور .

وقال الإمام الشافعى إن الفىء يقسم خمسة أخماس وفقاً للآية ، ثم

---

(١) سورة الأنفال ٤١ .
(٢) سورة الحشر ٦ ـ ٧ .

يقسم خمسه على خمسة أسهم ، للرسول منها سهم ينفق منه على مصالحه ، وما فضل يصرفه فى السلاح وسائر مصالح المسلمين .

وأما بعد وفاته فمصرف هذا السهم للمصالح العامة كسد الثغور وعمارة الحصون والقناطر وأرزاق القضاة .

والسهم الثانى لذوي القربى وبنى هاشم وبنى المطلب .

والثالث لليتامى الفقراء ، والرابع للمساكين والخامس لأبناء السبيل .

وأما الأربعة الأخماس فهى للمرتزقة وهم المرصدون للجهاد بتعيين الامام [1] .

ومن هذا الفيء مزارع فَدَك وبساتينها ونخيلها وعينها الفوارة .

٣ ـ يضاف إلى الغنائم والجزية والصدقات ما أهدى إليه من بعض الملوك والأمراء .

بعد هذا نذكر صورا من زهد رسول الله .

(١) فى المال

١ ـ لم يستأثر بشيء من المال الكثير الذى تدفق من الغنائم والفيء والجزية والصدقات والهدايا : بل اقتصر على الخمس ، ثم لم يمسك درهماً من هذا الخمس . بل أنفقه فى وجوهه ، وقوى به المسلمين ، وأسعد به غيره ، وقال : ما يسرنى أن لى أُحُدا ذهباً يبيت عندى منه دينار إلا دينارا أرصده لدينى .

---

(١) فتح المبدى ٢/٣٢٤

٢ ـ أتته دنانير فقسمها . وبقيت منها ستة ، فدفعها لبعض نسائه لكنه لم ينم حتى قام وقسمها ، وقال : الآن استرحت .

٣ ـ اقتصر من نفقته وملبسه ومسكنه على ما تدعو إليه الضرورة . وزهد فيما سواه.

٤ ـ توفى ودرعه مرهونة فى نفقة عياله [١] .

٥ ـ روى عن أبى رافع أنه قال : ورد على رسول الله ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه . فأرسلنى إلى رجل من يهود خيبر وقال : قل له : يقول محمد أسلفنى أو بعنى دقيقاً إلى هلال رجب ، قال : فأتيته ، فقال إلا برهن ، فأخبرت رسول الله بذلك فقال : أما والله إنى لأمين فى أهل السماء ، أمين فى أهل الأرض ، ولو باعنى أو أسلفنى لأديتُ إليه . اذهب بدرعى هذا إليه فارهنه [٢] .

٦ ـ أتى بمال من البحرين . وكان أكثر مال أتى به ، فخرج إلى الصلاة . ولم يلتفت إليه . فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه ، فقلما رأى أحدا إلا أعطاه[٣] .

٧ ـ قال عمرو بن الحارث أخو جُوَيْرِية بنت الحارث أم المؤمنين : ما ترك رسول الله عند موته درهماً ولا دينارا ولا عبدا ولا أمة ولا شيئاً . إلا بغلته البيضاء وسلاحه وأرضاً جعلها صدقة[٤] .

ولما قبض رسول الله جاءت السيدة فاطمة والعباس إلى أبى بكر

---

(١) الشفا ٧٣/١
(٢) الاحياء ١٦٦/٤
(٣) الاحياء ١٦٦/٤
(٤) فتح المبدى ٢٨٩/٢

يطلبان ميراثهما من قرية فَدَك التى أَفاءها الله على رسوله ، وكان له سهم من ثمراتها ، فقال لهما : لقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إنَّا معاشر الأَنبياءِ لا نورث ، ما تركناه صدقة .

وروى مثل هذا عن عمر بن الخطاب فى مجلس علىٍّ وعباس وعثمان وغيرهم[1] .

(٢) فى الطعام

١ - لم يجمع فى بطنه طعامين ، فإن أكل لحماً لم يزد عليه ؛ وإن أَكل تمرا لم يزد عليه ، وإن أَكل خبزا كفاه ؛ وإن وجد لبناً دون خبز أغناه[2] .

٢ - قالت السيدة عائشة : إن رسول الله لم يمتلىء قطُّ شِبَعًا ، وربما بكيت رحمة مما أَرى به من الجوع ، فأَمسح بطنه بيدى ، وأَقول : نفسى لك الفداء ، لو تبلغت من الدنيا بقدر ما يقويك ، ويمنعك من الجوع ؛ فيقول : يا عائشة إخوانى من أُولى العزم من الرسل قد صبروا على ما هو أَشد من هذا ، فمضوا على حالهم ، فقدموا على ربهم ، فأَكرم مآبهم ، وأَجزل ثوابهم ، فأَجدنى أَستحيي إن تَرَفَّهْتُ فى معيشتى أَن يُقَصَّرَ بى غدا دونهم ، فالصبر أَياماً يسيرة أَحب إلىَ من أَن ينقص حظى غدا فى الآخرة ، وما من شيءٍ أَحب إلى من اللحوق بأَصحابى وإخوانى[3] .

---

(١) صحيح مسلم ٧٦/١ وفتح المبدى ٣٣٤/٢ ولا يعترض على هذا بقوله تعالى على لسان زكريا : (يرثنى ويرث من آل يعقوب) وبقوله تعالى (وورث سليمان داود) لأن المراد هنا ميراث العلم والنبوة والحكمة .

(٢) السيرة الحلبية ٣٧٩/٣ والاحياء ٣١٧/٢

(٣) الاحياء ٧١/٣

٣ ـ وقالت : كانت تأتى علينا أربعون ليلة وما يوقد فى بيت رسول الله مصباح ولا نار . قيل لها : فبم كنتم تعيشون ؟ قالت : بالأسودَيْن : التمر والماء ، إلا أنه قد كان لرسول الله جيران من الأنصار ، كانت لهم منائح : وكانوا يمنحون رسول الله من ألبانها فيسقينا[1] .

٤ ـ وقالت : ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام البُرّ ثلاث ليال تِباعاً . حتى قُبض[2] .

٥ ـ قال أنس : ما علمت النبي أكل على سُكُرُّجَة قط ، ولا خُبز له مُرَقَّق قط ، ولا أكل على خِوان قط[3] .

٦ ـ كان يأكل ما حضر ، ولا يرد ما وجد ، ولا يأكل متكئاً[4] .

٧ ـ قالت السيدة عائشة : لم يمتلىءْ جوف النبي شبعاً قط . وكان لا يسأل أهله طعاماً ولا يتشهاه ، إن أطعموه أكل ، وما أطعموه وما سقوه شرب[5] .

٨ ـ لهذا قال صلى الله عليه وسلم : أجوع يوماً . وأشبع يوماً ، فإذا جعت صبرت وتضرعت ، وإذا شبعت شكرت[6] .

ادخار القوت :

هل ادخر رسول الله قوت عياله ؟ وهل هذا الادخار يناقض الزهد ؟

---

(١) فتح المبدى ٢/٢٥٢ والاحياء ٤/١٩٩ منائح : نعاج ذوات لبن .

(٢) فتح المبدى ٣/٢٦٢ .

(٣) فتح المبدى ٢/٢٦١ السكرجة : قصعة كبيرة كانت العجم تستعملها حول الموائد فى الكواميخ وما أشبهها من أصناف التشهى والهضم .

(٤) الاحياء ٢/٣١٧ .

(٥) نور اليقين ٢٨٣

(٦) الاحياء ٢/٧٣

روى أنه نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر له شيئاً لغد[1] .

وروى أنه كان يدخر لعياله قوت سنة[2] وكان ـ قال عمر بن الخطاب ـ يبيع نخل بنى النضير ، ويحبس لأهله قوت سنتهم ، إذ كان نخلهم فيئاً له .

وليس بين الخبرين تعارض ، لأن النبي نهى عن ادخار القوت سنة حينما لم تكن الموارد كافية ، فلما كثرت اتسعت لهذا الادخار .

ولا تنافى بين ادخار القوت للعيال وبين الزهد ، لأن النبي كان يدخر ، فإذا رأى المحتاجين منحهم ما ادخر ، وهذه أعلى درجات الإيثار .

ويؤيد هذا حديث السيدة عائشة : « توفى رسول الله حين شبعنا من الأسودين التمر والماء » وقد كان هذا الشبع منذ فتح خيبر ، لأنها قالت لما فتحنا خيبر قلنا الآن نشبع من التمر ، وفى حديث ابن عمر : ما شبعنا حتى فتحنا خيبر .

وقد فتحت خيبر قبل وفاة النبي بثلاث سنين[3] .

هل عصب الحجر على بطنه ؟

قيل إن رسول الله كان يعصب الحجر على بطنه من الجوع[4] فهل بلغ الزهد به إلى هذا الحد ؟ ولماذا ؟

لقد أنكر بعض العلماء هذ ، ومنهم أبو حاتم محمد بن حِبَّان التميمى البُستى ، وقالوا إن الأحاديث التى رويت فى هذا باطلة ، واستدلوا

---

(١) الاحياء ٢٣٩/٤
(٢) الاحياء ٢٠١/١ ، ٢٣٩/٤
(٣) فتح المبدى ٢٥٨/٢ ، ٢٦٠
(٤) الاحياء ٢١٧/٢ .

بحديث الوِصال وهو : « لست كأحدكم ، إنى أُطْعَمُ وأُسْقى » وقال ابن حِبَّان : إنَّ الرَّسُولَ لمْ يَكُنْ يشد على بطنه الحجر ، بل كان يشد عليه الحُجَز(١) ، لأن الله تعالى كان يطعم رسوله ويسقيه إذا واصل الصوم ، فكيف يحتاج إلى شد الحجر على بطنه ؟ وماذا يغنى الحجر من الجوع ؟

وقالوا لقد ثبت أن رسول الله كان يدخر لأهله قوت سنة ، وأنه قسم بين أربعة من أصحابه ألف بعير مما أفاء الله عليه ، وساق فى عُمْرته مائة بَدَنة(٢) فنحرها وأطعم المساكين ، وأمر لأعرابى بقطيع من الغنم ، وأعطى جماعة كثيرة من خيرات خيبر ، وكانت فَدَك وقُرَيْظة والنَّضِير خالصة له ، ثم إن بعض الصحابة كانوا ذوى مال مثل أبى بكر وعمر وعثمان وطلحة بن عبيد الله والزبير بن العوام وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن عُبادة ، وكانوا يبذلون أموالهم وأنفسهم بين يديه ، وقد أمر بالصدقة فجاءه أبو بكر بجميع ماله ، وقال : أبقيت الله ورسوله لعيالى ، وجاءه عمر بنصف ماله .

ولما حث على تجهيز جيش العُسْرة فى غزوة تَبُوك جهزهم عثمان بألف بعير ، وجاء بعشرة آلاف درهم فوضعها بين يدى رسول الله .

لكن بعض العلماء ردوا على هذا وذاك

وجاء فى ردهم أن من أقام بالحجاز عرف عادة أهله إذا أصابتهم المجاعة ، فإنه إذا خوى البطن لم يمكن انتصاب القامة ، فيعمدون إلى صفائح رقاق فى طول الكف ، ويربطونها على البطن ، فتعتدل القامة بعض الاعتدال .

---

(١) الحجز : جمع حجزة وهى التى يشد بها الوسط ، وهو طرة الازار .
(٢) البدنة : الناقة أو البقرة التى تذبح فى مكة قربانا

وقد كان رسول الله يفعل مثلهم ، ليعلموا أنه لا يملك ما يستأثر به عليهم ، وإن لم يحصل له ألم الجوع .

على أنه فعل ذلك إيثارا للثواب ، لا لفقدان ما يدفع به الجوع عن نفسه .

وأما الأحاديث التى رويت فى شد الحجر على البطن فإنها صحيحة لاجتماع شروط الصحة فيها .

ولابن جرير الطبرى رد آخر هو أن النبى والصحابة كانوا يفعلون ذلك فى حالة دون حالة ، لا لعوز وضيق ، بل تارة الإيثار ، لأن رسول الله كان يدخر قوت عام ، ثم يجد المحاويج فيدفع إليهم ما ادخره ، ويترك أهله ، وتارة لكراهة الشبع ، وكراهة لكثرة الأكل .

وقال ابن حجر إن كثيرا من المسلمين كانوا قبل الهجرة فى ضيق ، فلما هاجروا إلى المدينة كان أكثرهم فى عوز ، فواساهم الأنصار بأموالهم ومنازلهم ، فلما فتحت لهم النضير وما بعدها أثروا ، وردوا إلى الأنصار أموالهم ومنازلهم[1] .

(٣) فى الملابس والفراش والآنية

١ ــ لم يكن لرسول الله إلا ثوب واحد من قطن ، قصير الكمين قصير الطول ، وكان له جبة ضيقة الكمين ، ورداء طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشبر ، وبردة يمانية طولها ستة أذرع فى عرض ثلاثة وشبر ، كان يلبسهما فى يوم الجمعة والعيدين ، ثم تطويان ، وكان له رداء أخضر طوله أربعة أذرع وعرضه ذراعان وشبر تداولته الخلفاء[2] .

---

(١) شرح الزرقانى ٣٢٠/٤ .

(٢) السيرة الحلبية ٣٧٩/٣ .

ولما قبض أخرجت عائشة كساء مُلَبَّدًا وإزارا غليظاً فقالت : قُبض رسول الله فى هذين [١] .

٢ ـ وكان يلبس ما تيسر من اللباس . فلبس الصوف تارة : والقطن تارة . والكتان تارة . ولبس البرود اليمنية . ولبس الجبة : والقُباء والقميص والسراويل والإزار والرداء والخف والنعل : وأرخى الذؤابة من خلفه تارة . وتركها تارة [٢] .

٣ ـ أهدى إليه أُكَيْدِرُ بن عبد الملك صاحب دُومة الجَنْدل فَرُّوج حرير فلبسه ـ قبل تحريم الحرير ـ فصلى فيه . ثم انصرف فنزعه نزعاً شديدا كالكاره له . وقال : لا ينبغى هذا للمتقين [٣] .

٤ ـ صلى فى خَميصة لها أعلام [٤] . فنظر إلى أعلامها نظرة ، فلما انصرف قال : اذهبوا بخميصتى هذه إلى أبى جَهْم [٥] وائتونى بأَنْبِجَانِيَّة [٦] أبى جَهْم ، فإنها ألهتنى آنفاً عن صلاتى [٧] .

٥ ـ كان أحب الثياب إليه الحِبَرة [٨] .

٦ ـ لم يلبس الحرير قط . روى عن عمر بن الخطاب أن النبى قال : من لبس الحرير فى الدنيا لم يلبسه فى الآخرة .

٧ ـ عن حُذَيْفَة بن اليَمان : نهانا النبي أن نشرب فى آنية الذهب . والفضة . وأن نأكل فيها . وعن لبس الحرير والجلوس عليه .

---

(١) فتح المبدى ٢/٢٣٥ ، والاحياء ٤/٢٠٠ . الملبد : المرقع .
(٢) زاد المعاد ١/٥٠ .
(٣) فتح المبدى ١/١٩١ .
(٤) الخميصة : كساء أسود مربع له أعلام .
(٥) أبو جهم : عامر بن حذيفة القرشى كان قد أهدى الخميصة للنبى .
(٦) أنبجانية : كساء غليظ لاعلم له نسبة الى أنبجان ، وقد طلب منه ليعلمه أنه لم يرد عليه هديته استخفافا به .
(٧) فتح المبدى ١/١٩٠ .
(٨) الحبرة : ضرب من نسيج اليمن يصنع من القطن .

وحكى القاضي عياض أن الإجماع انعقد بعد ابن الزبير وموافقيه على تحريم الحرير على الرجال[1]

وفي هذا ما فيه من البعد عن الخيلاء والرفاهية والسرف والفخر .

٨ – احتذى مرة نعلين جديدين ، فأعجبه حسنهما ، فخر ساجدا ، وقال : أعجبني حسنهما . فتواضعت لربي خشية أن يمقتني . ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه[2] .

٩ – أخرج أنس بن مالك إلى الصحابة نعلين جرداوين لهما قبالان[3] ، فحدث أنهما نعلا النبي صلى الله عليه وسلم[4]

١٠ – كان ينام على الفراش تارة ، وعلى النطع[5] تارة ، وعلى الحصير تارة ، وعلى الأرض تارة ، وعلى السرير تارة .

وكان فراشه أدما[6] حشوه ليف ، وكذلك وسادته[7]

١١ – ولكن إذا قدم عليه وفد من الوفود التي كانت تجيء لتسلم لبس أحسن ثيابه ، وأمر كبراء صحابته بذلك[8] لأن هذا يعظمهم في عيون القادمين ، ويعلي حزب الله ، وبخاصة أنهم لم يتخلقوا بأخلاق الإسلام بعد .

---

(١) فتح المبدى ٢٦٦/٣ .
(٢) الاحياء ٢٠١/٤ .
(٣) جرداوين : باليين لم يبق عليهما شعر . قبالان : سيران بين الاصبعين .
(٤) فتح المبدى ٣٣٥/٢
(٥) النطع : الجلد
(٦) الادم : الجلد
(٧) زاد المعاد ٥٤/١ والاحياء ٣٢١/٢
(٨) كنز العمال ٢٤/٤

(٤) تزهيده ابنته وزوجاته

لم يأخذ رسول الله نفسه وحدها بالزهادة ، بل زَهَّدَ أقرب الناس إليه ، فطبق زهده على ابنته السيدة فاطمة وعلى زوجاته جميعاً ، ليجعل منهن قدوة للمسلمات .

١ ـ فقد عاد من سفر فدخل على فاطمة ، فرأى على باب منزلها سترا ، وفى يديها قُلْبَيْن من فضة . فرجع ولم يدخل .

فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى ، فأخبرته برجوع رسول الله ، فسأله أبو رافع ، فقال له : من أجل الستر والسوارين ، فأرسلت فاطمة بسواريها بلالا إلى رسول الله ، وقالت : قد تصدقت بهما ، فضعهما حيث ترى ، فقال لبلال : اذهب فبعهما وادفعهما إلى أهل الصُّفَّة ، فباعهما بدرهمين ونصف وتصدق بالثمن عليهم (١) .

٢ ـ وشكت نسوة النبى عليه الصلاة والسلام من أنهن لا يجدن ما يكفيهن من النفقة والزينة ، واجتمعن فحدثن النبى بهذا ، فلم يفعل أكثر من تخييرهن بين الرضا الصابر والتسريح الجميل ، وفى نفسه ألم من شكواهن لم يُخْفِهِ عليهن ولا على صديقيه وصهريه أبى بكر وعمر : فقد دخل عليه أبو بكر وعمر فوجداه واجماً وحوله نساؤه ، ففهم أبو بكر أن اجتماعهن لشىء متصل برغبات ، فأراد أن يسرى عن رسول الله فقال : يا رسول الله لو رأيتَ بنت خارجة ، سألتنى النفقة فقمت إليها فوَجأتْ عنقها . فضحك الرسول وقال : هن حولى كما ترى يسألننى

---

(١) الاحياء ٤/٢٠٥

النفقة ، فقام أبو بكر إلى عائشة يَجَأُ عنقها ، وقام عمر إلى حفصة يجأُ عنقها ، وهما يقولان : تسأَلن رسول الله ما ليس عنده ؟ فقلن :

والله لا نسأَل رسول الله شيئاً أبدا ليس عنده .

ثم اعتزلهن الرسول شهرا فنزلت الآية الكريمة : « يا أيها النبيُّ قلْ لأَزْواجِكَ إنْ كُنتُنَّ تُرِدْنَ الحَيَاةَ الدُّنْيَا وزِينَتَهَا فتَعالَيْنَ أُمَتِّعْكُنَّ وأُسَرِّحْكُنَّ سَرَاحاً جميلا . وإن كنتُنَّ تُرِدْنَ اللهَ ورسُولَهُ والدّارَ الآخِرَةَ ، فإنَّ الله أعدَّ للمحسناتِ منْكُنَّ أجرا عظيما[1] » .

فقال رسول الله للسيدة عائشة : أُريد أن أعرض عليك أمرا أُحب ألا تَعْجَلِي فيه حتى تستشيرى أبويك .

قالت وما هو يا رسول الله ؟

فقرأ الآية ، فقالت : إليك يا رسول الله أستشير أبويَّ ؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة .

ثم خير النبي نساءه جميعاً ، فأجبن بما أجابت به عائشة ، ورضين بحال يستمتع بخير منها كثيرات من المعاصرات لهن ممن هن دونهن مكانة ومقاماً وصهرا .

ولو أن النبي أراد أن يغدق على زوجاته إغداقاً لفعل ، فقد كان من الميسور له أن يفرض لنفسه ولأهله من الغنائم والأنفال ما يزيد على حاجته ويرضى زوجاته ، وإنه لمطمئن إلى أن المسلمين سيرحبون بما فرض ، معتقدين أن هذا تشريع من الله .

---

(١) سورة الاحزاب ٢٨-٢٩

لكنه لم يفعل ، فضرب بقناعته عما هو قادر عليه ، وزهده فيما يملكه وفيما يستطيع أن يملكه ، المثل الأعلى للرجل الكامل ، وللحاكم العظيم ، وللمالك الذى يتصرف فى ملكه بما يشاء إلا أن يخضع لميل من ميول النفس أو لهوى من الأهواء .

كلفه بالنظافة والطيب .

كان رسول الله مع زهادته وتواضعه وإيثاره كَلِفًا بنظافة جسمه وملابسه ، يحب أن يبدو لأهل بيته ولأصحابه حسن البِزَّة ، نظيف الملبس .

وقد سبق أنه كان يرتدى أحسن ثيابه إذا قدم عليه وفد من الوفود التى كانت تَقْدُمُ إليه لتعلن إسلامها ، وأنه كان يأمر كبار صحابته بذلك ، لأن هذا المظهر يرفع من أقدار المسلمين فى نظر هؤلاء الوافدين ، ويعظم من شأن الإسلام ، وبخاصة أنهم لم يتشربوا بعْدُ تعاليم الإسلام .

وكان رسول الله يحب الطِّيب ، وينفر من الرائحة الكريهة ، وكانت له سكَّة[1] يتطيب منها .

لهذا كان يقبل هدية الطيب ولا يرده[2] .

وقد صنعت له السيدة عائشة جبة من صوف ، فلما لبسها عرق ، فوجد ريح الصوف ، فخلعها[3] .

---

(١) سكة : طيب من الرامك وهو شىء أسود يخلط بمسك ويعرك ويقرص ويترك يومين ثم يثقب بمسلة وينظم فى خيط ، وكلما قدم به العهد عبق ، أو هى طيب مجموع من أخلاط .

(٢) المواهب اللدنية ١٢٨ .

(٣) الاحياء ٢/٣١٨ .

وكان يتطيب وهو مُحْرِمٌ . قالت السيدة عائشة : كنت أُطَيِّبُ رسول الله لإحرامه حين يُحْرِم ، ولحله قبل أن يطوف بالبيت[١] .

وقالت : كنت أطيب رسول الله بأطيب ما يجد . حتى أجد وَبِيص[٢] الطيب فى رأسه ولحيته وهو مُحْرِم[٣] .

وكانت له مِلْحَفَة مصبوغة بالزعفران . وربما صلى بالناس وهو يلبسها وحدها[٤] .

لهذا كانت رائحته عبقة . قال أنس بن مالك : ما شممت ريحاً قط أو عَرْفاً قط أطيب من ريح النبي أو عَرْفه[٥] .

وكان إذا قام من الليل يَشُوصُ[٦] فمه بالسِّواك[٧] .

وقال عليه الصلاة والسلام : لولا أن أشق على أمتى لأمرتهم بالسواك عند كل صلاة .

وكان يُرَجِّلُ شعره[٨] ، ويُسَرِّحُ لحيته ، ويَدْهن رأسه . ويضع قِناعاً[٩] فى بعض الأوقات فوق شعره[١٠] .

وكان أكثر ملابسه أبيض اللون ؛ إذ كان يحب البياض . ويوصى بلبسه[١١] .

---

(١) اللؤلؤ والمرجان ٣٤/٢
(٢) وبيص : لمعان
(٣) فتح المبدى ١٦٢/١ ، ٢٩٩/٣
(٤) الاحياء ٣٣٢/٢
(٥) فتح المبدى ٦١/٣ وصحيح مسلم ٨٦/١٥
(٦) يشوص : يدلك
(٧) اللؤلؤ والمرجان ٦٤/١
(٨) يرجل : يسرح
(٩) القناع : الخرقة التى توضع على الرأس حين استعمال الدهن لتقى العمامة منه
(١٠) المواهب اللدنية ٤٦
(١١) الاحياء ٣٣٣/٢

وقد أراد من أصحابه أن يكونوا كذلك ما استطاعوا ، فقد سأله رجل : يا رسول الله ، إنى أحب أن يكون ثوبى حسناً ونعلى حسنة . أفمن الكبر ذاك ؟ فقال : لا ، إن الله جميل يحب الجمال ، الكِبْرُ بَطْرُ الحق ، وغَمْط الناس(١) .

وذكرت السيدة عائشة أن الناس كانوا يحضرون لصلاة الجمعة من منازلهم وبعضها فى العَوالِى ، فيصيبهم الغبار والعرق ، فتظهر رائحته . فأتى رسولَ الله صلى الله عليه وسلم إنسانٌ منهم ، وهو عندى ، فقال الرسول : لو أنكم تطهرتم ليومكم هذا (٢) .

وقال على المنبر يوم الجمعة : ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثَوْبى مِهْنَتِهِ(٣) .

وقال : اغتسلوا يوم الجمعة ، واغسلوا رءوسكم ، وإن لم تكونوا جُنُباً وأصيبوا من الطيب(٤) .

وقال : من أكل من هاتين البَقْلتين(٥) فلا يقربَنَّ مسجدنا ، فمن كان آكلهما فليمتهما طبخاً(٦) .

وقال : من أكل من هذه الشجرة — يريد الثوم — فلا يغشانا فى مساجدنا قال راوى الحديث : قلت لجابر بن عبد الله : ما يعنى به [فقال : ما أراه يعنى إلا نيئة ، وقيل إلا نتنة(٧) .

---

(١) زاد المعاد ٥٢/١

(٢) فتح المبدى ٢٩١/١

(٣) زاد المعاد ٤٥/١

(٤) فتح المبدى ٢٨٨/١

(٥) المراد الثوم والكرات

(٦) المجازات النبوية ٦٨ .

(٧) فتح المبدى ٢٨٣/١

وقال : من أكل ثوماً أو بصلا فليعتزلنا ، أو فليعتزل مسجدنا وليقعد فى بيته(١) .

وقال : من أكل من هذه اللحوم شيئاً فليغسل يده من ريح وَضَرِه لا يؤذى من حِذاه(٢) .

وقال : إن الله جميل يحب الجمال ، سخى يحب السخاء ، نظيف يحب النظافة (٣) .

وكان صلى الله عليه وسلم يقلم أظفاره . ويقص شاربه يوم الجمعة قبل أن يروح إلى الصلاة (٤) .

ورأى عوف بن مالك فى ثياب رثة ، فقال له : هل لك من مال ؟ قال : من كل المال قد أعطانى الله تعالى من الإبل والغنم . قال رسول الله : فَلْيُر عليك (٥) .

حضه على الزهد

كثيرا ما حض النبى على الزهد ، كقوله :

١ ـ إذا نظر أحدكم إلى من فُضِّلَ عليه فى المال والخَلْقِ فلينظر إلى من هو أسفل منه ، فهو أجدر ألا تزدروا نعمة الله تعالى عليكم(٦) .

٢ ـ عليكمْ بالقناعة فإن القناعة مال لا ينفد(٧) .

---

(١) فتح المبدى ٢٨٣/١ والجامع الصغير ٢٥٧/٢

(٢) الجامع الصغير ٢٥٨/٢ الوضر : وسخ الدسم أو رائحته الكريهة

(٣) الجامع الصغير ١٧٣/١

(٤) كنز العمال ٢٥/٤

(٥) تيسير الوصول ٢٨٩/٢ رثة : بالية رديئة

(٦) فتح المبدى ٣٢٥/٣

(٧) كنز العمال ٨٠/٢ والجامع الصغير ٩٤/٢

٣ ـ إذا أصبحت آمناً فى سِرْبك : مُعافىً فى بدنك . عندك قوت يومك . فعلى الدنيا العفاءُ [١] .

٤ ـ أتاه أوس بن خولة بقدح فيه لبن وعسل . فوضعه وقال : شَرْبتان فى شَرْبة . وأُدْمانِ فى قَدح . لا حاجة لى فيه . أمَّا إنى لا أزعم أنه حرام . ولكن أكره أن يسألنى الله عن فضول الدنيا يوم القيامة [٢] .

٥ ـ مر على أصحابه وفى يده قطعة من ذهب . فقسمها وقال . ما كان محمد قائلا لربه لو مات وهذه عنده [٣] ؟ .

٦ ـ إنى والله ما يسرنى أن لى أُحُدًا ذهباً كله ثم أورثه أو ما أحب أن لى أُحدا ذهباً أموت يوم أموت وعندى منه دينار أو نصف دينار إلا أن أرصده لغريم [٤] .

٧ ـ من سأل وعنده ما يغنيه فإنما يستكثر من حجر جهنم . قالوا : يا رسول الله وما يغنيه ؟ قال : ما يُغَدِّيه أو يُعَشِّيه [٥] .

٨ ـ ما ملأ ابن آدم وعاء شرا من بطنه . حسب ابن آدم اقيمات يقمن صلبه . وإن كان لا بد فاعلا فثلث لطعامه . وثلث لشرابه ، وثلث لنفسه [٦] .

٩ ـ لو كان لابن آدم واديان من ذهب لابتغى لهما ثالثاً . ولا يملأُ جوف ابن آدم إلا التراب [٧] .

١٠ ـ منهومان لا يشبعان منهوم العلم ومنهوم المال [٨] .

---

(١) كنز العمال ٢/٨٠ والجامع الصغير ٢/٩٤

(٢) الى (٤) كنز العمال ٢/٥١ الأدم : الادام : ما يستمرأ به الخبز

(٥) المنتخب من السنة ٧/٤٩

(٦) الاحياء ٣/٧٠ ونور اليقين ٢٨٢

(٧) ، (٨) الاحياء ٣/٢٠٦

١١ ـ ليس الغنى عن كثرة العَرض . إنما الغنى غنى النفس[١] .

١٢ ـ طُوبى لمن هُدِى للإسلام وكان عيشه كَفافاً وقَنِع[٢] .

١٣ ـ من سأل من غير فقر فكأنما يأكل الجمر[٣] .

١٤ ـ من أصبح منكم آمناً فى سِرْبه ، معافىً فى جسده . عنده قوت يومه ، فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها .

١٥ ـ ازهد فى الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما فى أيدي الناس يحبك الناس[٥] .

---

(١) (٢) الاحياء ٢٠٦/٣

(٣) الجامع الصغير ٣٧٣/٢

(٤) الجامع الصغير ٣٥٢/٢

(٥) كنز العمال ٣٩/٢

الفصل الخامس عشر

الحيـــاء

حقيقته

الحياءُ انقباض النفس وتحفظها عما يَعِيبُها من فعل أو قول وإن كان مباحاً في الشرع ، ولا مقال فيه لأحد .

وهو وثيق الصلة بالعفة والإيثار والصبر والحلم والعفو وطِيبِ العِشْرة .

وأعلى درجاته ما كان منشؤُه الشعور برقابة الله وعظم حقه ، قال عليه الصلاة والسلام : استحيوا من الله حق الحياء. قالوا : إنا نستحيي من الله يا رسول الله والحمد لله ، قال : ليس ذاكَ ، ولكن الاستحياء من الله حق الحياءِ أن تحفظ الرأس وما وعَى[1] ، والبطن وما حَوَى ، وتذكر الموت والبِلَى ، ومن أراد الآخرة ترك زينة الحياة الدنيا ، وآثر الآخرة على الأُولى .

وقد كان النبي حيِيًّا ، بل كان شديد الحياء ، حتى لقد وصفه مخالطوه بأنه كان أشد حياء من العذراءِ في خِدْرها[2] .

---

(١) كالسمع والبصر واللسان

(٢) فتح المبدى ٦١/٣ والاحياء ٢١٦/٢ وصحيح مسلم ٧٨/١٥

ولم لا ؟ وهو عفيف النظرة . مهذب الكلمة . مؤثر اصحبه على نفسه ، سريع المغفرة . طَيِّب العشرة ، صبور حليم . بالمؤمنين رءُوف رحيم .

لكن حياء النبي كان مقصورا على ما لا يتصل بتبليغ الدعوة . والنهوض بالرسالة ، وإقرار الحق ، وإقامة العدل . وتقوى الله وطاعته . فطالما غضب لله ، وطالما جهر بتسفيه الشرك والسخرية من الضلال . فلما لم يجد من امتشاق الحسام بُدًّا شَهَرَ سيفه . وجاهد فى سبيل الله ، حتى أعلى كلمته ، ومَكَّنَ لدينه الذى ارتضاه لعباده .

مظاهره

١ — كان بعض المسلمين يتحينون طعام رسول الله . فيدخلون بيوته . ويجلسون منتظرين إنضاج الطعام ، ومستأنسين لمحادثة بعضهم لبعض ، وكان رسول الله يضيق بطول جلوسهم وكثرة أحاديثهم . ولكن حياءه يمنعه أن يأمرهم بالخروج . لأن هذا الأمر يشق عليهم . فتولىَّ الله عن النبي إرشادهم ، ولهذا قالت السيدة عائشة : حسْبُك فى الثقلاء أن اللهَ تعالى لم يحتملهم [1] .

قال تعالى : « يَأَيُّها الذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بيوت النبي إلا أن يُؤْذَنَ لكُمْ إلى طعام غَيْر ناظِرِينَ إنَاه [2] . ولكن إذا دُعيتم فادخُلُوا . فإذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا ولا مُسْتَأنِسِينَ لحديثٍ . إنَّ ذلكمْ كانَ يُؤْذِى النَّبيَّ فيَسْتَحيِي مِنْكُمْ . والله لا يَسْتَحيِي مِن الْحَقِّ [3] » .

(١) الكشاف ٢٢٠/٢
(٢) اناه : نضجه
(٣) سورة الأحزاب ٥٣ .

٢ – كان لا يثبت بصره في وجه أحد ، ويعرض عمن يتكلم بغير جميل ، ويتغافل عما لا يشتهى من الحديث[١] .

٣ – قالت السيدة عائشة : كان إذا بلغه عن أحد ما يكرهه لم يقل : ما بال فلان يقول كذا وكذا ، بل يقول ما بال أقوام يصنعون أو يقولون كذا وكذا ، ينهى عنه ؛ ولا يسمى فاعله[٢] .

٤ – وكان يتوصل بالكناية عما يضطر إلى التعبير عنه مما يكره التصريح به .

ذكرت السيدة عائشة أن امرأة سألت النبي عن غُسْلها من المحيض ، فعرَّفها كيف تغتسل ، ثم قال لها : خُذِى فَرْصة من مسك فتطهرى بها ، قالت : كيف أتطهر بها ؟ قال : سبحان الله تطهرى ، فاجتذبتُها إلىَّ فقلتُ لها : تَتَبَّعِى بها أثر الدم .

وروى أنه قال لتلك المرأة تطهرى بها ثلاث مرات ؛ ثم استحيا فأعرض بوجهه[٣]

كذلك قال لامرأة رفاعة – حينما سألته وقد تزوجت رجلا فطلقها قبل أن يدخل بها : هل تحل لزوجها الأول الذى كان قد طلقها ثلاثاً : حتى تذوقى عُسَيْلَته ويذوق عُسَيلتك[٤] .

---

(١) الاحياء ٣٢٤/٢

(٢) ـور اليقين ٣٩٥

(٣) فتح المبدى ١٧٠/١ والاحياء ٣٢٤/٢ فرصة : قطعة

(٤) الاحياء ٣٢٤/٢

حضه على الحياء

قال عليه الصلاة والسلام :

١ ـ إذا لم تستح فاصنع ما شئت .

يريد أنه إذا لم يكن بك حياءٌ يمنعك القبيح فافعل ما تأمُرك به نفسك الأمارة بالسوءِ ، وهذا تهديد .

أو أن الأمر للإباحة ، لأن المعنى إذا أردت فعلاً لا يستحيا منه شرعاً وإن كان يعاب عرفاً فافعل ما شئت (١)

٢ ـ إن الله إذا أراد أن يهلك عبدا نزع منه الحياءَ ، فإذا نزع منه الحياءَ لم تُلْقِه إلا مقيتا ممَقَّتًا ، فإذا لم تلفه إلا مقيتاً ممقتاً نُزِعت منه الأمانة ، فإذا نزعت منه الأمانة لم تُلْفه إلا خائناً مُخَوَّنًا نزعت منه الرحمة ، فإذا نزعت منه الرحمة لم تلفه إلا رجيما مُلَعَّنًا نزعت منه رِبْقة الإسلام (٢) .

٣ ـ إن الحياءَ والإيمان فى قَرَن ، فإذا سُلب أحدهما تبعه الآخر (٣) .

٤ ـ الحياءُ خير كلهُ (٤) .

٥ ـ من لا يستحى من الناس لا يستحى من الله تعالى (٥) .

٦ ـ الحياءُ شُعبة من الإيمان (٦) .

٧ ـ مرَّ رسول الله على رجل من الأنصار يعظ أخاه فى الحياءِ ، فقال : دعه فإن الحياءَ من الإيمان (٧) .

---

(١) فتح المبدى ٣/٣١١

(٢) الجامع الصغير ١/١٦٧

(٣) الى (٥) كنز العمال ٢/٢٧ والجامع الصغير ١/١٩٧

(٦) المجازات النبوية ٨٧

(٧) فتح المبدى ١/٥٨ كان الرجل كثير الحياء ، وكان الآخر يعاتبه لأن الحياء قد يمنعه استيفاء حقوقه ، فقال رسول الله اتركه على حيائه .

٨ - من ألقى جلباب الحياء فلا غيبة له [١] .

٩ - كل أُمتى مُعافىً إلا المجاهرين . وإن من الجهار أن يعمل الرجل بالليل عملا ثم يصبح وقد ستره الله تعالى فيقول : عملت البارحة كَذا وكذا ، وقد بات يستره ربه ويصبح يكشف سَتْرَ الله عنه [٢] .

---

(١) الجامع الصغير ٢/٢٥٨

(٢) الجامع الصغير ٢/١٦٤ وفتح المبدى ٣/٣٠٨

الفصل السادس عشر

التواضع

ما التواضع ؟

التواضعَ تَنزُّلٌ بالنفس فى غير ابتذال لها ؛ ولا تهاون بقدرها ، ولا تجرئة للآخرين على الاستخفاف بمكانة المتواضع .

فهو إذًا نقيض الكِبْر ، لأن الكبر يزين للمتكبر أنه أعظم قدرا وكمالا من سواه ، فيركن إلى هذا الاعتقاد ، ويدأب على تحقير من دونه ، ويزدريه ، ويقصيه ، ويترفع عن مجالسته ومخالطته ، ويأنف من أن يخالفه غيره أو يعظه ؛ فإن جرؤ أحد على شئ من هذا غضب وعنفه ووبخه .

ولهذا فإن المتكبر إذا علَّمَ استذل المتعلمين وانتهرهم وامتَنَّ عليهم ؛ وإن خالط الناس استجهلهم واستحقرهم ، وإن تولى عملا استبد واستأثر (١) .

وعلى قدر ما يحقق التواضع من مساواة وإيثار وسماحة ومشاركة فى المشاعر وشغف بالإنصاف ، يجر الكبر إلى رذائل كالحقد والغضب والأثرة والغرور والتسلط .

ولهذا برئ العقلاءُ والفضلاءُ من الكبر ، وبرئوا من الفخر . فقد

---

(١) الكبر يختلف عن العجب لان العجب لايتعدى المعجب الى غيره ويختلف عن العظمة ، لان الانسان قد يستعظم نفسه ولكنه يرى غيره اعظم منه أو يراه نده (الاحياء ٢٦٩/٣) .

افتخر رئيس على مملوك بعض الفلاسفة ، فقال له المملوك : إن افتخرت عليَّ بفرسك فالحسن والفراهة للفرس لا لك ، وإن افتخرت بثيابك وآلاتك فالحسن لها دونك ، وإن افتخرت بآبائك فالفضل كان فيهم دونك[1]

ذم القرآن للتكبر

وقد ذم القرآن الكريم رذيلة الكبر ، فقال تعالى : «سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فى الأَرْضِ بغيرِ الحق[2]» .

وقال سبحانه : « كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللهُ على كلِّ قلبِ متكبرٍ جَبَّار[3] » .

وضرب سبحانه وتعالى مثلين لما يجنيه الكبر على صاحبه من هلاك .
أحدهما إبليس إذ زين له كبره أن يستنكف من السجود لآدم ، فطرده الله من رحمته . قال تعالى : « وإذْ قالَ ربُّكَ للملائكةِ إنِّى خالقٌ بشَرًا منْ صلْصَالٍ من حمإٍ مسْنُون . فإذا سَوَّيْتُهُ ونفَخْتُ فيه من رُوحى فقعُوا له ساجِدِينَ . فسجدَ الملائكة كلهمْ أجمعون . إلا إبليسَ أبَى أن يكونَ مع الساجِدِينَ . قال يا إبليسُ مالك ألا تكونَ مع الساجدين ، قال لم أكُنْ لأسجُدَ لبشرٍ خلقتَهُ من صَلصالٍ من حمإٍ مَسْنُون ، قال فاخْرجْ منها فإنَّكَ رَجيمٌ . وإنَّ عليكَ اللعنةَ إلى يوم الدين[4] » .

والآخر رجل غره ماله وكثرة أتباعه ووفرة ثماره : فأنكر الوحدانية

---

(١) تهذيب الأخلاق لابن مسكويه ١٦٤ .
(٢) سورة الأعراف ١٤٦
(٣) سورة غافر ٣٥
(٤) سورة الحجر ٢٨-٣٥ .

والبعث ، واستعلى على صاحبه ، واستكبر أن يستمع نصحه ، فأتلف الله أشجاره وثماره .

قال تعالى : « واضرِبْ لهم مَثَلاً رجلَين جعلنا لأحدِهما جنَّتَين من أعناب وحففناهما بنخل وجعلنا بينهما زرعا كلتا الجنتين آتت أُكلها ولم تَظْلِم مِنْهُ شيْئًا . وفَجَّرْنا خِلالَهما نَهَرًا وكانَ له ثَمَر ، فقالَ لصَاحِبه وهوَ يحاوره أنَا أكثر منْكَ مالًا وأعزُّ نَفَرًا . ودخَلَ جنتهُ وَهوَ ظالمٌ لنفسِهِ . قالَ : ما أَظُنُّ أن تَبِيد هذه أبدا ، وما أَظُنُّ الساعةَ قائِمةً ، ولئِنْ رددت إلى رَبِّي لأجدَنَّ خيرًا منهَا مُنْقَلَبًا . قال لهُ صاحِبه وهُوَ يُحاوِرُهُ : أكفرتَ بالذى خَلَقَكَ من تُرابٍ ثم منْ نُطْفَة ثم سَوَّاكَ رجلا . لكنَّا هو اللهُ رَبِّي ولا أُشرِكُ بربِّي أحدا . ولولا إذْ دَخَلْتَ جنَّتَكَ قلتَ ما شاء اللهُ لا قوةَ إلا بالله . إن تَرَنِ أنا أَقلَّ منك ما لا وولدًا فعسَى ربِّي أن يُؤْتيَنِ خيرًا من جنتك . ويُرسِلَ عليهَا حُسبَانًا منَ السماء فتصبحَ صَعِيدًا زَلَقاً ، أو يُصبحَ ماؤُها غَورًا ، فلَنْ تستطيعَ له طَلَبًا . وأُحِيطَ بثَمَرِهِ ، فأصبَح يُقَلِّبُ كفَّيهِ على ما أنفَقَ فيها وهي خاويةٌ على عُروشِها ، ويقولُ يا ليتني لم أُشْرِكْ بربِّي أحدا . ولمْ تكُنْ لهُ فِئَةٌ ينصرونَهُ منْ دُونِ اللهِ ومَا كَانَ منتَصِرًا[1] » .

وكذلك ذم القرآن الكريم العُجب لأنه يولد الكبر . فقال تعالى : « لَقَد نَصَرَكُم اللهُ فى مواطنَ كثيرةٍ ، وَيَومَ حُنَينٍ إذْ أَعجبَتْكُمْ كثرتكُمْ فلم تُغْنِ عنكُمْ شيئاً ، وضاقت عليكُم الأَرضُ بما رَحُبَتْ ، ثم وَلَّيتم مُدبِرين . ثم أنزلَ اللهُ سكينَتَه على رَسُولِهِ وعلى المؤْمِنينَ وأَنزَلَ جُنودًا لمْ تَروْهَا وعَذَّبَ الذِين كفروا ، وذَلِكَ جزَاءُ الكَافِرِينَ[2] » .

---

(١) سورة الكهف ٣٢-٤٣

(٢) سورة التوبة ٢٥-٢٦

مظاهره

كان رسول الله المثل الأعلى فى تواضعه . لأنه أعلى الناس قدرا عند الله وعند الناس ، ولكنه لا يتعالى عليهم . بل يتنزل في غير امتهان ، تنزل العظيم الذى يحب صحبه . كما يحب إخوته وبنيه ، ويعلم أنهم يحبونه ويجلونه ويؤثرونه على أنفسهم .

وكان هذا التواضع لا يزيده إلا جلالا فى عيونهم . ولا يزيده إلا محبة فى قلوبهم .

وقد شمل تواضعه معاملاته وأعماله ومظهره العام .

١ ـ حدث أبو سَعيد الخُدْرِى قال : كان رسول الله يَعْلُفُ النَّاضِح [١] ، ويعقل البعير ، وَيَقُمُّ [٢] البيت ، ويحلب الشاةَ ، ويَخْصِفُ النعل ، ويرقع الثوب . ويأكل مع خادمه . ويطحن عنه إذا تعب ، ويشترى الشيء من السوق فيحمله إلى أهله . ويصافح الغنى والفقير والكبير والصغير ، ويسلم مبتدئاً على كل من استقبله من صغير أو كبير وأسود أو أحمر وحر أو عبد [٣] .

٢ ـ لما سمع الرسول بأن قريشاً وحلفاءها قادمون إلى المدينة ضرب الخندق على المدينة . فعمل فيه ترغيباً للمسلمين فى الأجر ، وتشجيعاً لهم على العمل ، ودأب فيه ودأبوا ، وكانوا يرتجزون برجل من المسلمين يقال له جُعيل سماه رسول الله عمرا . فقالوا :

---

(١) الناضح : البعير

(٢) يقم : يكنس

(٣) الاحياء ٣٠٦/٢

سماه من بعد جُعيل عَمرا : وكان للبائس يوماً ظهرا[1] .

فإذا مروا بعمرو قال الرسول (عمرا) . وإذا مروا بظهر قال الرسول ظهرا .

وكان ينقل التراب وقد وارى بياض بطنه . وهو يقول :

لاَ هُمَّ لولا أنت ما اهتدينا ... ولا تصدقنا ولا صلينا

فأنزلَنْ سكينةً علينا ... وثبت الأقدام إن لاقينا

والمشركون قد بَغَوا علينا ... وإن أرادوا فتنة أبينا[2]

٣ ـ كان فى سفر ، وأمر أصحابه بطهو شاة . فقال أحدهم : علىَّ ذبحها وقال آخر : علىَّ سلخها . وقال ثالث : علىَّ طبخها . فقال رسول الله : وعلىَّ جمع الحطب . فقالوا : يا رسول الله . نكفيك العمل . فقال : علمت أنكم تكفوننى ، ولكن أكره أن أتميز عليكم . وأن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزا بين أصحابه[3] .

٤ ـ قدم وفد النجاشى على رسول الله . فقام يخدمهم بنفسه . فقال له أصحابه : نحن نكفيك يا رسول الله . فقال : لا . إنهم كانوا لأصحابى مكرمين ، وأنا أحب أن أكافئهم[4] .

٥ ـ عن أبى هُرَيْرَةَ : دخلت السوق مع النبى صلى الله عليه وسلم فاشترى سراويل . وقال للوازن : زن وأرجح . ثم قال : فوثب إلى يد رسول الله يقبلها ، فجذب يده وقال : هذا تفعله الأعاجم بملوكها ،

---

(١) الضمير فى (سماه ، وفى (كان ، يعود على السى . الظهر : الظاهر والمعين

(٢) فتح المبدى ٢/٣٠٢ وتاريخ الطبرى ٢/٤٤

(٣) شرح الزرقانى ٤/٢٦٥

(٤) شرح الزرقانى ٤/٢٦٦ والاحياء ٢/١٧

ولستُ بملك . إنما أنا رجل منكم . ثم أخذ السراويل فذهبت لأحمله ، فقال : لا . صاحب الشيء أحق بشيئه أن يحمله [1] .

٦ ـ قالت السيدة عائشة : كان صلى الله عليه وسلم يَخْصِف نعله ، ويخيط ثوبه ، ويعمل في بيته كما يعمل أحدكم فى بيته ، أرسل إلينا آل أبي بكر بقائمةِ شاةٍ ليلا ، فأمسكتُ وقطَع رسول الله [2] .

٧ ـ قال الأسود بن سريع : يا رسول الله إنى قلت شعرا أثنيت فيه على الله ومدحتك ، فقال له : ما أثنيت به على الله فهاته ، وأما ما مدحتنى به فدعه عنك وكان يقول : يا أيها الناس لا ترفعونى فوق قدرى ، فإن الله قد اتخذنى عبدا قبل أن يتخذنى نبياً [3] .

٨ ـ اغتسل فى بئر فأمسك حُذَيْفَةُ بن اليمانِ الثوب ، وقام يستر رسول الله حتى اغتسل ، ثم نزل حذيفة ليغتسل ، فتناول رسول الله الثوب ، وقام يستر حذيفة عن الناس ، فأبى حذيفة . وقال : بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، لا تفعل . فأبى إلا أن يستر حذيفة بالثوب حتى اغتسل [4] .

٩ ـ وكان يقدم من السفر فيتلقاه الصبيان . فيقف عليهم ، ثم يأمُر بهم فيُرفعون إليه ، فيرفع بعضهم بين يديه ، ويُرْدِفُ بعضهم خلفه ، ويأمر أصحابه أن يحملوا بعضهم .

وربما تفاخر الصبيان بعد ذلك ، فيقول بعضهم لبعض : حملنى

---

(١) نور اليقين ٢٩٩

(٢) الاحياء ٢/٣١٦ ، وفيض المبدى ١/٢٥٠

(٣) كنز العمال ٢/١٣٢

(٤) الاحياء ٢/٥٤؛

رسول الله بين يديه ، وحملك أنت وراءه ، ويقول بعضهم : أمر أصحابه أن يحملوك وراءهم [١] .

١٠ - وكان يُرْدِفُ خلفه عبده أو غيره ، أردف أسامة بن زيد مولاه وابن مولاه من عَرَفَة ، وأردف الفضل بن عباس من المُزْدَلِفَة ، وأردف معاذ بن جبل وابن عمر وغيرهم من الصحابة [٢] .

١١ - وكان يركب ما أمكنه ، مرة فرساً ، ومرة بعيرا ، ومرة بغلة ، ومرة حمارا ، وأحياناً يمشي راجلا حافياً بلا رداء ولا عمامة ولا قَلَنْسُوة [٣] .

١٢ - وما عاب مَضْجعًا ، إن فرشوا له اضطجع ، وإن لم يفرشوا له اضطجع على الأرض ، وكان فراشه من أدَم ٍ حشوه ليف ، طوله ذراعان أو نحوه ، وعرضه ذراع وشبر أو نحوه ، وكان ينام على الحصير ليس ثمة غيره [٤] .

١٣ - وكان يجيب دعوة الحر والعبد ، لا يدعوه أحمر ولا أسود من الناس إلا أجابه ولا يستكبر عن إجابة الأمةِ والمسكين [٥] .

١٤ - وكان يقبل الهدية ولو أنها جُرْعة لبن ، أو فخذ أرنب ، ثم يكافىءُ عليها ، ويأكلها ولا يأكل الصدقة .

١٥ - وكانت الوليدة من ولائد المدينة تأخذ بيده فلا ينزع يده منها حتى تذهب به حيث شاءت ، فلا يأنف أن يمشي مع الأرملة والمسكين [٦] .

---

(١) الاحياء ١٧٣/٢
(٢) الاحياء ٣١٨/٢
(٣) الاحياء ٣١٨/٢
(٤) الاحياء ٣٢١/٢ ، ٣٢٤
(٥) الاحياء ٣١٦/٢ وهامشه
(٦) الاحياء ٣١٧/٢ ، ٣٠٤/٣

١٦ ـ وكان يجالس الفقراء والمساكين ، قال أبو سعيد : جلست فى عصابة من ضعفاء المهاجرين ، وإن بعضهم ليستتر بعضاً من العُرْى . فجلس رسول الله وسطنا لِيَعْدِلَ بنفسه فينا ، وكان له عبيد وإماء لا يترفع عليهم من مأكل ولا ملبس[(١)] .

١٧ ـ حدث أبو أيوب خالد بن زيد أن الرسول لما نزل فى بيتى نزل فى الطبق الأول ، وأنا وأم أيوب فى الطبق الأعلى ، فقلت له : يا نبى الله ، بأبى أنت وأمى ، إنى لأكره أن أكون فوقك وتكون تحتى ، فاصْعَدْ أنت وكن فى العُلْو ، وننزل نحن فنكون فى السُّفْل ، فقال : يا أبا أيوب إيه ، أرفقُ بنا وبمن يغشانا أن نكون فى سُفْلِ البيت .

ثم انكسر حِبٌّ[(٢)] لنا فيه ماء ، فقمت أنا وأم أيوب بقطيفة لنا ، ما لنا لحاف غيرها ، نَنْشَفُ بها الماء ، تخوفاً أن يقطر على رسول الله صلى الله عليه وسلم منه شىء[(٣)] .

١٨ ـ كان له كساء مُلَبَّد[(٤)] يلبسه ويقول : إنما أنا عبد ألبس كما يلبس العبد . وربما لبس الإزار الواحد ليس عليه غيره ، ويعقد طرفيه بين كتفيه ، وربما صلى فى بيته فى الإزار الواحد ملتحفاً به مخالفاً بين طرفيه[(٥)] .

١٩ ـ أُتى برجل فأُرْعِدَ من هيبته ، فقال له : هَوِّنْ عليك ، فلست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القَدِيد[(٦)] .

---

(١) الاحياء ٢/٣١٩
(٢) حب : جرة
(٣) سيرة ابن هشام ٢/١٤٤
(٤) ملبد : مرقع
(٥) الاحياء ٢/٣٢٢
(٦) الاحياء ٢/٣٢٨

٢٠ ـ ما دعاه أحد من أصحابه وغيرهم إلا قال : لبيك[١] .

٢١ ـ كان أصحابه يتناشدون الشعر بين يديه أحياناً . ويذكرون أشياء من أمر الجاهلية ، ويضحكون ، فيبتسم إذا ضحكوا . ولا يزجرهم إلا عن حرام[٢].

٢٢ ـ لم يكن يعرف مجلسه من مجلس أصحابه . لأنه كان يجلس حيث ينتهي به المجلس . ويجلس بين ظهرانيهم ؛ فيجيءُ الغريب فلا يدرى أيهم هو ، حتى يسأل عنه ، روى أنه قال : لا يُقِم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ، ثم يجلس فيه ، ولكن توسعوا وتَفَسَّحوا . وقال : إذا أخذ القوم مجالسهم فإن دعا أحد أخاه فأوسع له فليأته ؛ فإنما هى مكرمة أكرمه بها أخوه ، فإن لم يوسع له فلينتظر إلى أوسع مكان يجده فيجلس فيه[٣] .

٢٣ ـ وكان يضحك ، لكن ضحكه تبسم ، وكان يرى اللعب المباح فلا ينكره ، ذكرت السيدة عائشة أن النبى كان يسترها بردائه وهى تنظر إلى الحبشة وهم يلعبون فى المسجد[٤] .

٢٤ ـ وكان يسابق السيدة عائشة فيسبقها وتسبقه ، فيقول هذه بتلك[٥] .

٢٥ ـ وكان يكره أن يقوم له أصحابه إذا أقبل ، روى أنه قال لهم : إذا رأيتمونى فلا تقوموا كما تصنع الأعاجم ، وقال : من سره أن يمثل له الرجال قياماً ، فليتبوأ مقعده من النار .

---

(١) ، (٢) الاحياء ٢/٣٢٨

(٣) الاحياء ٢/١٨٢

(٤) الاحياء ٢/٢٤٥

(٥) الاحياء ٢/٤٠

روى عن أنس قوله : ما كان شخص أحب إلينا من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وكنا إذا رأيناه لم تقم له ، لما نعلم من كراهته لذلك [1] .

حضه على التواضع

طالما نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الكبر ، وبغَّضَهُ إلى المسلمين ، وطالما أمر بالتواضع ، وحببه إليهم ، وكثيرا ما ضرب لهم أعظم المثل والقدوة بنفسه ، مثل قوله :

١ – لا تُطْرونى كما أطْرت النصارى ابن مريم ، إنما أنا عبد ، فقولوا : عبد الله ورسوله [2] .

٢ – حج على رَحْل رَثٍّ وعليه قطيفة لا تساوى أربعة دراهم ، فقال : اللهم اجعله حجاً لا رياء فيه ولا سمعة [3] .

٣ – أعوذ بك من نقمة الكبرياء [4] .

٤ – لا يدخل الجنة من فى قلبه مثقال ذرة من كبر [5] .

٥ – كفى بالمرء شرا أن يَحْقِر أخاه المسلم [6] .

٦ – لا يقل أحدكم : أَطْعِمْ ربك ، وضِّئْ ربك ، اسق ربك ، وليقل سيدى ومولاى ، ولا يقل أحدكم عبدى وأمتى ، ولكن فتاى وفتاتى وغلامى [7] .

٧ – إذا أتى أحدكم خادمه بطعامه ، فإن لم يجلسه معه فليناوله لقمة أو لقمتين أو أكلة أو أكلتين ، فإنه ولىَ علاجه [8] .

---

(١) الاحياء ١٨٢/٢ و ٣٠٤/٣
(٢) و (٣) المواهب اللدنية ١٨٩
(٤) الى (٦) زاد المعاد ٥٢/١ والاحياء ٢٩٩/٣
(٧) و (٨) فتح المبدى ٢٤٨/٢ والاحياء ١٤١/٢

٨ – التواضع لا يزيد العبد إلا رفعة ، فتواضعوا يرفعكم الله (١) .

٩ – إن الله تعالى أوحى إليَّ أن تواضعوا ، حتى لا يفخر أحد على أحد ، ولا يبغى أحد على أحد (٢) .

١٠ – من تواضع لله رفعه (٣) .

١١ – لا ينظر الله إلى رجل يجر إزاره بَطَرا (٤) .

١٢ – طُوبىَ لمن تواضع فى غير مسكنه (٥) .

١٣ – يحشر الجبارون والمتكبرون يوم القيامة فى صُوَر الذَّر ، تطؤهم الناس ، لهوانهم على الله تعالى (٦) .

١٤ – من جرَّ ثوب خُيَلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة (٧) .

١٥ – لا يقيم الرجلُ الرجلَ من مجلسه ثم يجلس فيه ، ولكن تَفَسَّحوا وتوسَّعوا (٨) .

١٦ – سئل صلى الله عليه وسلم عن الجمال فى الثياب : هل هو من الكبر ؟ فقال : لا ، ولكن من سفَه الحق ، وغَمَصَ الناس (٩) .

---

(١) الى (٣) كنز العمال ٢٥/٢ والاحياء ٢٨٠/٤
(٤) الاحياء ٢٩١/٣
(٥) الاحياء ٢٩٢/٣
(٦) الاحياء ٢٩٠/٢ الذر : النمل
(٧) الجامع الصغير ٣٦٤/٢
(٨) فتح المبدى ٣٦٧/٣
(٩) زاد المعاد ٥٢/١ والاحياء ٢٩٨/٣ ، ٣٠٥ غمص الناس : ازدراهم واحتقرهم

الـــوفـــاء

حقيقته

الوفاء القيام بما يجب للعبد من رعاية وأداء ، سواءٌ أكان العهد معتمدا على توثيق مكتوب أو على وعد شريف ، أم لم يكن متعاقدا عليه ، لأنه مما تُلْزِمُ به الفطرة السليمة والعقل الرشيد والوجدان الحى ، كالوفاء لصاحب الجميل .

وحَسْبُ الوفاء بالوعد تشريفاً أن الله تعالى يقول : « إنَّ اللهَ اشْتَرى مِن المؤْمنِينِ أنْفُسَهُمْ وأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لهمُ الجَنَّةَ . يُقاتلون فى سبيلِ الله ، فيَقْتُلُون ويُقْتَلُونَ ، وعْدًا عليه حقًّا فى التوراةِ والإنجيلِ والقرآن ، ومَنْ أوْفى بعَهْدِه مِنَ اللهِ[1] » ؟ .

وقد أمر سبحانه وتعالى بالوفاء بالعهد ، لأنه من التقوى ، والله يحب عباده الأتقياء : « بَلَى مَنْ أَوْفى بعهده واتَّقى فإنَّ اللهَ يُحِبُّ المتقين[2] » ، ولأنه الوسيلة إلى نيل ما وعد الله به عباده الأوفياء «وأوْفوا بعهدِى أُوفِ بعَهْدِكُمْ ، وإيَّاىَ فارْهَبُون[3] » ، ولأن العهد مما يسأل الخَلْقُ عنه يوم

(١) سورة التوبة ١١١

(٢) سورة آل عمران ٧٦

(٣) سورة البقرة ٤٠

القيامة «وأوفوا بالعهدِ إنَّ العهد كان مسئولا[1]» ، ولأن الوفاء من صفات أصحاب العقول الراجحة المبرأة من الأهواء « إنَّما يتَذَكَّرُ أُولوا الألباب الذين يُوفُونَ بعَهْدِ اللهِ ولا يَنْقُضُونَ المِيثاقَ[2]» .

مظاهره

كان رسول الله ـ كما قال على بن أبى طالب ـ أوفى الناس ذِمَّةً[3] .

وقد عظم وفاؤه واتسع ، فشمل كل ضروب الوفاء .

(١) لنعم الله

قَدَّر نِعَمَ الله حق قدرها ، فأجهد نفسه فى القيام بشكرها .

قالت السيدة عائشة إن النبى صلى الله عليه وسلم كان يقوم من الليل حتى تَتَفَطَّرَ[4] قدماه ، فقلت له : لماذا تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟

قال : أفلا أُحب أن أكون عبدا شكورا ؟

(٢) بالعهد

وَفَى رسول الله بكل عهد عاهد عليه ، فلم يستجب لما كانت تقتضيه الضرورة أحياناً من الغدر ، ولم تخوله المصلحة أن ينكث العهد ، ولا أن يرتضى نكثه مهما تكن البواعث .

---

(١) سورة الاسراء ٣٤

(٢) سورة الرعد ٢٠

(٣) الاحياء ٢/٣٣٧

(٤) تتفطر : تتشقق .

ويكفى أن أذكر هنا ثلاثة أمثلة لكل منها أعظم الدلالة على الوفاء بالعهد .

فأما المثال الأول فهو أن حُذَيْفَةَ بن اليمان[1] قال : ما منعنى أن أشهد غزوة بدر إلا أنى خرجت أنا وأبى حسيل من مكة إلى المدينة مهاجرين ، فأخذنا كفار قريش فقالوا : إنكما تريدان محمدا ، فقلنا : ما نريد إلا المدينة ، فخلوا سبيلنا بعد أن أخذوا منا عهد الله وميثاقه ألا نقاتل معه ، فلما كانت غزوة بدر أردنا أن نشترك فيها ، فأخبرنا رسول الله بما كان بيننا وبين قريش ، فقال : انصرفا ، نفى لهم بعهدهم ، ونستعين الله عليهم[2] .

إن هذا العمل العظيم الذى فعله رسول الله ليس وفاء فحسب ، بل هو أسمى ما يصبو إليه الوفاء ، وذلك أن الوفاء بالعهد فى وقت السلم فضيلة ، فإذا كان فى حرب متصلة مع عدو ضارى العداوة متصل المكيدة متلاحق الغدر فإنه أفضل الفضيلة .

ثم إن وفاء الشخص بعهده فضيلة ، فإذا ما حض غيره على الوفاء بعهد لم يشارك هو فيه ، ولم يشر به ، ولم يقره ، ولم يشهد عليه ، وهو يعلم أنه عهد باطل لأنه قام على الاضطرار وعلى التحايل للفرار ، ويعلم أن نقض هذا العهد يزيد عدد جنوده ويقوى جيشه فى وقت كان فيه

---

(1) اسم والده حسيل بالتصغير أو حسل بالتكبير ولكنه سمى اليمان (أى اليمنى) لانه او لان احد أجداده جروة العبسى كان قد أصاب دما فهرب الى المدينة فحالف بنى عبد الاشهل وهم من اليمن فسماه قومه اليمان ، لانه حالف اليمانية ، او لانه بعد عن أهله زمنا باليمن ثم رجع اليهم (الاصابة ٣٣٢/١ والاستيعاب ٣٣٤

(2) مسند الامام أحمد ٣٩٥/٥ وصحيح مسلم ١٤٤/١٢ والاصابة ١٣/٢ وأسد الغابة ٣٩٠/١

جيشه قليل العدد فليس فيه رجلان بالشيء الهين ، إن الوفاء حينئذ ليس فضيلة فحسب ، بل هو أعظم الفضيلة .

لهذا كان أمر النبي لحذيفة وأبيه بالوفاء بعهدهما أعلى ما يصبو إليه الخلق العظيم من درجات الوفاء بالعهد.

وأما المثال الثاني فإنه بينما كان رسول الله يكتب معاهدة الحديبية مع قريش جاءه أبو جَنْدل بن سُهَيْلٍ يرسف فى قيوده ويعلن إسلامه ، فرده رسول الله إلى قريش وفاء بالعهد الذى لم يتم توقيعه ، فقال أبو جندل : يا معشر المسلمين كيف أُرَدُّ إلى قريش وقد جئت مسلماً ؟ ألا ترون ما لقيتُ ؟ وكان قد عذب عذاباً شديدا ، فاشتد الأمر على المسلمين ، وقالوا : كيف نرد إلى المشركين من جاءنا مسلماً وهم لا يردون إلينا من جاءهم مرتدا ؟

فقال النبي : إنه من ذهب منا إليهم فأبعده الله ، ومن جاء منهم فرددناه إليهم فسيجعل الله له مَخْرَجاً [1] .

وأما المثال الثالث فهو أن أبا بَصير عُتْبة بن أَسِيد فر إلى المدينة بعد عهد الحديبية ، وكان ممن حبستهم قريش فى مكة ، فبعثت قريش إلى رسول الله تطلب رده ، فقال له الرسول : يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمتَ ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك و لمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانْطلِقْ إلى قومك [2] .

وقد حدث ما توقعه رسول الله ، فإن أبا بَصِير قتل مرافقه القرشي

(١) سيرة ابن هشام ٣٢٢/٣
(٢) سيرة ابن هشام ٣٣٧/٣

وهرب إلى ساحل البحر ، ولحق به أبو جنْدَل ، ثم لحق بهما كل رجل أسلم من قريش ، وهنالك اجتمعت عُصْبة ، وجعلوا يتعرضون لقوافل قريش المترددة بين الحجاز والشام ، ويسلبونها ويقتلون رجالها ، فبعثت قريش إلى النبي تناشده الله تعالى والرَّحِمَ أن يستقدم هؤُلاءِ إليه ، فمن أتاه منهم فهو آمن فأرسل إليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فقدموا إليه بالمدينة (١) .

(٣) للوالدين

لقد عرف النبي الأُمى اليتيم ما يجب للوالدين من بر وتكريم وإيثار ، مهتدياً بما أمر به القرآن الكريم ، وبما توحى به المشاعر الطاهرة والخلق الكريم والوفاءُ بالجميل .

١ ــ قالت أسماءُ بنت أبى بكر : قدمتْ علىَّ أُمِي وهى مشركة ، حينما عاهد رسول الله قريشاً عهد الحديبية ــ وكان أبو بكر قد طلقها فى الجاهلية ــ ومعها هدية لى ، فبعثت إلى رسول الله أَسْتَفْتيه فقلت : إن أُمى قدِمَتْ علىَّ وهى راغبة ، أَفأُدخلها بيتى ؟ فأرسل إلىَّ يقول : نعم ، أَدخلى أُمك وصِليها (٢) .

٢ ــ جاءَ رجل إلى النبى يستأذن فى الجهاد ، فسأله رسول الله : أحىٌّ والداك ؟ قال : نعم . قال : فارجع فاستأذنهما ، فإن أذنا لك فجاهد ، وإلا فَبِرَّهما (٣) .

---

(١) سيرة ابن هشام ٣٣٨/٣
(٢) الاستيعاب ٩٠٥ ، ١٧٨١ وفتح المبدى ٢٥٩/٢ .
(٣) فتح المبدى ٣٢٢/٢ وتيسير الوصول ٤٥/٢

ومعنى هذا أنه حتم على الابن الذى يريد الجهاد أن يأذن له والداه ، وجمهور الفقهاء على حرمة الجهاد إذا رفض الوالدان أو رفض أحدهما [1] .

٣ ـ أمر النبى بأن يَوَدَّ الابن من كان أبوه صديقاً له ، لأن هذا ضرب من الوفاء للأب .

فقد لقى عبد الله بن عمر بن الخطاب رجلا من الأعراب ، فسلم عليه عبد الله ، وحمله على دابته ، وأعطاه عمامة كانت على رأسه فقال له عبد الله بن دينار : أصلحك الله ، إنهم الأعراب ، وهم يرضون باليسير ، فقال ابن عمر : إن أبا هذا كان وادًّا لعمر بن الخطاب ، وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : إن أبرَّ البر صلةُ الولدِ أهلَ وُدِّ أبيه بعد أن يُولى الأب [2] .

٤ ـ جاء رجل إلى النبى فقال : يا رسول الله إن لى مالاً وولدا ، وإن أبى يحتاج مالى ، فقال : أنت ومالك لأبيك ، إن أولادكم من أطيب كسبكم ، فكلوا من كسب أولادكم [3] .

٥ ـ قال أبو هريرة : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : رغمَ أنفه ، رَغِمَ أنفه ، رغم أنفه . قيل : من يا رسول الله ؟ قال : من أدرك والديه عند الكبر أحدهما أو كلاهما ، ثم لم يدخل الجنة [4] .

أى أن برِّهما وبخاصة عند الكبر والضعف سبب فى دخول الجنة .

---

(١) فتح المبدى ٣٢٢/٢

(٢) تيسير الوصول ٤٦/٢ والاحضاء ١٩٣/٢

(٣) تيسير الوصول ٤٤/١

(٤) تيسير الوصول ٤٤/٢

(٤) للزوجة

عاش صلى الله عليه وسلم حياته وفيًّا لذكرى زوجته السيدة خديجة ، ولم يلهه عن هذا الوفاء زواجه بالسيدة عائشة أو السيدة حفصة أو غيرهما ، بل كان يذكرها بالتقدير على مسمع من السيدة عائشة ، فتغار منها ، حتى لقد قالت له مرة : هل كانت إلا عجوزا بَدَّلك الله خيرا منها ؟ فغضب وقال : لا والله ما بدلني الله خيرا منها ، آمَنَتْ بي إذ كفر الناس ، وصَدَّقَتْني إذ كذبني الناس ، وواستني بمالها إذ حرمني الناس ، ورزقني الله منها الولد دون غيرها من النساء[1] .

وكان إذا أُتيَ بهدية قال : اذهبوا بها إلى بيت فلانة ، فإنها كانت صديقة لخديجة ، إنها كانت تحب خديجة .

وكان يذبح الشاة فيهديها إلى خلائل خديجة .

واستأذنت عليه أُخت خديجة فارتاح إليها ، ودخلت عليه امرأة فهشَّ لها وأحسن السؤال عنها ، فلما خرجت قال : إنها كانت تأتينا أيام خديجة ، وإن كرم العهد من الدين[2] .

(٥) لقرابة الرضاع

١ ـ قدمت حليمةُ السَّعْدية على النبي بعد زواجه من السيدة خديجة فاستعانت به على أعباء الدهر ، فكلم السيدة خديجة ، فمنحتها بعيرا وأربعين شاة .

---

(١) فتح الباري ٢٨٥/٩ والاستيعاب ٧٤١/٢ واسد الغابة ٤٣٨/٥
(٢) الشفا ٩٦/١ والاحياء ١٦٥/٢

ثم وفدت عليه بعد غزوة حُنَيْن ، فلما رآها ، قال : مرحباً بأمى ، وبسط لها رداءه ، وأجلسها عليه ، ثم قال : اشفعى تُشَفَّعِى وسلى تُعْطَىْ . فقالت : قَوْمى ، فقال : أما حقى وحق بنى هاشم فهو لك .

فقام الناس من كل ناحية وقالوا : وحَقُّنَا يا رسول الله .

ثم وصلها بعدُ ، وأخدمها ، ووهب لها سهامه بحُنَيْن ، فاشْتُرِيَتْ بَعْدُ من عثمان بن عفان بمائة ألف درهم .

٢ ـ وكانت له مرضعة أخرى اسمها ثُوَيْبة كانت أرضعته أياماً قبل أن يصير إلى حليمة ، فلما كبر وعلم ذلك حفظ لها جميلها ، فحمل السيدة خديجة على أن تعتقها من أبي لهب ، فرفض ، فجعل النبي يواليها بمعروفه مدة إقامته بمكة ، ولما هاجر إلى المدينة لم يغفل عن صلتها وكسوتها ، ثم ماتت فسأل عمن بقى من قرابتها ، فقيل لا أحد .

٣ ـ ولما جىء بأُختِه من الرضاع ـ الشَّيْماء ـ في سبايا هَوازِن ، وتعرفت له ، بسط لها رداءه ، وقال : إن أحببتِ أقمت عندى مكرمة مُحَبَّبة ، أو متعتك ورجعت إلى قومك ، فاختارت قومها ، فَمَتَّعهَا .

٤ ـ وأقبل عليه أبوه من الرضاع ، فوضع له بعض ثوبه ، فقعد عليه [1] .

٥ ـ ولم يقتصر على هذا الوفاء للإحياء من قرابة الرضاع ، بل مده إلى الموتى ، فإنه لما توفى عثمان بن مَظْعُون أخوه من الرضاع ـ مهاجر أسلم قديماً وهاجر إلى الحبشة ثم إلى المدينة ـ أمر النبي بأن يرش قبره

---

(١) الشفا ٩٦/١ والاحياء ١٦٥/٢ ، ١٧٥

بالماء ، ووَضَع حجرا على القبر ، وقال : أَتعلَّمُ به قبر أَخى ، وأَدْفِنُ إليه من مات من أَهلى[1] .

(٦) بالموعد

كان يعد فلا يخلف موعده ، ويظن الناس مثله حِراصاً على الوفاء بمواعيدهم .

قال عبد الله بن أَبي الحَمْساءِ العامرى . : بعت للنبى صلى الله عليه وسلم قبل أَن يبعث ، وبقِيَتْ من المبيع بقية لم يتسلمها ، فوعدته أَن آتيه بها فى مكان البيع ، فنسيتُ الوعد ، فذكرته بعد ثلاث[2] ، فجئته ، فإذا هو فى مكانه لم يفارقه ، فقال لى : يا فَتَى ، لقد شَققْتَ علىَّ ، أَنا ها هنا منذ ثلاث أَنتظرك[3] .

(٧) للوطن

أَحب مكة أَعظم الحب ، لأَنها مكان البيت الحرام ، ولأَنها مدرج طفولته ، وملعب صباه ، ومشرق رسالته ، ومُقام أَحبابه ، لكن المشركين اضطروه إلى الهجرة منها ، فجعل ينظر إليها وهو يفارقها نظرة المَشُوقِ الوفىِّ الذاكر ، فلما كادت تغيب عن بصره ودَّعها بقوله : والله إنك لأَحب البلاد إلى نفسى ، ولولا أَن أَهلك أَخرجونى ما خرجت .

(٨) لصاحب الجميل

كان يحفظ لصاحب الجميل جميله ، ويكافئه عليه بمثله .

قال محمد بن مَسْلَمة : كنا يوماً عند رسول الله صلى الله عليه وسلم

---

(١) نور اليقين ١٣٨
(٢) يبدو أنها ثلاث ساعات تقريبا ، لان بقاء النبى فى مكانه ينتظر ثلاث ليال غير مقبول
(٣) شرح الزرقانى ٢٧٦/٤ .

فقال لحسان بن ثابت : يا حسان أنشدنا من شعر الجاهلية ما عفا الله لنا فيه .

فأنشده قصيدةً للأعشى هجا بها علقمة بن عُلاثة ، مطلعها :

علقمةُ ما أنت من عامر   الناقص الأوتار والواتر

فقال النبي : يا حسان لا تنشدنى مثل هذا بعد اليوم .

قال حسان : يا رسول الله ، تنهانى عن رجل مشرك مقيم عند قيصر ؟

فقال النبي : يا حسان ، أشكر الناس للناس أشكرهم لله ، وإن قيصر سأل أبا سفيان بن حرب عنى ، فتناول منى ، وسأل هذا فأحسن القول ، فشكره رسول الله على ذلك[1] .

(٩) للحيوان

لقد تقدم فى شجاعة الرسول أنه ارتبط بسلاحه ارتباطاً عاطفياً : فأحبه وأعزه ، حتى لقد أطلق على كل من عُدده الحربية اسماً ، كما تطلق الأسماء على الأحياء .

وها هو ذا يأمر بالوفاء للحيوان لقاء ما عمل وخدم ، فقد أقبلت ليلى امرأة أبى ذَرٍّ على ناقة من إبل رسول الله بعد غزوة ذى قَرَدٍ ، فقالت : يا رسول الله إنى قد نذرت لله أن أنحرها إن نجانى الله عليها ، فآكل من كبدها وسنامها .

فتبسم رسول الله ثم قال : بئس ما جَزَيْتِها أَنْ حَمَلَك الله عليها ، ونَجَّاك بها ، ثم تنحرينها ، إنه لا نَذْرَ فى معصية الله ، ولا فيما لا تملكين ، إنما هى ناقة من إبلى ، فارجعى إلى أهلك على بركة الله[2] .

(١) كنز العمال ١٥٢/٢

(٢) سيرة ابن هشام ٢٩٧/٣ وكتاب المغازى ٥٤٨

حضه على الوفاء

قال عليه الصلاة والسلام :

١ ـ أربع من كن فيه كان منافقاً خالصاً ، ومن كانت فيه خَصْلة منهن كانت فيه خصلة من النفاق حتى يدعها : إذا أؤتمن خان ، وإذا حَدَّث كذب ، وإذا عاهد غَدَر ، وإذا خاصم فَجر [١] .

٢ ـ رحم الله رجلا سمحاً إذا باع وإذا اشترى ، وإذا قضى وإذا اقتضى [٢] .

٣ ـ اسمَحْ يسْمَح الله لك [٣] .

٤ ـ من البر أن تصل صديق أبيك [٤] .

٥ ـ من أحب أن يصل أباه في قبره فليصل إخوان أبيه من بعده [٥] .

٦ ـ عِدة المؤمن دَيْن ، وعدة المؤمن كالأخذ باليد [٦] .

٧ ـ العِدة دين ، ويل لمن وعد ثم أخلف ، ويل لمن وعد ثم أخلف ، ويل لمن وعد ثم أخلف [٧] .

---

(١) فتح المبدى ٦٥/١

(٢) فتح المبدى ١٨٦/٢

(٣) الاحياء ٧٤/٢

(٤) الجامع الصغير ٣٢٢/٢

(٥) الجامع الصغير ٣٤١/٢

(٦ ، ٧) كنز العمال ٧١/٢

الفصل الثامن عشر

الشـــورى

من خصائص الإسلام أنه استن الشورى لتبيين الآراء ، وتمحيصها ، والاهتداء إلى خيرها ، وكفل لكل فرد حرية الرأى ما لم تعارض أصلا من أصول العقيدة أو العبادة .

لهذا أمر القرآن الكريم بالشورى ، وقرنها بالإيمان والاعتماد على الله ، وبالبعد عن الآثام ، وبإقامة الصلاة ، وبالإنفاق فى سبيل الله وفى الجهاد لإعزاز الحق وإعلاء كلمة الله ، قال تعالى : « فَمَا أُوتِيتُمْ مِنْ شىءٍ فمتاعُ الحياةِ الدنْيا ومَا عِنْدَ اللهِ خيرٌ وأَبْقَى للذينَ ءامنُوا ، وعلى ربِّهِمْ يتوكَّلُونَ ، والذِينَ يجْتَنِبُونَ كبائر الإثْمِ والفواحِشَ ، وإذَا ما غضِبُوا هم يغْفِرونَ ، والذِينَ استجابُوا لربِّهِمْ ، وأَقامُوا الصلاة ، وأَمرُهُمْ شُورى بينهم ، ومِمَّا رَزَقْنَاهم يُنْفِقُونَ ، والذِينَ إذا أَصَابهم البغْىُ هم ينْتَصِرون[1] » .

وأمر الله سبحانه رسوله الكريم أن يستشير المسلمين ، بعد أن وصفه باللين والرحمة والتواضع وطيب العشرة ، وهى نعم خلقية أنعم الله بها عليه ، وبعد أن نفى عنه الغلظة والقسوة والاستبداد والغطرسة . وهى رذائل برأه الله منها ، ولو أنه كان على شىء منها لنفر منه المسلمون ، وانفضوا من حوله ، فالأمر بالاستشارة فى هذا السياق يدل على أنها موصولة بمكارم الأخلاق ، قال تعالى : « فبِمَا رحمةٍ من الله لِنْتَ لهم ،

(١) سورة الشورى ٣٦-٣٩

ولو كنتَ فَظًّا غليظ القلب لانفَضُّوا من حَوْلِكَ ، فاعفُ عنهم ، واستَغْفِرْ لهم ، وشاوِرْهم في الأَمْرِ فإذا عَزَمْتَ فتوَكَّلْ على الله[1] » .

ولقد صدع الرسول بأمر ربه ، فكان يستشير صحابته ، وكانوا هم يستشيرون بعد أن اختاره الله ، ولم يكن لهم من أرب إلا تحرى الخير والصواب وصالح الأُمة ، حتى إن عمر بن الخطاب احتجز بعض الصحابة فى المدينة ، فمنعهم أن يتركوها إلى مكان آخر ، لأنه محتاج إلى استشارتهم .

وكان المسلمون فى عهد النبى والخلفاء الراشدين مطمئنين إلى حرية آرائهم ، يستشارون ويشيرون بما يعتقدون أنه الحق ، ولا يحجمون عن إعلان آرائهم وإن خالفت رأى النبى أو أحد خلفائه .

مظاهرها

كان عليه الصلاة والسلام يستشير أصحابه فيما لم ينزل به وحى ، وكان كثيرا ما يعمل بمشورتهم ، ويعدل عن رأيه ، ولهذا قالت السيدة عائشة : ما رأيت رجلا أكثر مشاورة للرجال من رسول الله[2] .

١ - قبيل موقعة بدر نزل رسول الله عند أدنى ماء من بدر ، فقال الحُبَاب بن المُنْذِر : يا رسول الله ، أهذا منزل أنزلكَهُ الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال : يا رسول الله ، فإن هذا ليس بمنزل ، فانهض بالناس ، حتى نأتى أدنى ماء من القوم فننزله ثم نُغَوِّر ما وراءه من

(١) سورة آل عمران ١٥٩

(٢) السيرة الحلبية ٣٧٧/٢

من الآبار ، ثم نبنى عليه حوضاً فنملؤه ماء ، ثم نقاتل القوم ، فنشرب ولا يشربون .

فقال رسول الله : لقد أشرتَ بالرأى . ونهض رسول الله ومن معه ، فسار حتى إذا أتى أدنى ماء من القوم نزل عليه ، ثم أمر بالآبار فغُوِّرتْ ، وبنى حوضاً على البئر التى نزل عليها ، فمُلِئ ماءً[1] .

٢ – فى يوم بدر أسر المسلمون سبعين رجلا ، فقال رسول الله : ما تقولون فى هؤلاء الأسرى ؟

فقال أبو بكر : يا رسول الله ، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ، وهم قومك وأهلك ، أرى أن تأخذ منهم الفِدْيَةَ ، فيكون ما أخذنا منهم قوة ، وعسى الله أن يهديهم ، فيكونوا لنا عضُدا .

فقال رسول الله : ما ترى يا بن الخطاب ؟

فقال عمر : يا رسول الله ، كَذَّبُوكَ وأخرجوك ، وهم صناديد الكفار وقادتهم ، فأرى أن تَضْرِبَ أعناقهم . وقال عبد الله بن رواحة : يا رسول الله انظر وادياً كثير الحطب ، فأدخلهم فيه ، ثم أضْرِمْهُ عليهم نارا .

فسكت رسول الله ، ولم يجبهم ، ثم دخل ، فقال ناس : يأخذ بقول أبى بكر ، وقال ناس : يأخذ بقول عمر ، وقال ناس : يأخذ بقول عبد الله بن رواحة .

ثم خرج فقال إن الله عز وجل لَيُلِينُ قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللِّين ، وإن الله لَيُشَدِّدُ قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة ، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال : « فَمَنْ تَبِعَنى فإنه

---

(١) سيرة ابن هشام ٢٧٢/٢ وتاريخ الطبرى ١٧٧/٢

منى ، ومَنْ عصانى فإنك غفورٌ رحيم[1] » ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال : « إنْ تعذبْهُمْ فإنهم عبادُك ، وإن تغفرْ لهم فإنك أنت العزيز الحكيم[2] » ومثلك يا عمر مثل نوح ، قال : « ربِّ لا تَذَرْ على الأَرضِ مِنَ الكافِرين ديَّارا[3] » ومثلك يا بن رواحة كمثل موسى قال : « ربَّنا اطْمِسْ على أموالهمْ ، واشْدُدْ على قلوبهم فلا يُؤْمِنُوا حتى يروُا العذابَ الأَليم[4] » .

ثم قال رسول الله : أنتم اليوم عالةٌ ، فلا يُفْلِتَنَّ أَحدٌ منهم إلا بفداء أو ضرب عنق .

فلما كان الغد أنزل الله عز وجل : « ما كان لنبيٍّ أَن يكون له أَسْرى حتى يُثْخِنَ فى الأَرضِ ، تُريدُونَ عَرَضَ الدنيا ، والله يريد الآخرة ، واللهُ عزيزٌ حكيم . لولا كتابٌ من الله سَبَقَ لمسَّكم فيما أَخذتم عذابٌ عظيم[5] » ثم أحلت لهم الغنائم[6] .

٣ ـ لما علم أَن قريشاً متجهة إلى المدينة فى غزوة أُحد ، قال لأَصحابه : امكثوا ، فإن دخل القوم المدينة قاتلناهم ، ورميناهم من فوق البيوت ؛ لأَنه كان يكره الخروج إلى المشركين لقتالهم فى البَراح وهم كثرة والمسلمون قِلَّة ، ويؤْثر محاربتهم بالمدينة نفسها حيث تستطيع القلة أَن تُبْلِىَ البلاءَ المنشود ، وكان عبد الله بن أُبَيٍّ بن سَلُول يؤْثر هذه الخطة.

ولكن هذا لم يرُقْ المسلمين الذين أَسِفُوا على ما فاتهم من جهاد فى بدر ، وفيهم رجال وشبان يحبون لقاءَ العدو ، ويشتاقون إلى

(١) سورة ابراهيم ٣٦
(٢) سورة المائدة ١١٨
(٣) سورة نوح ٢٦ ديار : أحد
(٤) سورة يونس ٨٨
(٥) سورة الانفال ٦٧ـ٦٨
(٦) تاريخ الطبرى ٢/٢٩٤

الاستشهاد ، فقالوا : يا رسول الله ، إننا كنا نتمنّى هذا اليوم ، اخرج بنا إلى أعدائنا حتى لا يظنوا بنا جبناً أو ضعفاً .

فقال عبد الله بن أُبيّ : يا رسول الله أَقِمْ بالمدينة ، لا تخرج إليهم ، فو الله ما خرجنا منها إلى عدو لنا قط إلا أصابوا منا ، ولا دخلوها علينا إلا أصبنا منهم ، فدعهم يا رسول الله ، فإن أقاموا أقاموا بشرّ مقام ، وإن دخلوا قاتلهم الرجال فى وجوههم ، ورمتهم النساءُ والصبيان بالحجارة من فوقهم ، وإن رجعوا رجعوا خائبين .

فقال أُولئك القوم – وفيهم حمزة وسعد بن عُبادة والنعمان بنْ مالك وطائفةٌ من الأنصار – إننا نخشى يا رسول الله أن يظن أعداؤنا أنا كرهنا الخروج إليهم فَرَقًا منهم فيجترئوا علينا .

حينئذ استجاب رسول الله لرأى الأكثرين ، وعدل عن رأيه ، وخرج لمُلاقاة قريش(1) .

٤ – فى غزوة الأحزاب اجتمعت قريش ومَنْ والاها من العرب واليهود ، وعسكروا حول المدينة بضعاً وعشرين ليلة ، ونقض بنو قُرَيْظة عهدهم مع رسول الله ، فعظم البلاءُ ، واشتد الخوف ، وأتاهم العدو من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن بعض المسلمين كل ظن ، ونجم النفاق من بعض المنافقين ، فأراد رسول الله أن يصالح قائدىْ غَطَفان عُيَيْنة بن حِصْن والحارث بن عوْف المُرِّى ، على أن يرجعا عن المدينة ولهما ثلث ثمار المدينة ، فبعث إلى سعد بن مُعَاذ وسعد بن عبادة فاستشارهما فيما أراد ، فقالا : يا رسول الله أهذا أمرٌ تحبه فنصنعه ، أم شيءٌ أمرك الله به لابد لنا من أن نعلمه ، أم شيءٌ تصنعه لنا ؟

(1) شرح الزرقانى ٢/٢٢

قال رسول الله : بل أصنعه لكم ، إنى رأيت العرب قد رمتكم عن قوس واحدة ، وكالبُوكُمْ من كل جانب ، فأردت أن أكْسِرَ عنكم شوكتهم .

فقال سعد بنُ مَعاذ : يا رسول الله قد كنا نحن وهؤلاء القوم على شِرْكٍ بالله عز وجل ، وعبادة الأوثان ، ولا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منا تَمْرَةً إلا بيعاً أو قِرًى ، أفحينَ أكرمنا الله بالإسلام ، وهدانا له ، وأعزنا بك نعطيهم أموالنا ؟ ما لنا بهذا من حاجة ، والله لا نعطيهم إلا السيف ، حتى يحكم الله بيننا وبينهم .

فقال رسول الله : فأنت وذاك[1] .

ثم شاء الله أن يرتد المغيرون مذعورين مختلفين ، وأن تسلم المدينة .

حضه على الشورى

لم يكتف الرسول بتقدير الشورى وتدريب المسلمين عليها بأعماله ، بل أضاف إلى هذا كثيرا من تحبيبها إليهم ، وحثهم عليها بأقواله ، مثل قوله :

١ ــ اسْتَرْشِدُوا العاقل ترشدوا ، ولا تعصوه فتندموا[٢] .

٢ ــ المستشار مؤتمن إذا استشير فليشرْ بما هو صانع لنفسه[٣] .

٣ ــ من أراد أمرا فشاور فيه امرأ مسلماً وفقه الله لأرشد أموره[٤] .

٤ ــ من أشار على أخيه بشيء يعلم أن الرشد فى غيره فقد خانه[٥] .

٥ ــ لن يهلك امرؤٌ بعدمشورة[٦] .

---

(١) تاريخ الطبرى ٤٨/٣
(٢) الى (٥) كنز العمال ٨٤/٢
(٦) البيان والتبيين ٢٠/٢

الفصل التاسع عشر

طيب العشرة

النبي صبور وحليم ، ورحيم وعفوٌّ وكريم ، وصادق وعفيف وأمين ، وزاهد ومتواضع والمثل الأعلى فى كل خلق عظيم .

فهل طيب العشرة إلا من ثمرات هذه الدوحة ؟ هل حلاوة المخالطة والصحبة إلا جوهرة من هذا المنْجم الكريم ؟

لقد أحب المسلمون النبي حباً سما على حبهم لأنفسهم وأبنائهم وأموالهم ، لأنه رسول الهداية ، وصاحب الشريعة ، ولأنه كان يمتلك قلوبهم بطيب عشرته ، ودماثة صحبته ، وحلاوة رُفْقته ، وظرف معاملته ، فيشعرون أنه على رفعة قدره وعلاء مكانته واحد منهم ، لكنهم يأْوون إلى ظل منه لا نظير له فى سواه .

وقد امتد هذا الظل الوريف فاتسع للأحرار والأرقاء ، وللرجال والنساء ، وللأقارب والبعداء ، وللكبار والأطفال ، وفى المجتمعات والخلوات.

مظاهرها

(١) مع زوجاته

١ ـ كان يسابق السيدة عائشة فِي العَدْو ، فسبقته يوماً ، وسبقها يوماً ، فقال لها : هذه بتلك[١] .

---

(١) الاحياء ٢/٤٠ ، ٣/١١٢

٢ ـ قالت السيدة عائشة : سمعت أصوات أُناس من الحبشة وغيرهم ، وهم يلعبون فى يوم عاشوراء ، فقال رسول الله : أتحبين أن تَرَىْ لعبهم ؟ فقلت : نعم . فأَرسل إليهم فجاءُوا إلى المسجد ، وقام رسول الله بين البابين ، فوضع كفه على الباب ، ومد يده ، ووضعتُ ذقنى على يده ، وجعلوا يلعبون وأنظر ، ثم قال : يا عائشة حسْبُك ؟ فقلت : نعم ، فأَشار إليهم فانصرفوا .

وذكرتْ أن النبى كان يسترها بردائه وهى تنظر إلى ألعاب الحبشة بحرابهم فى المسجد ، فلما زجرهم عمر قال النبىّ : دعهم ، أَمْنًا بَنِى أَرْفَدَةَ (١) .

٣ ـ روى البخارى ومسلم أن أبا بكر دخل على عائشة وعندها جاريتان تُدفِّفان وتضربان (٢) ، والنبى مُتَغَشٍّ بثوبه ، فانتهرهما أبو بكر ، فكشف النبى عن وجهه ، وقال : دعهما يا أبا بكر ، فإنها أيام عيد .

٤ ـ كانت أزواجه يراجعنه الكلام ، وتهجره الواحدة منهن يوماً إلى الليل ، وكان يقول للسيدة عائشة : إنى لأَعرف غضبك من رضاك ، قالت : وكيف تعرفه ؟ قال : إذا رضِيتِ قلت : لا وإلهِ محمد ، وإذا غضبتِ قلتِ : لا وإله إبراهيم ، قالت : صدقت ، إنما أهجر اسمك (٣) .

٥ ـ كان يَعْدِلُ بين زوجاته فى العطاء والبيت ، ويقول : اللهم هذا جهدى فيما أملك ، ولا طاقة لى فيما تملك ولا أملك ، يعنى الحب (٤) .

---

(١) فتح المبدى ٢٠٧/١ ، ٣٠٦ والاحياء ٤٠/٢ ارفدة : جد الحبشة الاكبر
(٢) تدففان : تضربان على الدف
(٣) الاحياء ٤٠/٢
(٤) الاحياء ٤٥/٢

٦ – كثيرا ما أوصى بالنساء خيرا، وبيّن أنه لا غضاضة ولا ضَيْر فى أن يداعب الرجل زوجته، فقال: اللهو فى ثلاث: تأديب فرسك، ورميك عن قوسك، وملاعبتك أهلك [١]، ونهى عن ضربهن، فقيل له: يا رسول الله إنهن قد فسدن، فقال: اضربوهن، ولا يضرب إلا شِراركم [٢].

لقد كان عليه الصلاة والسلام أنبل زوج معاملة، وأطيب زوج عشرة، وحسبنا قوله: خيركم خيركم لأهله، وأنا خيركم لأهلى [٣].

(٢) مع صحابته

لم تسعد أزواج النبي وحدهن بإيناسه وظرفه وطيب عشرته، بل سعد بها صحابته أيضاً أيما سعادة:

١ – ما أَسَرَّ أحد إلى النبي خبرا، فَنَحَّى النبي رأسه، حتى يكون الرجل هو الذى يُنَحِّى رأسه.

وما أخذ أحد بيده حتى يرسلها الآخر.

وإذا استقبَل الرجلَ فصافحه لا ينْزِعُ يده من يده حتى يكون الرجل هو الذى يَنْزِع.

وإذا لقى الرجل يكلمه لم يصرف وجهه حتى يكون الرجل هو المنصرف.

وكان لا يقطع على أحد حديثه، حتى يتجوز فيقطعه بَنْهيٍ أو قيام.

---

(١) كنز العمال ٣٣١/٧، عيون الأخبار ٨١/٤

(٢) الطبقات الكبرى ١٤٧/٨

(٣) كنز العمال ٢٥٨/٨.

وكان يبدأ من لقيه بالسلام .

وإذا لقى أحدا من أصحابه بدأ بالمصافحة ، ثم أخذ بيده فشابكه ، ثم شد فقبض عليها [1] .

٢ - كان يكنى أصحابه بكناهم إكراماً لهم ، وإدخالا للسرور على نفوسهم ، ويكنى من لم تكن له كنية فتصير كنية له ، فقد كنى عبد الله بن مسعود بأبي عبد الرحمن مع أنه لا ولد له ، وكنى أنس بن مالك ببَقْلَة ، وكنى صُهَيْب بن مالك بأبي يحيي ، وكنى أبا بكرة بهذه الكنية لأنه تدلى من الطائف ببكرة .

وكان يكنى النساء اللاتى لهن أولاد ، ويبتدىء الكُنى للاتى لم يلدن ، مثل تكنيته للسيدة عائشة بأم عبد الله[2] ، وتكنيته أم خالد وكانت صغيرة .

وكان يكنى الصبيان ، كقوله لأخى أنس بن مالك يا أبا عُمَيْر [3].

٣ - وكان يعطى من جلس إليه نصيبه من وجهه ، فلا يحسب جليسه أن أحدا أكرم عليه منه .

٤ - وإذا قدم عليه أحد وهو يصلى خفف صلاته ، وأقبل عليه فقال : ألك حاجة ؟ فإذا فرغ من حاجته عاد إلى صلاته [4] .

٥ - وكان يكرم من يدخل عليه ، وربما بسط له ثوبه ، وآثره بالوسادة التى تحته ، ليجلس عليها ، فإن أبى أن يقبلها عزم عليه حتى يقبل .

---

(١) الاحياء ٢/٣٢٢

(٢) يقصد عبد الله بن الزبير ابن اختها اسماء

(٣) الاحياء ٢/٣٢٣

(٤) الاحياء ٢/٣٢٢

جاء جرير بن عبد الله البجلي إلى مجلس الرسول وهو مكتظ ، فلم يجد مكاناً ، فقعد على الباب ، فلف رسول الله رداءه ، فألقاه إليه ، وقال له : اجلس على هذا .

فأخذه جرير ووضعه على وجهه وجعل يقبله ويبكي ، ثم رده إلى النبي وقال : ما كنت لأجلس على ثوبك ، أكرمك الله كما أكرمتني .

فنظر النبي يميناً وشمالا وقال : إذا أتاكم كريم قوم فأكرموه[1] .

٦ - كان يجلس مع أصحابه فلا يمدُّ رجليه .

٧ - وكان يوجه نصحه لهم فى رفق ، ولا يشافه أحدا بما يكره ، دخل عليه رجل تبدو صفرة الزعفران على جسمه ، فكرهها النبي ، ولكنه لم يقل شيئاً ، فلما خرج الرجل قال النبي لبعض جلسائه : او قلتم له يَدَعُ هذه الصفرة.[2]

٨ - بال أعرابي فى المسجد والنبي حاضر ، فسارع بعض الصحابة إلى منعه ، فقال النبي : لا تَزْرِمُوه[3] ، وهَرِيقُوا على بوله سَجْلًا من ماء ، فإنما بعثتم مُيَسِّرين لا مُعسِّرين . ثم قال : إن هذه المساجد لا تصلح لشيء من القَذَر والبول والخَلاء[4] .

٩ - أُتِيَ بقدح فشرب منه ، وعن يمينه غلام والأشياخ عن يساره ، فقال : يا غلام ، أتأذن لى أن أعطيه الأشياخ ؟ قال الغلام : ما كنت لأُوثر أحدا بفضلي سواك يا رسول الله ، فأعطاه القدح .

---

(١) الاحياء ١٧٥/٢

(٢) المواهب اللدنية ٢٠٢

(٣) لاتزرموه : لاتقطعوا بوله

(٤) فتح المبدى ١٤٨/١ والاحياء ٣٣٦/٢

١٠ ـ قال رجل من الأنصار لغلام له قَصَّاب : اجعل لى طعاماً يكفى خمسة ، فإنى أُريد أن أدعو النبي خامس خمسة . فدعاهم ، فجاء معهم رجل ، فقال النبي : إن هذا قد تَبعنا ، فإن شئت أن تأْذن له فأذن له ، وإن شئت أن يرجع رجع .

فقال الأنصارى : لا ، بل قد أذنت له (١) .

١١ ـ دخل غَيْضَةً مع بعض أصحابه ، فاجتنى منها سِواكَين ، أحدهما مُعوجٌ والآخر مستقيم ، فدفع المستقيم إلى صاحبه ، فقال له الرجل : يا رسول الله ، كنت أحق بالمستقيم منى .

فقال الرسول : ما من صاحب يَصْحَبُ صاحباً ولو ساعة من نهار إلا سئل عن صحبته هل أقام فيها حق الله أم أضاعه (٢) .

١٢ ـ كان يقول لأصحابه : لا يُبلِّغنى أحد منكم عن أحد من أصحابى شيئاً ، فإنى أُحب أن أخرج إليكم وأنا سليم الصدر(٣) .

١٣ ـ كان إذا فقد الرجل من إخوانه ثلاثة أيام سأل عنه ، فإن كان غائباً دعا له ، وإن كان شاهدا زاره ، وإن كان مريضاً عاده (٤) .

(٣) مع الخدم والأرقاء

لم يكن النبي ليختص بطيب عشرته أزواجه وصحابته ، أو ليقصرها على الأحرار من رجال ونساء ، لأن النبع العذب الذى يسقى هؤلاء هو الذى يسقى هؤلاء ، فلا طبقية ولا محاباة ولا مجاملة لأحساب.

(١) اللؤلؤ والمرجان ٣/٢٤
(٢) الاحياء ٢/١٥٤
(٣) الاحياء ٢/٢٣٦
(٤) تيسير الوصول ٤/٣٠

١ ـ فقد كان زيد بن حارثة مولى للنبي قبل البعثة ، ثم ظهر أبوه بعد طول غياب ، فأراد أن يسترده من النبي ، فرفض زيد أن يعود مع أبيه ، وآثر أن يبقى مملوكا لرسول الله ، على أن يصير حرا ، يُعْلى مكانته ، ويرضى أباه .

وإن هذا الإيثار ليدل على أنه كان أسير العشرة الأبوية ، والعطف الكريم ، والحدب الرحيم ، وإلا لفرح زيد فرحتين : إحداهما العودة مع أبيه ، والأخرى خلاصه من الاسترقاق .

ولم يكن زيد يتوقع ما فاجأه به النبي ، فإنه كافأ هذا الإيثار بما يستحقه ، فأعتق مولاه .

ثم زاده تكريماً فزوجه من زينب بنت جحش ، وهى بنت عمة رسول الله ، ومن عقائل قريش أصحاب النُّعْرة وذوى السيادة والجاه.

ثم بعثه قائدا للجيش الذى وجهه إلى مُؤْتَة ، وقال : إن أُصيب زيد فجعفر بن أبى طالب على الناس ، وإن أُصيب جعفر فعبد الله ابن رَوَاحة على الناس .

وكان فى الجيش خالد بن الوليد ، خرج متطوعاً ليدل ببلائه على حسن إسلامه .

فانظر إلى جيش فيه خالد وجعفر وابن رَوَاحة يرأسه عَتِيقٌ .

فلما قتل زيد فى الغزوة ، أعد النبى جيشاً آخر ليتجه إلى الشام وولى عليه أسامة بن زيد وهو فى نحو العشرين ، وكان فى الجيش سيدان من سادة المسلمين هما أبو بكر وعمر .

٢ ـ وقد سنّ أروع أدب فى معاملة الأرقاء فى عهد الطبقية والاعتزاز

بالأنساب ، فقال : لا يقولنَّ أحدكم عبدى ولا أمتى ، كلكم عبيد الله ، وكل نسائكم إماءُ الله ، وليقل غلامى وجاريتى وفتاى وفتاتى .

وفى الوصية نفسها أشعر الأرقاء بأنهم عبيد الله ، لا عبيد الناس ، فقال : ولا يقول المملوك ربِّى ولا رَبَّتى ، وليقل سيدى وسيدتى ، فكلكم عبيد الله ، والربُّ الله سبحانه وتعالى (١) .

٣ ـ وكثيرا ما أوصى بالأرقاء ، كقوله فى خطبة الوداع أطعموهم مما تأكلون ، واكسوهم مما تلبسون ، فإن الله قد مَلَّككم إياهم ، ولو شاء لملَّكهم إياكم .

٤ ـ أرسل وصيفة فى أداء عمل ، فأبطأت عليه ، فقال لها : لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك .

٥ ـ قال أنس بن مالك إن النبى أرسلنى فى حاجة ، فتشاغلت بصبيان يلعبون فى السوق ، وإذا رسول الله قد قبض ثيابى من ورائى ، فنظرت إليه وهو يضحك ، فقال : يا أُنَيْس اذهب حيث أمرتك .

٦ ـ قال أنس بن مالك : خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين ، فما قال لى أُفٍّ قط ، ولا قال لشىء صنعتُه : لم صنعتَه ؟ ولا لشىء تركتُه : لم تركتَهُ ؟ ولا أمرنى بأمر فتوانيت فيه فعاتبنى عليه ، فإن عاتبنى أحد من أهله قال دعوه ، فلو قُدِّرَ شىءٌ كان (٢) .

٧ ـ كان عُقْبةُ بن عامر الجُهَنىُّ صاحب بغلة رسول الله يقودها به فى الأسفار ، وقد روى أن الرسول كان ينزل عن دابته ويُرْكبه إياها .

٨ ـ وقد سبقت فى رحمته ألوان من طيب عشرته .

---

(١) الاحياء ١٤١/٢

(٢) الاحياء وهامشه ٣٢١/٢

(٤) في شئون شتى

استنَّ فى شئون شتى من آداب العشرة ما يتفق وأعلى مكارم الأخلاق .

١ ــ كان إذا جلس إلى طعام يأكل مما يليه[١] .

وإذا أكل الخبز واللحم غسل يديه غسلا جيدا .

ولا يتنفس فى الإناء ، بل ينحرف عنه ، ونهى من يشرب أن يتنفس فى الإناء . فإذا أراد أن يتنفس فليؤخر الإناء عنه ثم يتنفس[٢] .

ولم يأكل الثوم والبصل والكُرَّاث ، لأنه يناجي جبريل .

وما ذم طعاماً قط ، فإذا أعجبه أكله ، وإن لم يعجبه تركه ، ولكنه لا يُبَغِّضُهُ إلى غيره . فقد كان يعاف الضَبَّ والطِّحال ولا يحَرِّمُها ، وعلل امتناعه عن أكل الضب بأنه ليس من أرض قومه ولا من طعامهم[٣] .

٢ ــ وإذا عطس غض صوته ، واستتر بثوبه أو بيده ، أو غطى وجهه وفمه[٤] .

٣ ــ وإذا كره من إنسان شيئاً قال : ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا ؟

٤ ــ قال عِمْران بن حُصَيْن : كانت لى من رسول الله منزلة وجاه ، فقال لى : يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاهاً ، فهل لك فى عيادة فاطمة بنت رسول الله ؟ قلت : نعم بأبى أنت وأمى يا رسول الله ، فقام فقمت معه حتى وقف بباب فاطمة ، فقرع الباب ، وقال : السلام

---

(١) الاحياء ٢/٣٢٧
(٢) الاحياء ٢/٣٣٠
(٣) الاحياء ٢/٣٢٩
(٤) السيرة الحلبية ٣/٣٧٧ والاحياء ٢/١٨٣

عليكم ، أأدخل ؟ فقالت : ادخل يا رسول الله . قال : أنا ومن معى ؟ قالت : ومن معك يا رسول الله (١) .

٥ – ولم يكتف بالأدب الرفيع يأخذ به نفسه ، بل أوصى الآخرين ، وأرشدهم إلى المجاملة اللطيفة ، فقد ورد عن ابن عمر أن رسول الله قال : إذا وضعت المائدة فلا يقوم رجل حتى ترفع المائدة ، ولا يَرْفَعُ يده وإن شبع حتى يَفْرَغَ القوم ، وليتَعَلَّلْ فإن الرجل يُخْجِلُ جليسه فيقبض يده ، وعسى أن تكون له فى الطعام حاجة (٢)

حضه على طيب العشرة

كثيرا ما حض النبى على طيب المعاشرة وحسن المخالطة ، كقوله :

١ – كل معروف صدقة ، ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طَلْقٍ ، وأن تُفْرِغَ من دلوك فى إنائه(٣) .

٢ – من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فلا يؤذ جاره . ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيرا أو ليصْمِتْ (٤) .

٣ – ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه (٥) .

٤ – لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه (٦) .

٥ – إن أبغض الرجال إلى الله الألَدُّ الخصم (٧) .

---

(١) الاحياء ١٧١/٤
(٢) هامش الاحياء ٢٧٢/٣
(٣) المنتخب من السنة ٢٩٧/٧ من مسند أحمد وسنن الترمذى .
و (٥) فتح المبدى ٣٠٤/٣
(٦) فتح المبدى ٥٠/١
(٧) فتح المبدى ٢٣٧/٢ وتيسير الوصول ٢٣٣/١

٦ – إنما يتجالس المتجالسان بأمانة الله عز وجل : فلا يحل لأحدهما أن يغشي على أخيه ما يكرهه[١].

٧ – لا يحل لمؤمن أن يشير إلى أخيه بنظرة تؤذيه[٢].

٨ – إن أحدكم مرآة أخيه ، فإذا رأى فيه شيئاً فليمطه عنه[٣].

٩ – من جادل فى خصومه بغير علم لم يزل فى سخط الله حتى ينزع[٤].

١٠ – من ترك المراء وهو محق بُنى له بيت فى أعلى الجنة ، ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت فى رَبض الجنة[٥].

وقد جعل ثواب المبطل التارك للمراء أقل من ثواب المحق ، لأن السكوت عن الحق أشد على النفس من السكوت على الباطل وإنما الأجر على قدر الجهد . والمماراة مثيرة للحقد بين الإخوان ، وسبب للتدابر والتقاطع ، لأن الذى يرد على غيره كلامه بهذه الصورة ينسبه إلى الجهل والحمق أو إلى الغفلة .

١١ – الجيران ثلاثة : جار له حق واحد ، وجار له حقان ، وجار له ثلاثة حقوق فالجار الذى له ثلاثة حقوق الجار المسلم ذو الرحم ، فله حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم ، وأما الذى له حقان فالجار المسلم ، له حق الجوار وحق الإسلام ، وأما الذى له حق واحد فالجار المشرك[٦].

١٢ – أحسن مجاورة من جاورك تكن مسلماً[٧].

---

(١) و (٢) الاحياء ٣/٦٠
(٣) الاحياء ٢/١٨٥
(٤) الاحياء ٢/٢٠١
(٥) تيسير الوصول ٢٣٢/١ والاحياء ٣/١٠٠ ربض الجنة مشبه بربض المدينة وهو ماحولها من العمارة
(٦) و (٧) الاحياء ٢/١٨٨

١٣ – قال أبو أمامة الباهلى : خرج علينا رسول الله ونحن نتمارى . فغضب وقال : ذروا المراء لقلة خيره ، ذروا المراء فإن نفعه قليل ، فإنه يَهِيجُ العداوة بين الإخوان (١) .

١٤ – أتدرون ما حقُّ الجار ؟ إن استعان بك أعنته . وإن استنصرك نصرته ، وإن استقرضك أقرضته ، وإن افتقر عدت عليه ، وإن مرض عدته ، وإن مات تبعت جنازته ، وإن أصابه خير هنأته ، وإن أصابته مصيبة عزيته ، ولا تَسْتَعْلِ عليه بالبناء فتحجب عنه الريح إلا بإذنه ؛ ولا تؤذه ، وإن اشتريت فاكهة فأهد له ، فإن لم تفعل فأدخلها سرا ، ولا يخرج بها ولدك ليغيظ بها ولده . ولا تؤذِهِ بِقُتارِ قِدْرك إلا أن تغرف له منها (٢) .

١٥ – إن قوماً ركبوا سفينة فى البحر ، فاقتسموا ، فصار لكل رجل موضع ، فنقر رجل موضعه بفأس . فقالوا : ما تصنع ؟ قال : هو مكانى أصنع ما شئت . فإن أخذوا على يديه نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا (٣) .

١٦ – المرءُ كثير بأخيه (٤) .

١٧ – لا خير فى صحبة من لا يرى لك مثل ما ترى له (٥) .

١٨ – من ذَبَّ عن لحم أخيهِ بظهر الغيب كان حقًّا على الله أن يُحَرِّمَ لحمه على النار (٦) .

(١) كنز العمال ١٢١/٢ والاحياء ١٥٨/٢
(٢) الاحياء ١٩٠/٢ قتار القدر : رائحة طعامها
(٣) البيان والتبيين ٢٥/٢
(٤) البيان والتبيين ١٩/٢
(٥) البيان والتبيين ١٩/٢
(٦) البيان والتبيين ٣٨/٢

١٩ ـ لا يستر عبد عبدا فى الدنيا إلا ستره الله يوم القيامة[١] .

٢٠ ـ أوصى بالنساء خيرا فى حجة الوداع فقال : استوصوا بالنساء ، فإنهن عندكم عَوانٍ لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنما أخذتموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله[٢] .

٢١ ـ شكت إليه امرأة أن زوجها قد ضربها ضرباً شديدا ، فقام فأنكر ذلك ، وقال : يظل أحدكم يضرب امرأته ضرب العبد ، ثم يظل يعانقها ولا يستحى[٣] .

٢٢ ـ أكمل المؤمنين أحسنهم خُلُقاً ، وألطفهم بأهله[٤] .

٢٣ ـ خيركم خيركم لنسائه ، وأنا خيركم لنسائى[٥]

٢٤ ـ ألا أنبئكم بأمر إذا فعلتموه تحاببتم ؟ فقالوا : بلى يا رسول الله قال : أفشوا السلام . وصِلُوا الأرحام[٦] .

٢٥ ـ إن الله يحب السهل الطَّلْق الوجه[٧] .

٢٦ ـ اتقوا النار ولو بشق تمرة ، فمن لم يجد فبكلمة طيبة[٨] .

٢٧ ـ ذبح أهل عبد الله بن عمرو بن العاص شاة ، فقال لهم : أهديتم لجارنا اليهودى ؟ قالوا : لا ، قال : ابعثوا إليه منها ، فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه .

---

(١) كنز العمال ٢/٥٢

(٢) تيسير الوصول ٢/٢٦٥ والمغازى للواقدى ٣٤٤

(٣) كنز العمال ٨/٢٦٠

(٤) و (٥) الاحياء ٢/٤١

(٦) البيان والتبيين ٢/٢٢

(٧) ، (٨) الاحياء ٢/١٧٤ ، ٣/١٠٣

٢٨ ـ من المروءة أن ينصت الأخ لأخيه إذا حدثه ، ومن حسن المماشاة أن يقف الأخ لأخيه إذا انقطع شِسْع نعله (١) .

٢٩ ـ إذا كنتم ثلاثة فلا يتناجى رجلان دون الآخر حتى يختلطوا بالناس ، فإن ذلك يحزنه (٢) .

٣٠ ـ ثلاث تُصْفين لك ود أخيك : تسلم عليه إذا لقيته ، وتوسع له في المجلس ، وتدعوه بأحب أسمائه إليه (٣) .

٣١ ـ لا يحل لمؤمن أن يهجر مؤمناً فوق ثلاث ، فإن مرت ثلاث فليلقه فليسلم عليه ، فإن رد السلام فقد اشتركا في الأجر ، وإن لم يرد عليه فقد باء بالإثم (٤)

٣٢ ـ من الجفاء أن يدخل الرجل منزل أخيه فيقدم إليه شيئاً فلا يأكله . والرجل يصحب الرجل في الطريق فلا يسأله عن اسمه واسم أبيه (٥) .

٣٣ ـ سئل رسول الله : أى النساء خير ؟ قال : التى تسره إذا نظر إليها ، وتطيعه إذا أمر ، ولا تخالفه في نفسها ومالها بما يكره (٦) .

٣٤ ـ إن العبد إذا نصح لسيده وأحسن عبادة ربه كان له أجره مرتين (٧) .

---

(١) الجامع الصغير ٢/٣٣٣
(٢) كنز العمال ٥/٧
(٣) و(٤) كنز العمال ٥/٨
(٥) كنز العمال ٥/٩
(٦) تيسير الوصول ٢/٢٥٤
(٧) كنز العمال ٥/٢١

حُبُّ العمل

الإسلام عقيدة وشريعة وعمل ، والعمل يشمل العبادات والطاعات والنشاط المبذول فى كسب الرزق وفى تنمية الإنتاج والخيرات .

لهذا أمر الله عباده بالسعى فى مناكب الأرض ابتغاء فضله : قال تعالى : «فإذا قضيت الصلاةُ فانتشِروا فى الأَرض ، وابتغُوا من فضل الله ، واذكروا اللهَ كثيرًا لعلكم تُفْلِحُونَ[1]» .

وذلك أن الإسلام لا يريد أتباعه كسالى متواكلين ، ينظرون إلى العمل نظرتهم إلى الشقاء والنقمة . ويغفلون عما فيه من خير وسعادة ونعمة ، بل يربيهم على العمل وتقديره على أنه واجب الإنسان فى الحياة ، وحق للحياة عليه ، فهو يأْخذ من الحياة ومن المجتمع ويرْقى ، فعليه أن يعطى لقاء ما أخذ ، ليسهم فى ترقية الحياة وفى خير المجتمع .

الإسلام يحض على العمل ، لأنه تدريب على الصبر والمثابرة والمهارة والأمانة والطاعة وإعمال الفكر وتقوية الجسم وترقية الأفراد والجماعات وتقوية الأُمة ، ولولا العمل المتقن لتوقف سير الإنسانية إلى مثلها العالية . وما كانت الحضارة التى صَعِدَ البشر درجاتها .

(١) سورة الجمعة ١٠

والإسلام يبغض البطالة والكسل والخمول ، لأنها موت بطيء يقضى على جميع القوى ، ويغرى بكثير من المفاسد والشرور.

فالتاريخ يحدثنا أن الرومان حينما ركنوا إلى الراحة ، وفشا بينهم استخدام الأرقاء فى القيام بأعمالهم صار العمل فى نظرهم حقيرا منافياً الشرف ، وصار الخمول والرفاهية ديدن الطبقات الحاكمة ، فانحدروا إلى الضعف والدمار .

وقد ذهب (برتون) إلى أن الخمول موت زؤام ، وسم زُعاف للجسم والعقل ، وإذا كان الخامل من الكلاب يصاب بالحُصاص [1] فما بالنا بالخامل من الرجال ؟ إن خمول العقل شر من خمول الجسم ، والفطنة بلا عمل مرض عُضال ، وصدأ للروح ، وكما تكثر الديدان والقاذورات فى الغدير الراكد ، تنمو الأفكار السيئة الفاسدة فى المرء الخامل ، فتُدنِّس روحه فيصير قلق البال ، ضعيف الجنان ، ناقماً على العالم ، مهما يكن ثراؤه وحظه ووسائل نعيمه [2] .

مظاهره

لم يكتف الرسول بالإرشاد والنصح ، لأن النصائح فى حاجة إلى قدوة ، بل نصح وكافح ونافح ، وقال وعمل بما قال ، فكان أعظم مثل يُحْتَذَى .

١ - كان فى صغره وفى شبابه يرعى الغنم ، فقد رعاها فى بنى سعد مع أخيه من الرضاعة . ثم رعاها بمكة لأهل مكة على نصيب

(١) الحصاص : الجرب ، والحصص : تساقط الشعر
(٢) الاخلاق ٢/١٤١-١٤٣ صمويل سميلز

معين ، وكان يقضي بها زماناً خارج مكة ، ولهذا قال : ما من نبي إلا وقد رعى الغنم ، فقيل له : وأنت يا رسول الله ؟ قال : وأنا[1] .

٢ ـ ثم مارس التجارة قبل النبوة ، إذ كانت السيدة خديجة بنت خُويْلد تاجرة ذات شرف ومال . تستأجر الرجال فى مالها ، لقاء شيء تجعله لهم ، فلما بلغها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بلغها من صدق حديثه ، وعظم أمانته . وكرم أخلاقه ، بعثت إليه ، فعرضت عليه أن يخرج فى مال لها إلى الشام تاجرا ، وتعطيه أفضل ما كانت تعطى غيره من التجار ، مع غلام لها يقال له مَيْسَرة ، فقبل رسول الله ، وخرج فى مالها ومعه ميسرة حتى قدم الشام[2] ، وكان ذلك قبل البعثة .

٣ ـ حينما تألبت قريش ومن انضم إليها من قبائل العرب واليهود وساروا إلى المدينة ، أمر رسول الله بحفر الخندق . وعمل فيه بنفسه وكان يضرب بالمِعْول وينقل التراب وقد وارى بياض بطنه ، وكان المسلمون يرتجزون وهم يعملون برجل من المسلمين يقال له جُعيْل ، فسماه رسول الله عمْرا ، فقالوا :

سمّاه من بعد جُعيل عَمْـــرا   وكان للبائس يوماً ظهـــرا

فإذا مروا بعمرو قال رسول الله عمرا ، وإذا قالوا ظهرا قال رسول الله ظهرا .

وكان رسول الله يقول :

لاهُمَّ لولا أنت ما اهتدينا

---

(١) سيرة ابن هشام ١٧٦/١ وفتح المبدى ٢٠٠/٢

(٢) سيرة ابن هشام ١٩٩/١

ولا تصدقنا ولا صلينـــا
فأنزلَنْ سكينةً علينـــا
وثَبِّتِ الأَقدام إن لاقَينَـا
إن الأُلى قد بغَوْا علينـــا
إذا أرادوا فتنة أبينا (١)

٤ ـ ولم يأنف من أن يعمل بيده مع عبد ليعينه على التحرر .

جاء فى حديث سلمان الفارسى عن تحرره من رق سيده اليهودى : قال لى رسول الله : كاتب يا سلمان فكاتبت صاحبى على ثلاث مائة نخلة أحييها له بالحفرو الغرس وأربعين أُوقية فقال رسول الله لأَصحابه أعينوا أخاكم فأعانونى بالنخل ، حتى اجتمعت لى ثلاث مئة ودية (٢) . فقال لى رسول الله : اذهب يا سلمان فاحفر لها . فإذا فرغت جئته فأَخبرته فخرج معى إليها ، فجعلنا نقرب إليه الودى ويضعه بيده حتى فرغنا .

فأَديت النخل وبقى على المال ، فأُتى رسول الله بمثل بيضة الدجاجة من الذهب فقال : ما فعل الفارسى المكاتب فدُعِيتُ له ، فقال : خذ هذه فأَدِّها مما عليك يا سلمان فأَخذتها فوزنت لهم منها أَربعين أُوقية ، فأَوفيتهم حقهم منها ، وتحررت فشهدت مع رسول الله الخندق حرا ثم لم يفتنى معه مشهد (٣) .

٥ ـ وقد سبق في تواضعه وفى طيب عشرته أنه كان يَعْلُف البعير ، ويَعْقِلُه ، ويَقُمُّ البيت ، ويحلب الشاة ، ويَخْصِف النعل ، ويُرَقِّع

---

(١) فتح البدى ٣٠٢/٢ وتاريخ الطبرى ٤٤/٣

(٢) الودية : فرخة النخلة الصغيرة

(٣) سيرة ابن هشام ٢٣٤/١

الثوب ، ويساعد خادمه فى طحن الحب ؛ ويحمل الشيء الذى يشتريه من السوق.

٦ ـ أتى رجل من الأنصار يسأل رسول الله فقال له الرسول : أما فى بيتك شيء؟ قال : بلى حِلْس نلبس بعضه ؛ ونبسط بعضه ؛ وقَعْب نشرب فيه الماء.

قال رسول الله : ائتنى بهما ، فأتاه بهما ، فأخذهما بيده وقال : من يشترى هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم . فقال رسول الله : من يزيد على درهم ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهمين ؛ فأعطاهما إياه ، وأخذ الدرهمين فأعطاهما الرجل ، وقال : اشتر بأحدهما طعاماً فانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدوماً فأتنى به ؛ فأتاه به ؛ فشد فيه رسول الله عودا بيده ، ثم قال : اذهب فاحتطب وبع ، ولا أرينّك خمسة عشر يوماً .

ففعل الرجل ، ثم جاء وقد أصاب عشرة دراهم ؛ فاشترى ببعضها ثوباً وببعضها طعاماً ، فقال له الرسول : هذا خير لك من أن تجيء المسألة نُكْتة فى وجهك يوم القيامة ، إن المسألة لا تصلح إلا لذى فقر مُدْقع ، أو لذى غُرْم مُفْظع ، أو لذى دم موجع[1] .

حضه على العمل

قال عليه الصلاة والسلام :

١ ـ ما أكل أحد طعاماً قطُّ خيراً من أن يأكل من عمل يده ؛ وإن نبى الله داود عليه السلام كان يأكل من عمل يده[2] .

---

(١) تيسير الوصول ١٧٨/٣

(٢) فتح المبدى ١٧٥/٢

٢ ـ إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه[١] .

٣ ـ من سألنا أعطيناه ، ومن استغنى أغناه الله ، ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا[٢] .

٤ ـ لأن يأخذ أحدكم حبله فيأتى بحزمة حطب على ظهره فيبيعها ، فيكف الله بها وجهه خير له من أن يسأل الناس أعطوه أو منعوه[٣] .

٥ ـ ما من مسلم يغرس غرسا أو يزرع زرعاً فيأكل منه طير أو إنسان أو بهيمة إلا كان له به صدقة[٤] .

٦ ـ أتى رجلان إلى النبى فسألا من الصدقة ، فقلّب فيهما البصر ، ورآهما جلْدَيْن ، فقال : إن شئتما أعطيتكما ، ولا حظّ فيها لغنىٍّ ولا لقوىٍّ مكتسب .

أراد أننى أعطيكما إن شئتما ، وأكل الأمر إلى ما تعلمانه من حالكما ، فعليكما إثم الأخذ إن أخذتما وأنتما غنيان أو قادران على العمل .

٧ ـ خيركم من لم يدع آخرته لدنياه ولا دنياه لآخرته[٥] .

٨ ـ الساعى على الأرملة والمسكين كالمجاهد فى سبيل الله ، وكالقائم الذى لا يفتر ، وكالصائم الذى لا يُفْطِر .

٩ ـ أُثْنِى على رجل فى مجلس رسول الله فقيل : كنا إذا ركبنا

---

(١) و (٢) الاحياء ١٨٢/٤ ، ١٨٤

(٣) فتح المبدى ٧/٢ ٧

(٤) فتح المبدى ٢١٤/٢ ومسند أحمد وصحيح مسلم

(٥) كنز العمال ١٥٠/٢

لا يزال يذكر الله تعالى حتى ننزل . وإذا نزلنا لا يزال يصلي حتى نرفع . فقال الرسول : فمن كان يكفيه عَلَف بعيره وإصلاح طعامه ؟ قالوا : كلنا ، فقال : كلكم خير منه .

١٠ – إن قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة فإن استطاع ألا تقوم حتى يغرسها فليغرسها [١] .

١١ – خير الكسب كسب يد العامل إذا نصح [٢] .

١٢ – إن أطيب الكسب كسب التجار الذين إذا حدثوا لم يكذبوا ، وإذا اؤتمنوا لم يخونوا ، وإذا وعدوا لم يخلفوا ، وإذا اشتروا لم يذموا ، وإذا باعوا لم يُطْرُوا ، وإذا كان عليهم لم يَمْطُلوا . وإذا كان لهم لم يُعَسِّروا [٣] .

١٣ – إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملا أن يتقنه [٤] .

---

(١) الجامع الصغير ٢٦٠/١ .
الفسيلة : النخلة الصغيرة تقطع من الام أو تقلع من الارض فتغرس

(٢) الجامع الصغير ٣٩٦/١

(٣) الجامع الصغير ٢٢٠/١

(٤) الجامع الصغير ١٨٧/١

الفصل الحادى والعشرون

البشر والفكاهة

هل كان من اللائق بالرسول أن يكون عابس الوجه . مُقَطَّب الجبين ، مكْفَهِرَّ المظهر ؟

إن الضحك نزعة غريزية لها قيمة عظيمة فى حياة الفرد وحياة المجموع ، وكان العرب يحبون الضحك ، ويَهَشُّون للضاحكين ، فسموا أبناءهم بالضحاك وببسام وبطلق وبطليق وببشر وببشير وبجذلان وبفرحان .

وكانوا يمدحون الرجل بأنه ضحوك السن ، بَسَّام العَشِيَّات هَشٌّ إلى الضيوف ، ويذمونه بأنه عبوس وكالح وقَطُوب[1] وإذا كانت جهَامة الوجه قبيحة فهى أقبح من الرائد الذى يدعو الناس إلى دين جديد .

وإذا كان البشر حميدا فهو أحمد من رسول الله الذى نشأ على الأخلاق الكريمة ، ورباه الله أسمى تربية ، وعلمه أحسن تعليم .

كان رسول الله سمح النفس ، طاهر القلب ، عظيم الصبر ، راسخ الحلم ، كثير العفو ، بَيِّن الزهد ، جَمَّ التواضع ، موصول

(١) راجع الفكاهة فى الادب ١٢–٣٤ أحمد الحوفى
بسام العشيات : كناية عن ترحيبه بضيوفه اذا جاءوا اليه وقت العشية .
كالح : عابس مكشر . قطوب : زاو ما بين عينيه .

الرحمة ، حلو الشمائل كلها ، فلا عجب أن كان يتفكه حيناً : ويطرب للفكاهة أحياناً ، لأنه كما جاء فى وصف السيدة عائشة له : ما خُيِّرَ بين أمرين إلا أخذ أيسرهما ، ما لم يكن إثما ، فإن كان إثما كان أبعد الناس عنه(١) .

ذكر على بن أبى طالب أن رسول الله كان دائم البشر ، سهل الخلق وكان أكثر الناس ابتساماً فى وجوه أصحابه . وتعجباً مما تحدثوا به : ولربما ضحك حتى تبدو نَواجِذه(٢) وذكر غيره أن النبى كان أضحك الناس وأطيبهم نفساً(٣) .

وإذا كان بعض الصحابة قد وصفوا ضحك النبى بأنه تَبَسُّم . فإن آخرين قالوا إنه كان يضحك أحياناً حتى تبدو نواجذه(٤) ، ولكنه إذا جرى به الضحك وضع يده على فيه(٥) .

وقد وصفته السيدة عائشة بأنه إذا خلا فى بيته كان ألين الناس بسَّاماً ضَحَّاكاً .

وهذا حق ، لكن بشره وضحكه لم يكن فى بيته وبين أهله فحسب . بل كان أيضاً فى غير بيته وفى غير أهله .

ولهذا روى عنه صلى الله عليه وسلم قوله : رَوِّحُوا القلوبَ ساعةً بعد ساعة ، فإن القلوبَ إذا كلَّتْ عميَت ، وقوله : لا خير فيمن لا يَطْرَب ولا يُطْرِب(٦) .

---

(١) فتح المبدى ٦٠/٣
(٢) الاحياء ٣٢٥/٢
(٣) كنز العمال ٢٧/٤
(٤) المواهب اللدنية ١٣٥ .
(٥) كنز العمال ٢٧/٤
(٦) نهاية الارب ١/٤ والعقد الفريد ٣٢٦/٣

قال حنظلة : كنا عند رسول الله فوعظنا موعظة رَقَّتْ لها القلوب ، وذَرِفَتْ منها العيون ، وعرفنا أنفسنا ، فرجعت إلى أهلى فدنت منى المرأة ، وجرى بيننا من حديث الدنيا ، فنسيتُ ما كنا عليه عند رسول الله ، وأخذنا فى الدنيا ، ثم تذكرت ما كنا فيه ، فقلت فى نفسى قد نافقت حيث تَحَوَّلَ عنى ما كنتُ فيه من الخوف والرقة : فخرجتُ وجعلتُ أُنادى : نافَقَ حنظلة ... فدخلت على رسول الله وأنا أقول نافق حنظلة ، فقال رسول الله كلاًّ لم ينافق حنظلة . فقلت يا رسول الله كنا عندك فوعظْتَنَا موعظةً وَجِلَتْ منها القلوب ، وذَرَفْتَ منها العيون ، وعرفنا أنفسنا ، فرجعت إلى أهلى فأخذنا فى حديث الدنيا ، ونسيتُ ما كنا عندك عليه .

فقال صلى الله عليه وسلم : يا حنظلة او أنكم كنتم أبدا على تلك الحالة لصافَحتْكُم الملائكة فى الطرق وعلى فراشكم ، ولكن يا حنظلة ساعة وساعة (١) .

وكان صلى الله عليه وسلم من أفكه الناس مع صبى ، ومن أفكههم إذا خلا مع أهله (٢) .

لكن مزاحه كان من الطراز الرفيع اللائق به ، فإنه كان يمزح ولكنه لا يقول إلا الحق ، ولهذا نجد الفكاهة المروية عنه كلها من الكناية أو التورية .

ولهذا كان سفيان على حق فى رده على من قال له إن المزاحَ هُجْنة

---

(١) الاحياء ١٤٣/٤

(٢) لسان العرب مادة فكه

بقوله : لا ، بل سنة لقوله عليه الصلاة والسلام إنى لأمزح ، ولا أقول إلا الحق (١) .

(١) من فكاهاته

١ ـ جاءت إليه امرأة فقالت : يا رسول الله احملنى على بعير ، فقال : بل نحملك على ابن البعير . فقالت : ما أصنع به ؟ إنه لا يحملنى فقال : ما من بعير إلا وهو ابن بعير (٢) .

٢ ـ قال لامرأة من الأنصار : الْحَقِى زوجك فى عينه بياض ، فأسرعت المرأة نحو زوجها خائفة ، فقال لها : ماذا دهاك ؟ فقالت : قال لى رسول الله إن فى عينك بياضاً ، فقال : إن فى عينى بياضاً لا لسوء .

٣ ـ أتته عجوز أنصارية فقالت : يا رسول الله ، ادْعُ لى بالمغفرة . فقال لها : أما علمتِ أن الجنة لا يدخلها العُجُز . فصرخت ، فتبسم النبى وقال لها : أما قرأت قوله تعالى : « إنَّا أنشأْناهُنَّ إنشاءً ، فجعلناهن أبْكارا عُرُباً أتْراباً » (٣) .

٤ ـ قال أنس بن مالك : إن النبىَ قال لى : ياذَا الأُذُنَيْنِ .

أراد أن يمازحه ، فقال له يا صاحب الأُذنين السميعتين الواعيتين لما سَمِعَتَا ، وفى هذا مدح لذكائه وفطنته (٤) .

٥ ـ كان لأنس أخ اسمه عُمَيْر ، وكان له نُغَرٌ (٥) يلعب به ، فمات ،

---

(١) نهاية الارب ٤/٢
(٢) الاحياء ٣/١١٢ .
(٣) نهاية الارب ٤/٣
(٤) المواهب اللدنية ١٤١
(٥) الاحياء ٣/١١٢ النغر : طائر صغير كالعصفور .

فدخل رسول الله يوماً وهو حزين ، فقال : ما شأنه ؟ قيل له : مات نُغَرُه ، فقال : يا أبا عُمَيْر ، ما فعل النُّغَيْر ؟

٦ – قال أنس إنهم كانوا يوماً عند رسول الله فى بيت عائشة فأرسلتْ صحْفة من بيت أم سَلَمة ، فوُضِعَتْ بين يدى النبى ، فقال : ضعوا أيديكم ، فوضع يده ووضعنا أيدينا ، فأكلنا وعائشة تصنع طعاماً عَجَّلَتْه ، وقد رأت صحْفة أم سلمة ، فلما فرغت من إعداد طعامها جاءت به فوضعته ، ورفعت صحفة أم سلمة فكسرتها . فقال رسول الله : كلوا باسم الله من صحفة عائشة ، غارتْ أمكم ، ثم رد صحفة عائشة إلى أم سلمة ، وقال ، طعام مكان طعام ، وإناءٌ مكان إناء [1] .

٧ – كان رسول الله يباسط أصحابه ، وكان رجل اسمه زُهَيْر يهادى النبى بما يستطرف من البادية ، والنبى يهاديه بما يستطرف من الحاضرة .

وقد جاء النبى إلى السوق يوماً فوجد زهيرا قائماً . فجاءه من قبل ظهره ، وضمه بيده إلى صدره ، فأحس زهير أنه الرسول . فجعل يمسح ظهره فى صدر الرسول رجاء بركته ، وجعل الرسول يقول : من يشترى العبد ؟ قال زهير : إذا تجدنى كاسدا ، فقال الرسول : لكنك عند الله لست بكاسد [2] .

(٢) تقبله للفكاهة

كان الفكهون من أصحابه يضحكونه حينما يَحْسُنُ الإضحاك والضحك وكان يتقبل فكاهاتهم ويأنس إليهم .

---

(١) شرح الزرقانى ٤/٢٧٠
(٢) المواهب اللدنية ١٤٤

قال صُهَيْب : قدمت على رسول الله وهو بقُباء ومعه أبو بكر وعمر ، وبين أيديهم رطَب ، وقد رَمِدْتُ فى الطريق فأصابتنى مجاعة شديدة ، فوقعتُ فى الرطب ، فقال عمر : يا رسول الله ، ألا ترى صهيباً يأكل الرطب وهو أرمد ؟ فقال رسول الله : يا صهيب ، تأكل الرطب وأنت أرمد ؟ فقلت : يا رسول الله : إنما آكل بشق عينى الصحيحة ، فتبسم رسول الله [1] .

وقد اشتهر منهم نُعَيْمان أحد أصحابه البدريين .

وهذه ألوان من فكاهاتهم التى أنس بها رسول الله :

١ ــ أهدى نُعَيْمان رسول الله جرة عسل اشتراها من أعرابى ، وجاء بالأعرابى إلى بيت النبى ، فقال له : خذ الثمن من ها هنا .

فلما قسمها النبى نادى الأعرابى : ألا أُعْطَى ثمن عسلى ؟ فقال النبى : إحدى هَنَات نُعَيْمان .

ثم سأله : لم فعلت هذا ؟ فقال : أردت برك يا رسول الله ، ولم يكن معى شىء : .

فتبسم النبى ، وأعطى الأعرابى الثمن [2] .

٢ ــ جاء أعرابى إلى رسول الله فدخل المسجد ، وأناخ راحلته بفنائه . فقال بعض الصحابة لنعيمان : لو نَحَرتها فأكلناها ، فإنَّا قد قَرِمْنا إلى اللحم ، ويَغْرُم رسول الله ثمنها . فنحرها نعيمان ، فخرج

---

(١) كنز العمال ١٨٣/٢ وفى العقد الفريد ٣٨١/٦ أن النبى قال : يدخل نعيمان الجنة ضاحكا لانه كان يضحكنى ، وذلك أن النبى دخل عليه وهو أرمد ، فوجده يأكل تمرا ، فقال له : أتأكل تمرا وأنت أرمد ؟ فقال : انما آكل من الجانب الآخر ، فضحك النبى حتى بدت نواجده .

(٢) نهاية الارب ٤/٤ والاستيعاب ١٥٢٩

الأعرابي ، فرأى راحلته ، فصاح ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم :
فقال : من فعل هذا ؟ قالوا نعيمان ، فاتّبعه يسأل عنه ، فوجده في دار ضُباعة بنت الزبير بن عبد المطلب قد اختفى في خَنْدَق ، وجعل عليه الجريد ، فأشار إليه رجل ، وقال بصوت عال : ما رأيتُهُ يا رسول الله ، وهو يُشير بإصبعه حيث نُعَيْمان ، فأخرجه رسول الله وقد تعفر وجهه بالتراب ، فقال له ما حملك على ما صنعت ؟ قال : الذين دلوك عليَّ يا رسول الله هم الذين أمروني ، فجعل رسول الله يمسح التراب عن وجهه ويضحك .

ثم غَرَّم رسول الله ثمن الناقة (1) .

٣ — ذكروا أن أبا بكر خرج تاجرا إلى بُصْرَى ومعه نعيمان بن عمرو الأنصارى وسُوَيْبِط بن حَرْمَلَة — وكلاهما بدرى — وكان سويبط على زاد أبي بكر ، فجاءه نعيمان وقال له : أطعمني ، فقال : لا حتى يأتي أبو بكر . وكان نعيمان مَزَّاحاً فكِهاً صاحب دُعابة ، فقال لسويبط : لأغيظنَّك .

فمروا بقوم ، فقال لهم نُعيْمان : تشترون مني عبدا لي ؟ قالوا : نعم ، فقال : إنه عبد له كلام ، وسيقول لكم لست بعبد ، وإنما أنا رجل حر ، فإذا كنتم ستصدقونه فلا تشتروه ، ولا تفسدوا عليَّ عبدى . قالوا : بل نشتريه ، ولا ننظر في قوله . فاشتروه منه بعشر قلائص (2) ، فأقبل بها يَسُوقها ، وأقبل بالقوم حتى عَقَلها ، ثم قال : دونكم ، هو هذا فخذوه ،

---

(1) السيرة الحلبية ٣/٣٧٥ والاستيعاب ١٥٢٨

(2) قلائص : جمع قلوص وهى الناقة الشابة

فجاء القوم وقالوا له : قد اشتريناك . فقال : هو كاذب ، أنا رجل حر ، فقالوا له : قد أخبرنا بخبرك ، فطرحوا الحبل فى عنقه ، وذهبوا به .

فلما جاء أبو بكر أخبره نعيمان ، فذهب هو وأصحابه إلى القوم ، وأخبروهم أن نعيمان كان يمزح ، وردوا عليهم قلائصهم ، واستردوا سويبطاً منهم .

ثم قدموا على رسول الله وأخبروه الخبر ، فضحك حولا كاملا ، لأن سفر أبى بكر كان قبل وفاته صلى الله عليه وسلم بعام[1] .

٤ ــ كانت سويداء تُضْحِكُ السيدة عائشة فيضحك رسول الله ، ثم إنه افتقدها ، فقال : يا عائشة ما فعلت السويداء ؟ قالت : إنها مريضة .

فذهب إليها يعودها ، فوجدها فى الموت ، فقال لأهلها : إذا توفيت فأخبرونى .

فلما توفيت أخبروه ، فشهدها ، وصلى عليها ، وقال : اللهم إنها كانت حريصة على أن تضحكنى فأضحكها فرحاً[2] .

٥ ــ جاءه أعرابى يوماً وهو صلى الله عليه وسلم متغير اللون ، فأراد أن يسأله ، فقال له الصحابة : لا تفعل ، فإننا ننكر لونه ، فقال الأعرابى : دعونى ، فوالذى بعثه بالحق نبياً لا أدعه حتى يبتسم ، فقال : يا رسول الله ، بلغنا أن الدَّجَّال يأتى الناس بالثَّريد وقد هلكوا جوعاً ، أفترى لى بأبى أنت وأمى أن أكُفَّ عن ثريده تعففاً وتنزهاً حتى أهلك هُزالا ، أم أضرب

---

(١) السيرة الحلبية ٣/٣٧٤ والاستيعاب ١٥٢٦ وكنز العمال ٢/١٨٣
(٢) العقد الفريد ٣/٣٠٧

في ثريده حتى إذا تَضَلَّعت شِبَعًا آمنتُ بالله وكفرت بالدجال ؟ فضحك رسول الله حتى بدت نواجذه ، وقال : لا ، بل يغنيك الله بما يغنى به المؤمنين(١) .

(٣) مهابته

لكن سماحة أخلاق المصطفى ، وتبسطه مع المسلمين ، وتواضعه وزهده وصبره وحلمه وعفوه ، لم تزد المسلمين إلا تعلقاً به وتعظيماً له ، فهو الحبيب إلى قلوبهم ، الجليل فى عيونهم ، الأثير على أموا لهم وأبنائهم ونفوسهم ، وهو المَهِيبُ أعظم ما تكون الهيبة .

وصفه على بن أبي طالب بقوله : من رآه بَديهةً هابه ، ومن خالطه معرفةً أحبه ، يقول واصفه : لم أر قبله وما بَعْدَهُ مِثْلُه (٢) .

وقال عمرو بن العاص – وهو فى آخر لحظات حياته يودع الحياة ويحدث ابنه – : ما كان أحد أحب إلىَّ من رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولا أجل فى عينى منه ، وما كنت أطيق أن أملأً عينى منه إجلالا له ، ولو سئلتُ أن أصفه ما أطقتُ ، لأنى لم أكن أملأُ عينى منه .

وقد استرعت هذه المهابة نظر عُرْوة بن مسْعود قبل أن يُسْلِم ، فإنه كان فيمن سَفَرُوا بين النبى وقريش وقت الحُديبية ، فعاد إلى قريش فقال لهم : والله ما أَمَرَ محمد أصحابه إلا ابتدروا أمره ، وإذا توضأَ كادوا يقتتلون على وضوئه ، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده ، وما يمدون إليه

---

(١) الاحياء ٣٢٥/٢
(٢) الاحياء ٣٣٧/٢

النظر تعظيماً له ، ولقد وفدت على قيصر وكسرى والنجاشى ، فما رأيت ملكاً قط يعظمه أصحابه مثل ما يعظم محمداً أصحابه[1] .

لهذا كان يَفْرقُ لرؤيته من لم يره من قبل ، ولم يأنس إليه . كما روى عن قَيْلَة أنها لما رأته أُرْعِدتْ من الفَرَق ، فقال لها : يا مسكينة عليك السكينة .

وذكر ابن مسعود أن رجلا قام بين يديه فأُرْعِدَ ، فقال له : هَوِّنْ عليك ، فإنى لست بملك ، إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القَديد[2] .

اباحة الفكاهة

قال عليه الصلاة والسلام :

١ ـ لا خير فيمن لا يَطْرَبُ ولا يُطرِب[3] .

٢ ـ رَوِّحُوا القلوبَ ساعة بعد ساعة ، فإن القلوب إذا كلَّتْ عَميتْ[4] .

٣ ـ إنى لأمزح ولا أقول إلا الحق[5] .

٤ ـ كل معروف صدقة ، ومن المعروف أن تلقى أخاك بوجه طَلْق[6]

٥ ـ إن الله يحب السهل الطلق الوجه[7] .

٦ ـ إن أبغض الرجال إلى الله الألدُّ الخصم[8]

٧ ـ إن الله يحب الرفق فى الأمر كله[9] .

---

(١) فتح المبدى ٢/٢٨٢

(٢) نور اليقين ٢٨٥ والشفا ١/٧١ ، ١٠٣ . القديد : اللحم المقدد

(٣) الى (٥) العقد الفريد ٣/٣٠٦ ونهاية الارب ٤/١

(٦) المنتخب من السنة ٧/٢٩٧ من مسند احمد وسنن الترمذى

(٧) و (٨) الاحياء ٣/١٠٢

(٩) فتح المبدى ٣/٢٠٥

خاتمة المطاف

أما بعد

فإن لكل دراسة نتائج تنتهى إليها ، وحقائق تُشَيِّدُ عليها . فما نتائج هذه الدراسة ؟ وما حقائقها ؟

١ ــ لقد اتضح أن المذاهب الأخلاقية لا تخلو من قصور وعيوب . لأنها من وضع أفراد مهما يبلغوا من ذكاء العقل ، وصواب الرأى . وحسن النية ، فإنهم متأثرون ببيئاتهم ونزاجهم وبتفكيرهم .ولهذا تباينت آراؤهم ، وتنافرت أهدافهم ، ولم يصلح مذهب من مذاهبهم لأن يكون دستورا ثابتاً يَطِبُّ لأدواء البشر ، ويكفل الخير لهم، على اختلاف البيئات والأعصار .

٢ ــ وتبين أن الأخلاق الإسلامية هى المثل الأعلى الذى يجب على الناس أن يستشرفوه ، لأن ينبوعها الدين ، ومحورها التقوى ، وغايتها سعادة الأفراد والجماعات ؛ ولها خصائصها التى تكفل لها قوة الباعث . وسرعة الاستجابة ، ويقظة الرقابة ، ونبل الغاية ، وعمق الثبات ، وموازرة الضمير الحى ، والعقل السليم والصلاحية الكاملة للنهوض بالأمة

٣ ــ وتجلى من الوقفات القصار أمام أخلاق الرسول صلى الله عليه وسلم أنه برسالته الخالدة ، وبأدبه الإلهى ، وبأخلاقه القرآنية الإنسان

الكامل ، والمثل الأعلى ، ومالك الفضائل المتآزرة فى أعلى صورها ، فى سلمه وحربه ، وفى بيته وبين صحبه ، وفى رضاه وغضبه ، وفى سره وجهره ، وفى وحدته واجتماعه ، ومع أعدائه وأتباعه ، ومع الأقوياء والضعفاء ، ومع الأحرار والأرقاء ، ومع الرجال والنساء ، وفى كل شأن من شئونه جلَّ أو صغُر .

ولهذا أثنى الله سبحانه وتعالى عليه بما لم يثن به على نبى من أنبيائه ، فقال : « وإنَّكَ لعلىَ خُلُقٍ عظيم » ، وأقسم بحياته وهو سبحانه لم يقسم بحياة نبى آخر . فقال : « لعَمْرُكَ إنهم لفى سَكْرتهم يَعْمَهُون » .

٤ ـ ولقد ربَّى النبى على هذه الأخلاق العليا صحابته . فأُشْرِبَتْها قلوبهم ، فاستحقوا أن يكونوا خير أمة أُخرجت للناس . يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، وينصرون دين الله ، ثم ربَّى الصحابةُ جيلا بعدهم : وسقوه من هذا المنْهل الفريد ، فنبغ فى الأُمة من لا يحصيهم العَدُّ من الأبطال والقادة والعلماء والمصلحين وحاملى مشاعل الهداية فى كل مكان وطئته أقدام المسلمين ، وبهذا دانت لهم الأرض ، ورحب بهم الخَلْق ، وسعد بحكمهم الناس .

٥ ـ وكثيرا ما حاول الدارسون استكناه السر الذى نفخ فى المسلمين الأولين تلك القوى النفسية والمادية التى مكنتهم فى نحو قرن واحد أن ينتقلوا من قِلَّة متَبَدِّية مستضعفة إلى كثرة متحضرة مرهوبة . فقوضوا ملك الفرس والروم . وانتشروا فى بقاع الأرض هداة ومعلمين ودعاة إلى الحق والخير والحرية ، وسادة يحكمون الناس . ويقضون فى كل شئونهم بالقسطاس .

لكن القوة التى حاروا فى الكشف عنها ، واختلفوا فى التعليل لها ، ليست سرا مُحَجَّباً ولا خفِيًّا ولا محتاجاً إلى فروض . لأنها وليدة العقيدة وما تحمله العقيدة من تقوى وأخلاق ، فقد كان المسلمون شجعاناً أسخياء بأنفسهم وأموالهم فى سبيل الله ، وفى نصرة الحق . وفى حماية العقيدة ، وفى فداء الوطن ، وكانوا كرماء بأموالهم يجود بها أغنياؤهم على فقرائهم ، وكانوا عُدولا فى أحكامهم : أعِفَّاء فى أفعالهم وأقوالهم ، حُفَّاظاً على أماناتهم ، وكانوا صُبُرا على المكاره . عافين عند المقدرة ، زُهَّاداً فى متاع الدنيا ومظاهر الجاه ، سواسية كأسنان المشط ، رحماء بالضعفاء . كانوا أتقياء فيما يعملون وفيما يذرون ، اتخذوا من رسول الله أُسْوتَهم فى كل فضيلة ، إذْ كان قمة البشرية الكاملة ، فكانوا هم ذروة الأُمم المعاصرة الماثلة ، وبهذا كله سادوا العالم سيادة عقيدة ولغة وعلوم وثقة وحضارة .

فلما غُشِّيَتْ أبصارهم ، وضَعُفَت رؤيتهم : خَفَتَ صوت التقوى . ووَهَنَت الأخلاق ، وعمت الفرقة ، فصار الجمع الموحد أوْزاعاً . وانقسمت الأُمة الواحدة أشياعاً ، فارتد المسلمون السادة أتباعاً .

٦ — واليوم أفاقت الأُمة من خدرها ، وجعلت تَشُقُّ طريقها إلى استعادة مجدها ، واستشرا ف مصيرها .

فلتعلم علم اليقين أنه لا سبيل لها إلا دينها ، ولا علاج لأمراضها إلا تقواها ، وليس لها من سلاح أقوى من مكارم الأخلاق .

وإن لها في رسول الله الأُسوة المُثْلى ، والقدوة العُظْمى ، والضوء الهادى إلى سواء السبيل .

المراجع

مرتبة ترتيباً هجائياً

١ ـ إحياء علوم الدين . الغزالى . المطبعة العثمانية المصرية ١٣٥٢هـ ١٩٣٣ م .

٢ ـ الأخلاق . صمويل سميلز . ترجمة الأستاذ محمد الصادق حسين . مطبعة والدة عباس الأول ١٣٢٩هـ ١٩١١ م .

٣ ـ الأخلاق . الأستاذ عبد الرحمن زغلول . نشره الأستاذ محمد عبد الجواد . مطبعة المعارف بمصر ١٩٣٦ م .

٤ ـ الاستيعاب في معرفة الأصحاب . ابن عبد البر .

١ ـ تحقيق الأستاذ على البجاوى . مطبعة نهضة مصر .

٢ ـ مطبعة مجلس دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن ١٣١٨ هـ .

٥ ـ أسد الغابة فى معرفة الصحابة . ابن الأثير . المطبعة الوهبية بالقاهرة . ١٢٨٠ هـ ومطبعة جمعية المعارف .

٦ ـ الإصابة فى تمييز الصحابة . ابن حجر العسقلانى . مطبعة السعادة بالقاهره .

٧ ـ إمتاع الأسماع بما للرسول من الأبناء والحفدة والمتاع . المقريزى . تحقيق الأستاذ محمود شاكر . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٩٤١ م .

٨ - إنسان العيون فى سيرة الأمين والمأمون المعروف بالسيرة الحلبية برهان الدين الحلبي . المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٩ هـ .

٩ - البيان والتبيين . الجاحظ . تحقيق الأستاذ عبد السلام هارون مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م .

١٠ - تاريخ الأمم والملوك . الطبرى . المطبعة الحسينية المصرية .

١١ - تاريخ التربية . الأستاذ مصطفى أمين . مطبعة المعارف ١٣٤٣ هـ ١٩٢٥ م .

١٢ - تاريخ شرق الأردن وقبائلها . الكولونيل فردريك بيك .

١٣ - تحت راية الإسلام . الدكتور أحمد محمد الحوفى . نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية بالقاهرة ١٣٨٥هـ ١٩٦٥ م .

١٤ - تفسير القرآن الكريم (جزء عم) الشيخ محمد عبده . مطبعة بولاق ١٣٢٢ هـ .

١٥ - تهذيب الأخلاق وتطهير الأعراق . ابن مسكويه . المطبعة الحسينية المصرية ١٣٢٩ هـ .

١٦ - تيسير الوصول إلى جامع الأصول من حديث الرسول . ابن الديبع الشيبانى الزبيدى . مطبعة الجمالية بمصر ١٣٣١ هـ .

١٧ - جامع البيان في تفسير القرآن . الطبرى . مطبعة بولاق ١٣١٣ هـ .

١٨ - الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير . السيوطى . دار الطباعة العامرة بمصر ١٢٨٦ هـ .

١٩ - الحياة العربية من الشعر الجاهلى . الدكتور أحمد محمد الحوفى . الطبعة الرابعة . دار نهضة مصر ١٣٨٢ هـ . ١٩٦٢ م .

٢٠ ـ الخصائص . ابن جنى . مطبعة الهلال بمصر ١٣٣١ هـ ١٩١٣ م .

٢١ ـ زاد المعاد فى هدى خير العباد . ابن القيم الجوزيه ١٣٥٣ هـ ١٩٣٤ م .

٢٢ ـ سماحة الإسلام . الدكتور أحمد محمد الحوفى . نشره المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ١٣٨٣ هـ ١٩٦٣م .

٢٣ ـ سير أعلام النبلاء . شمس الدين الذهبي . دار المعارف بمصر ١٩٥٧م

٢٤ ـ السيرة النبوية . ابن هشام . تحقيق الأساتذة مصطفى السقا وإبراهيم الإبيارى وعبد الحفيظ شلبي . مطبعة مصطفى البابى الحلبي ١٣٥٥هـ ١٩٣٦ م .

٢٥ ـ شرح الزرقانى على المواهب اللدنية . القسطلانى . المطبعة الأزهرية المصرية ١٣٢٥ هـ .

٢٦ ـ الشفا بتعريف حقوق المصطفى . القاضى عياض . المطبعة العثمانية ١٣١٢ هـ .

٢٧ ـ صحيح مسلم . المطبعة المصرية ١٣٤٩ هـ . ١٩٣٠ م .

٢٨ ـ الطبقات الكبرى . ابن سعد . نشرة إدورد سخاو . مطبعة بريل بليدن ١٣٢١ هـ .

٢٩ ـ العقد الفريد . ابن عبد ربه . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م .

٣٠ ـ علم الأخلاق . أرسطو . ترجمة الأستاذ أحمد لطفى السيد . مطبعة دار الكتب بالقاهرة ١٣٤٣ هـ ١٩٢٤ م .

٣١ ـ عيون الأخبار . ابن قتيبة . مطبعة دار الكتب بالقاهرة .

٣٢ ـ فتح البارى بشرح صحيح البخارى . العسقلانى . المطبعة الأميرية ١٣٠١هـ .

٣٣ـ فتح المبدى بشرح مختصر الزبيدى لصحيح البخارى . الشيخ عبد الله الشرقاوى . مطبعة مصطفى البابى الحلبى ١٣٣٩ هـ .

٣٤ـ الفكاهة فى الأدب . الدكتور أحمد محمد الحوفى . دار نهضة مصر بالقاهرة . ١٣٨٦هـ ١٩٦٦ م .

٣٥ـ القاموس المحيط . الفيروزابادى .

٣٦ـ الكامل . المبرد . مطبعة مصطفى محمد بمصر ١٣٥٥ هـ .

٣٧ـ الكامل فى التاريخ . ابن الأثير . مطبعة الحلبى ١٣٠٣ هـ .

٣٨ـ كتاب الأخلاق . الأستاذ أحمد أمين . مطبعة دار الكتب المصرية ١٣٥٢ هـ ١٩٣٣ م .

٣٩ـ كتاب المغازى . الواقدى . تحقيق الدكتور مارسدن جونس . مطبعة جامعة اكسفورد ١٩٦٦ م

٤٠ـ الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل . الزمخشرى . المطبعة البهية المصرية ١٣٤٣ هـ.

٤١ـ كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال . الشيخ علاء الدين المتقى ابن حسام الدين الهندى . مطبعة دائرة المعارف النظامية بحيدر آباد الدكن ١٣١٢ هـ

٤٢ـ اللؤلؤ والمرجان فيما اتفق عليه الشيخان (البخارى ومسلم) وضعه الأستاذ محمد فؤاد عبد الباقى . مطبعة عيسى البابى الحلبى ١٣٦٨ هـ ١٩٤٩ م .

٤٣ـ لسان العرب . ابن منظور .

٤٤ ـ المجازات النبوية . الشريف الرضى . مطبعة مصطفى البابى الحلبى ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧م .

٤٥ ـ محمد المثل الكامل . الأستاذ محمد أحمد جاد المولى . الطبعة الثالثة ١٣٥٦ هـ ١٩٣٧ م.

٤٦ ـ مسند الإمام أحمد بن حنبل . المطبعة الميمنية بمصر ١٣١٣ هـ ومطبعة دار المعارف ١٣٧١ هـ ١٩٥١ م .

٤٧ ـ المغنى عن حمل الأسفار فى الأسفار فى تخريج ما فى الإحياء من الأخبار . زين الدين أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقى . على هامش إحياء علوم الدين للغزالى .

٤٨ ـ المواهب اللدنية للبيجورى على الشمائل المحمدية للترمذى . المطبعة البهية بالقاهرة ١٣٠١ هـ .

٤٩ ـ ميزان العمل . الغزالى . شركة الطباعة الفنية المتحدة بالقاهرة .

٥٠ ـ نهاية الأرب . النويرى . مطبعة دار الكتب .

٥١ ـ نور اليقين فى سيرة سيد المرسلين . الأستاذ محمد الخضرى . الطبعة الرابعة ١٣٢٧ هـ .

فهرس الكتاب

مطابع الأهرام التجارية - قليوب - مصر

رقم الايداع بدار الكتب
١٩٧١ / ٥٦١٠

مطابع الأهرام التجارية ـ قليوب ـ مصر